

بلاغة العرب في الأندلس

تأليف

دكتور/ أحمد ضيف

الأستاذ بالجامعة المصرية

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ-2012
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الدكتور ضيف، احمد بن على بن اسماعيل ضيف ، 1880-1945
بلاغة العرب في الاندلس / تليف: احمد ضيف
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2012
338 ص ، 24 سم
تتمك : 8-578-341-977-978
ا- البلاغة العربية
- العنوان

نوى: 414

رقم الايداع: 2012/14335

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضرباً من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالأدب نادرة ظريفة، أو عبارة طريفة، أو حكمة بليغة، أو بيت شعر يملك النفس، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة. ويقولون فلان أديب: لأنه كثير النادرة، حاضر الذاكرة، واسع الاطلاع، أنيس الجليس، عذب الحديث، حافظ رواية. ويقولون هذا كتاب أدب: لأنه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها، والشعر وأنواعه، والنوادر الخاصة والعامة، وتواريخ الملوك والأمم. ويقولون فلان كاتب: لأنه طلى العبارة، عارف باختيار الألفاظ، عالم بكثير من المترادفات، تنقاد إليه البلاغة انقياداً، فيصور الحق باطلاً، ويجعل الباطل حقاً.

ولكن الأدب نتائج العقول والقرائح البشرية، وقوة الفكر والإدراك الإنسانى التى تنفتق بها ألسنة الشعراء، وتسيل بها أقلام الكتاب، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظة وإعجاباً، بصحيح الآراء وجمال الافتنان، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الإدراك، وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويراً يقرب من أن يكون مدرّكاً بالحواس.

إن البلاغة - أو الأدب كما يقولون - هى خلاصة كد العقول والأفهام، وثمره هذا الاضطراب الفكرى الذى ما برح دليلاً على قوة الإدراك وحياة النفوس العاقلة. الغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الألفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن

يدركها عقله إدراكاً ثم يتركها تمر ولا تعود، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بعبارات تكشف عن أسرارها وتبين حقيقتها. قال أحد كبار نقاد الأدب "ليست الحياة الآن لهواً أو لعباً، ولكنها نوع من المسابقة والمباراة. ذلك إلى أننا جميعاً مضطرون إلى إبداء آرائنا في الدين والفلسفة والسياسة والفنون والاجتماع. إذ على كل واحد منا أن يكون مخترعاً أو آخذاً طريق غيره. والاختراع صعب المنال، والتقليد مخجل مؤلم. ليست الحياة دار مسامرة، ولكنها معمل فكر وجد. أتظن أن معملاً كيميائياً يكون من دواعي السرور؟ أو أن ميدان مسابقة يكون من أسباب الراحة؟ لقد تكون فيه الوجوه مقطبة، والعيون متعبة، والجبهة في حيرة والحدود شاحبة" (١).

والحق أن حركات العقول الإدراك ليس لها أن تظهر إلا على أقلام الكتاب وألسنة الشعراء. ليس الأدب من دواعي اللهو، وإنما من دواعي الإعجاب والعبرة. أما العبرة فلما له من آراء الكتاب والشعراء المحتوية على كثير من صور الإنسان وحالات الاجتماع. وأما الجمال فهو من أخص لوازم الأدب، لأنه من فنونه، ولأن الكتابة لا تدخل في باب الأدب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتأسر العقول بما فيها من جمال التعبير وحسن الأسلوب والافتنان في العبارة، وحتى يكون صاحبها من أصحاب المواهب الفنية، والملاحظات الدقيقة، والإبداع المطلق.

بهذا يمكن أن يكون الأدب شيئاً من جمال الحياة وأثراً من آثار العقول، ومعرضاً لصور النفوس والإدراك الإنساني، وفناً من فنون الجمال، ودليلاً على الحياة العقلية. فهو أكثر الأشياء انتشاراً في الحياة ومن ألصق الأشياء

(1) Voir St Beuserie de Iundi T. 18. P, 250

بالإجماع. لأنه كل هذه الأحاديث التى فى المجالس الخاصة والعامة، والمسامرات من جد وهزل وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه، وما يتحدث به عن نفسه، وما يحدثه به ضميره، وما يمر بذاكرته، وما يوقظ منه حب الاستطلاع. فليس أدل على الحياة من الأدب.

قد تستغنى بعض الأمم عن سماع الموسيقى، وربما لا تدرك جمال التصوير. ولكن أمة من الأمم لا تعيش بدون أن تعبر عن إدراكها، ولا بغير أن تثبت عواطفها وإحساساتها، ولا من غير أن تتغنى بآلامها وأحزانها وحظها من الحياة أو آرائها فى الوجود.

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو إدراك معانيها النفسية والاجتماعية. ويجب مع هذا أن يسلك كاتبنا وشعراؤنا طريقاً غير هذا الطريق الذى سارت فيه آدابنا زمنًا طويلاً فلم تتقدم خطوة واحدة، ولم تسلك مسلكاً نافعاً، ولم تفد الاجتماع شيئاً كثيراً، يجب على شعرائنا وكاتبنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقدها فى كتاباتهم، والعمل على إصلاحها، وإرشاد الناس إلى طريق الخير. وذلك لا يكون إلا بكتابة القصص الاجتماعية، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية، التى لا يرى القارئ فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر، وقد تكون نفساً مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر.

إن أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحاً لحالتنا الاجتماعية، ولا لنفوسنا التى تهذب بشئ من العلم الصحيح، والنظر فى حياة الأمم المختلفة. هذه النفوس لا تطمئن الآن إلى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنمقة. لأنه لا يطربها هذا الصوت القديم، ولا تلك الحكم

البالية المحفوظة التي ذهبت بجذتها الألسن الكثيرة مرورها على الأفواه والأذهان.

إن الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسن أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعذوبة المنى - كما يقولون - وأنواع البديع، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل، وأن الناس أحوج إلى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم إلى العبث بالألفاظ والبراعة فى التشبيه.

هذا ما ندعو إليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها. ويجب مع هذا أيضاً أن يعنى المؤلفون والأدباء بيان ما فى بلاغة العرب، من نثر ونظم وما فى ذلك من الأفكار العامة والمسائل الاجتماعية التى لا تخلو من معرفتها الشعراء والكتاب، والتى هى نتائج العقول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الأمم. وهذا ما حاولناه فى الكلام على بلاغات العرب فى الأندلس فى هذا الكتاب.

كان لعرب الأندلس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة فى الخيال، وقدرة على الابتكار. وكانت دولة الأدب هناك فى عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته غاصة بالشعراء والكتاب فى كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة. "من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمتع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهير والأوتار لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورءوس شعر وكتابة. ترفقوا فأنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر. وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء"^(١).

(١) راجع خطبة ابن بسام فى الجزء الأول من الذخيرة.

"فالأندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم وافتتانا في المنشور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة... وهم أشعر الناس فيما كثره الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الأشجار والأنهار والأطيار، ينازعهم أحد في هذا الشأن... وأما إذا هب نسيم. ودار كأس في كف ظبي رخيم. وصفق للماء خرير. أو راقب العشية وخلفت السحب أبرادها الفضية والذهبية. أو تبسم عن شعاع ثغر نهر، أو ترقرق بطل جفن زهر. أو خفق بارق. أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهوى كالماء والريح.. فأولئك هم السابقون الذين لا يجازون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف إذا تقعقع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح. وبنت الحرب من العجاج سماء. واطلعت شبه النجوم أسنة وأجرت شبه الشفق دماء... وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم للعربية. وبقاعهم النضرة وهمهم الأبية.. الخ" (١).

فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها، ولا سيما ما ابتكروه من أنواع المعاني والخيال في النظم والنثر.

لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئاً من هذا. وبدأنا كلامنا بفصول موجزة عن تاريخ العب وحضارتهم في الأندلس، حتى لا يحرم من لا يريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الإيجاز.

ولكننا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخنا جامعاً لأدب العرب وبلاغتهم في الأندلس، ذلك لم يكن نم غرضنا الآن. وإنما أردنا أن نجتمع

(١) راجع نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ ص ١٠٧.

طائفة قليلة من الشعراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيئاً من منظومهم
ومنشورهم ونتكلم عما لهم من الآثار الفنية فى شعرهم ونثرهم، لنفتح على
طلاب الأدب وتلاميذ المدارس باباً من أبواب الفهم والبحث فى بلاغة
العرب. فإذا وفقنا الله إلى العودة فى هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من
هذه. والله المسئول أن يرشدنا إلى الصواب.

القاهرة فى ذى القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يونية سنة ١٩٢٤

أحمد ضيف

المصادر الأدبية والتاريخية للأندلس

- نفح الطيب للمقرى (طبع مصر وليدن).
- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع ليدن).
- البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدن).
- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر).
- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم (طبع مجريط).
- الجزء الثانى والعشرين من كتاب نهاية الأدب فى فنون الأدب للنويرى وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين ومن ملك بعد بنى أمية إلى حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة).
- الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر).
- مقدمة ابن خلدون.
- تاريخ مسلمى أسبانيا لدوزى (طبع باريز).
- Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne. Paris.
- تاريخ العرب والمغاربة فى أسبانيا والبرتغال لكوند (طبع باريز).
- J. Cond. Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal.
- تاريخ العرب العام نسيدىو (طبع باريز).

- Seddillot. Histoire generale des Arabes, Paris.
- تاريخ العرب لهوار (طبع باريز).
- C. Huart. Histoire des Arabes. Paris.
- Recherche sur Thistoire et la litterature arabe en Espagne.
- 2 Volumes Par Dozy.
- Histoire des Arabes et des Maures d,Espagne. Par Louis Viadot. 2 Vols, Paris 1851.
- Enecyclopedie de Plslam.
- ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن نسخة فى مكتبة بطرسبورغ).
- بحث فى حياة ابن زيدون لاوغست كور (طبع الجزائر).
- Auguste Cour. Lbn Zaidoun. Alger.
- طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبع بيروت ومصر).
- قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر).
- مطمح الأنفس للفتح بن خاقان (طبع الأستانة).
- الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزأ فى دار الكتب المصرية والجزء الثالث فى مكتبة برلين والرابع مفقود).
- ديوان ابن حمديس الصقلى (طبع رومة).
- الحلة السيرة لابن الأبار (طبع ليدن).

- المكتبة العربية الأندلسية وهى الصلة لابن بشكوال فى جزأين وبغية
الملتبس للضبى والمعجم لابن الأبار والتكملة لكتاب الصلة لابن
الأبار وتكملة التكملة لابن الأبار (طبع مجريط) وتاريخ علماء
الأندلس لابن القرضى وفهرست ما رواه عن شيخوخه من الدواوين
فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموى الإشبلى
نشرها المستشرقان الأسبانيان كوديرا وريبيرا (طبع مجريط).

- F. Codera et J. Ribera Bibliotheca Arabi - co Hispana.

- المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى (طبع ليسيك).

- M. Amari Bibliotheca Arabo - Sieula (Leipzig).

- قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن).

- ترجمة ابن عباد (طبع ليدن).

- دار الطراز فى الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار الكتب
المصرية).

- تاريخ الأدب العربى تأليف نيكلسون.

- A Literary History the Arabs By Niehelson.

obeikandi.com

العرب فى الأندلس

ظهر الإسلام فى العرب فانتشروا فى الأرض وأوغلوا فى الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا فى البلاد وانساب عليهم الظفر والغنائم. فوجدوا فى ذلك مطمئناً لهم، وسعة لدولتهم، وعوناً لدينهم، وعزاً لمجدهم. ففتحوا فى نحو ثلاثة قرون ما لم تصل إليه أكبر دولة فى العالم.

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالأندلس. فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء، كانت أعظم دولة أقامها العرب، وأفخر مدنية جاء بها الإسلام. توغل المسلمون فى إفريقية سنة ٥٠ من الهجرة فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، بقيادة عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان. وانتشروا فى بلاد البربر شمال إفريقية فأسلم سكانها. وفى سنة ٨٢ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى موسى بن نصير بولاية إفريقية. فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر. ثم سار إلى طنجة وفتحها. فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة. وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة موله طارق بن زياد. ثم تطلع إلى فتح أسبانيا، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها. فاستأذن الخليفة فى ذلك، ونزل الشواطئ فى سنة ٩١ هـ، وفى سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه. وانتشروا فى بلاد الأندلس انتشاراً عظيماً. ولما استقرت قدمهم هناك نزح إليها العرب من كل بطن وقبيلة، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم. فمن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود. ومنهم المخزوميون الذين

منهم أبو بكر المخزومي الشاعر الأعمى المشهور، والوزير ابن زيدون. ومن بينهم الفهريون، ومنهم عبد الرحمن الفهرى الذى غلبه على أمره، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالأندلس. أما القحطانيون أو اليمينيون فكانوا أكثر انتشاراً. ومن قبائلهم كهلان. ومنها محمد بن هانىء الشاعر المشهور، ومنهم الأزد ومنهم الجم الغفير بالأندلس^(١) ورحل إلى الأندلس أيضاً كثير من أهل مصر والشام والعراق. كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر. واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة، وجمعهم الإسلام فكانوا أمة واحدة. ولكن هذه الأمم لك يكد يجتمع أمرها حتى دب فيها ديبب التنازع. وكانت العصبية العربية فى أشد ما تكون. فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة. ودارت رحى الحرب بين اليمينيين والمضريين، وتنافسوا فى الملك، حتى أدى ذلك إلى انقسام الإمارة فيهم وأدلتها بين الجندين سنة لكل دولة^(٢). وكان خلفاء بنى أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييداً لملكهم، ويميلون إلى اليمينيين الذين نصروهم فى واقعة مرج راهط. فكان انقسام منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد^(٣). وقد دامت هذه الفتن مدة وجود الدول الإسلامية فى بلاد الأندلس، حتى قيل: ليست هناك بقعة من أرض الأندلس إلا رويت بدماء المسلمين. ولم يكد يخلو يوم من الأيام التى خفقت فيها راية الإسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود، أو بين بعض المسلمين وبعض.

(١) راجع الباب الثانى من نفح الطيب.

(٢) انظر الجزء الأول من تاريخ المسلمين فى أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠.

(٣) راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الأول من كتاب دوزى المذكور.

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية، وأيام زاهرة، أثمرت فيها قرائحهم وجهودهم. وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة. وربما كان ذلك التنافس فى الملك من أسباب رقى تلك البلاد. لأن كل أمير أو خليفة كان يريد أن يوطد ملكه ينشر العلوم والمعارف، ولا سيما أن العباسيين كان مدينتهم أزهرت فى بغداد، فأرادوا أن يجاورهم فى قرطبة، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل. هذا إلى ما كان عليه العربى من ميله للعلم ونشره، لأنه كان يرى فى ذلك نشر المدنية على يديه، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والإعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الأخلاق العربية. ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق فى نومه، فإذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد.

ولما دخل العرب الأندلس أدخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التى كانت من أكبر مظاهر الفنون لديهم، فتتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد. وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفاتح العظيم، التى تدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند، وكيفية امتلاكها بالرهبة أحياناً والرغبة تارة، وبث الأمل فى نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الأجر من الله، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسانه. قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكبر منه عدداً وعدة، لأنه دخل الأندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أربب بهم سبعين ألفاً من الأعداء.

وهذه الخطبة هى أول ريح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب. وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك. بل أول تاريخ البلاغة العربية. ولم تكن

بلاغتها فى الأسلوب وحده، بل فى الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طب العربى. وهى من نوع الكلام الذى يوحى به حب الجهاد، والرغبة فى نيل الأجر الدنى والأخروى معاً، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو، أو الموت فى سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين. وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب فى القتال ما لا يكون إلا من قلب حديد وقائد عظيم مجرب^(١).

(١) وهذه هى خطبة طارق بن زياد:

أيها الناس. أين الظفر. البحر وراءكم. والعدو أمامكم. وليس لكم والله. لا الصديق والصبر. واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة. أصبغ من الأيتام فى مأدبة اللثام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة. وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم. ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية. فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن صحتم لأنفسكم بالموت. وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة. ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس. أبرأ منها بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالألفة الألد طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى. فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان. والحلل المنسوجة بالعقبان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباً. ورضيكم للملك هذه الجزيرة اصهاراً واختائاً. ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان. ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته. إظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين. واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وأنى عند ملتقى الجمعين حامل على طاغية القوم لذريق فقالته إن شاء الله تعالى. فاحملوا معى فإن هلك بعدة فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عائل تستندون أموركم إليه. وإن هلك قبل وصولى غلبه فاحلفونى فى عزمى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقلته فإنهم بعده يخذلون (نفع الطيب طبع أوروبا جزءاً صحيفة ١٥٠).

هذا وقد كانت للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية. أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح إلى سنة (١٣٨). وتولى الأمر فيها عشرون أميراً كانت مدتهم ستة وأربعين عاماً (٩٢ - ١٣٨). وكانت هذه الإمارات تابعة للخلفاء في المشرق زمن الأمويين والعباسيين. ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان. ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين، وكان قد فر من ظلم أبي جعفر المنصور الذي نكل بيني مروان، إلتجأ إلى بلاد البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه، وأسس هناك دولة بنى أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ استولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين، فتأسست دولة بنى أمية التي كان عصرها من أزهى عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها. وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (إلى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة. وقد بلغت الدولة ذورة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق. فكان نور المدنية الإسلامية يسطع من المشرق والمغرب معاً. فإن عبد الرحمن الداخل عاش من عصر أبي جعفر المنصور إلى زمن هارون الرشيد (١٣٢ - ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان في ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعبتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون.

وبعد زوال دولة بنى أمية انقسم أحزاباً وشيعاً. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموها ملوكها بملوك الطوائف. فقام ابن عباد في إشبيلية. وابن

الأفطس فى بطليموس . وذو النون بطليطلة . وابن هود بسرقتسة إلخ .
وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطراباً^(١) .

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الأفطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو واللغة والشعر نوادر الأخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع فى نحو ٥٠ مجلداً . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر . قالوا : وكانت أيام بنى المظفر أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب . وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة . وكان بنو هود ملوك سرقسطة وما يليها من أهل العلم وأنصاره . فقد كان المؤمن بن المقتدر بالله قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تواليف . منها كتاب " الاستكمال والمناظر " ومن أشهرهم أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد ، كان شاعراً أديباً . وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون . ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف . ولم تذهب دولته إلا بعد أن استعان بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه وأسرته فى

(١) قال صاحب المجيب : وأما حال أهل الأندلس بعد انحلال دعوة بنى أمية فقد تفرقوا فرقاً وتغلب فى كل منها متغلب ؛ وضبط كل متغلب ما تغلب عليه وتقسما ألقاب بالخلافة . فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من ألقاب الخلافة . وفى ذلك يقول أبو على حسن بن رشيق .

سماع مقتدر فيها ومعتضد
كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

مما يزهدى فى أرض أندلس
ألقاب مملكة فى غير موضعها

إفريقية بعد أن أبلى بلاء حسنًا في محاربته (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر أسبانيا وسموا بالمرايطين، وأصبحت الأندلس ولاية تابعة لإفريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس وأصبح هو وابنه من أكابر الملوك^(١).

أما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم. لم يكد يستتب لملوكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط، وحركة اللغة والعلوم تقف. وفي زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الإمام مالك، حتى قالوا أنه نسى النظر في كتاب الله. وصودرت كتب الكلام، ومنع الكلام في العقائد، وأمر بإحراق كتب الغزالي. ثم عمت الفوضى جميع البلاد، واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة، وأوكلت الأمور العامة للنساء. وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحد التي نشأت بمراكش في أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بنى أمية من علوم وفنون وصناعات. واشتهر في زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لأمرائها ميل عظيم للعلم كأبى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم والاشتغال به وجمع الكتب، وكان يتنافس مع ابن رشد الفيلسوف الشهير. حتى قال ابن رشد أنه هو الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاليس.

(١) قالوا وانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل عجم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يسبق اجتماعه فى عصر من العصور.

ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الأحمر ملوك غرناطة. واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الأحمر وبنى هود، كما كانت عند الفتح بين الأمراء. وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت صوت المسلمين هناك. وقد ظهر فى هذه المدة الأخيرة كثير من الأدباء والشعراء كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الأموية. ولم يأفل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب. وكانت الصبغة العربية فى هذا العصر ظاهرة فى الشعر والنثر. لأنها كانت أشبه بما فى بلاد المشرق. فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون فى أواخر الدولة وفى دولة العامرية، وفى عصر الطوائف، ظهرت الإباحة فى كل شىء، وظهر كل هذا فى أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق، ومن كلام فى وصف مجالس اللهو والطرب والغلمان والنساء، وأغرب الشعراء والكتاب فى هذه الأنواع. وأكثر مشهورهم ظهوروا فى زمن ملوك الطوائف وبعده، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والأدباء. وما زالت النهضة الأدبية سائرة سيراً حثيثاً، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت فى البحث والاستنباط. وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية، والحياة العقلية فى عز مجدها، وعلمائها وأدباؤها كانوا لا يزالون فى إبان نشاطهم. ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا فى البلاد، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الأمم التى نزلوا فيها.

الحياة العقلية فى الأندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الأندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا. ثم دخل كثير من غير العرب فى الإسلام، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع فى بقعة واحدة، وهى صلة الدين، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجاً تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم. فكانت لهم نزعة عقلية جديدة. ونمت مواهبهم الفطرية، وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة، مختلفة المناظر متعددة المناحي، فكان أثر ذلك كله أن أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخالص. فاشتغلوا بأنفسهم فى نقل العلوم ونشرها، ووصلوا إلى البلاد فى طلبها، ورحل إليهم كثير من العلماء، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس. ولم يكن العرب إذ ذاك من يزاحمهم، لأن معالم الحضارة كانت خفيت. والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان. وكان العرب أبطال تلك الأيام، فأصبحوا زعماء المدنية. وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم. وقد عرفوا أن ذلك لا يكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم، وأن دولة لا تؤسس إلا على العلم، وأن أمة تريد أن تعيش لا تحيى إلا بالعلم. فأراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بنى أمية فى المغرب أثبتت دعامة من دولة بنى العباس بالمشرق، وأبقى وأفخم من ملك آبائه فى ربوع الشام^(١) فتمهدت فى زمنه وسائل

(١) نقد رروا عنه:

بالغرب رغماً والسود تباطل
فالحكم فيكم ثابت متواصل

أبنى أمية قد جبرنا صدعكم
ما دام من نسلى أمام قائم

السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات. كذلك كان عبد الرحمن الثانى المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨) شديد الرغبة فى الفنون والأدب والموسيقى، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر هذه الفنون الجميلة. فكان خلفاء بنى أمية يجارون دولة بنى العباس فى حضارتهم وفى كل شىء لديهم. وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد. فأدخل عبد الرحمن الثالث فى أسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون. وأنشأ فى قرطبة كثيراً من المباني الفخمة. وبلغت أبهة الملك منتهاها فى أيامه. وفى عصره كانت المدنية الإسلامية زاهية. فكان العلماء والأدباء يفدون من المغرب إلى المشرق، ومن المشرق إلى المغرب. والطريق من بغداد إلى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم، ولا تنقطع عنه قدم العلماء، والعالم يستضىء فى ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم فى نقل الحضارة من اليونان وغيرهم، مما كشفوا مخبآته وفتحوا معمياته. وقد نمت مواهب العرب فى أسبانيا كما ينمى النبات الصالح للحياة فى الأرض الخصبة الطيبة. وظهر أثر ذلك كله فى العلوم والفنون، كما ظهر فى أنواع البلاغة من شعر ونثر، مما لم يكن عند سواهم. ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية، ومن صناعات وفنون. فكان لهم أثر فى كل شىء اطلعوا عليه، فألفوا ودونوا واخترعوا، مما لا يكاد يحصى، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل فى زمنهم، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعاً.

وقد عناو عناية عظيمة بجمع الكتب فى كل علم وفن. فقد كان فى أسبانيا ستون مكتبة عامة، أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم. أشهرها مكتبة

قرطبة، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التى ترجمها وألفها العرب فى الزراعة والفلك والرياضة. وفى الطب والكيمياء والموسيقى. وفى أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير. وفى فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة. كان ذلك كله مجموعاً جمعاً منظماً فى مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون^(١) واشتدت رغبة الحكم فى اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين، وبلغت الكتب فيها مائتى ألف مجلد. جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان. وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس ما يقتنى. وحرص الناس عليها وعلى نقلها. وكان الحكم نفسه عالماً بالأخبار والأنساب محباً للقراءة، حتى قالوا أنه قلما يوجد كتاب فى مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بغرائب لا توجد إلا عنده. وكان يجمع فى داره الخذاق فى صناعة النسخ والضبط والإجادة فى التجليد، ويوجد عليهم بالمال. فكانت داره أسبه بمجمع علمى. وكان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويعطيهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة. واستخدم العلماء فى كل ما يساعد على العلم ونشره، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط. وبعث فى

(١) كان الحكم من أشد أنصار العلم؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمر الأساتذة ووكّل أمر تعليمه إلى أبى على القالى. وقد نشر الحكم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد. وجعل فى قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مدير آها ومحافظةً عليها؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرئاسة على أندية العلوم المختلفة التى تأسست فى قرطبة.

كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاء بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم إلى إكرام العلماء والأخذ بنصارهم^(١). فكان المنصور بن أبى عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها فى أنحاء الدولة لدى الرعية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم. وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة، ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدتهم، ويجلس فى مجالس العلماء للمناقشة والبحث، ويختار من نابغهم القضاة والقراء والخطباء^(٢).

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية. فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة^(٣) وكأنهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهديب الأمم وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف. وعنهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام "الكليات" التى يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة. وكان فى كل مدينة من مدن أسبانيا مدرسة كبيرة. بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والكتابة. وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون، لأن التعليم كان منحصراً لديهم فى طائفة

(١) راجع خبر دخول أبى على القالى فى الأندلس والاحتفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب - نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٢٥٠.

(٢) هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكراهة علوم الفلسفة والنجوم إرضاء لشهوته السياسية. راجع طبقات الأمم فى ذلك.

(٣) بلغت مساجد قرطبة فى زمن عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجداً.

القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم، وإن تعداهم فإلى بعض الأمراء والأغنياء. وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين^(١).

(١) أما العلماء والمؤلفون فكثيرون في كل علم وفن. ذكر جملة من ذلك أبو محمد بن حزم الحافظ في رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيرواني فيما كتبه في تخليد علماء بلده وتقدير أهل الأندلس في ذكر علمائهم (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٣ صحيفة ١٠٨).

فمن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفي سنة ٤٦٩) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الأندلس يقع في ستين مجلداً (منه نسخة بجامع الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس في عشر مجلدات (به نسخة بتونس وأكسفورد) وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليلي كتاب التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم. وما ألف في الجغرافيا كتاب معجم ما استعجم من البقاع والأماكن.

ومن أشهر المنجمين إبراهيم بن أرزاحيل من رجال القرن الخامس الهجري ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق نقطتي الرأس والذنب من الأرض. ومنهم جابر بن أفلح الإشبيلي الذي اختصر كتاب المجسى لبطليموس. ومنهم أبو محمد بن رشد القرطبي الفيلسوف ويقولون أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس، وكتب عنها. وكبير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة في الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

ومن اشتغل بالفلسفة أبو محمد علي بن حزم من رجال القرن الخامس الهجري. وله كتاب الفصل بين أهل الأهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة السرقسطي المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنهم ابن طفيل الذي كان معاصراً لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج الحيوان إلى إنسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها حي بن يقظان. ومن تلاميذه أبو الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الأندلس وأكبر فلاسفتها الذي ألف في الطب ولخص بعض مؤلفات جالينوس في الأمزجة والعلل والحميات.

وكان للطب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية.

هذا شىء يسير عن الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس. منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل إلى العلوم والمعارف، وما وصلوا إليه فى الحضارة والاطلاع. وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأدباء والفقهاء. وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين، لأن تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين. لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علم اللغة والدين. فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمين من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه

= ومن أطباء الأندلس بنو زهر. وهم أبو العلاء بن زهر. وابنه أبو مروان عبد الملك وابنه أبو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة فى المشرق والمغرب. ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار وأحد أهل عصره فى معرفة النبات سافر إلى بلاد الإغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير من يعانون هذا الفن وعاین منابته وتحققها. ومنم أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف. وهو أول من ألف فى فن الولادة ورسم فى كتابه آلات الجراحة. وعلماء اللغة والأدب أكثر من أن يحصى عددهم راجع فى الكلام على العلماء فى الأندلس ما يأتى:

رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبى الوليد الشقندى فى ذكر علماء الأندلس ومؤلفاتهم فى الجزء الثانى من كتاب نفح الطيب جزء ٢ ص ١٠٨ - ١٤٠ وطبقات الأمم للقاضى أبى القاسم صاعد الأندلسى. والباب الثالث عشر من كتاب الأطباء والجزء الثانى من كتاب فياردو "تاريخ العرب والمغاربة فى أسبانيا" والسنة الثانية من مجلة الضياء فى مقالات "العلوم عند العرب".

والحديث والأخبار والجدل. وكان الحافظ أو الوليد هشام من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض. فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية، حتى لا نكاد نجد عالماً وفيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر والعروض واللغة. لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية فى بلاغتهم من نظم ونثر.

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت فى كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكت منهم ملكة البيان: قال بعض المؤرخين.

"هجر أهل أسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكى من ذلك. وقال إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لتتعلم لغة رشيقة وعبرة بليغة. ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية. وكل شبابنا الأذكىاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الإعجاب بآداب العرب. فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها، وقالوا أنها لا تستحق قارئاً أو مستفيداً. من أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم، فلا تكاد تجد فى الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية. أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب بعبارات بليغة، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك، حتى فى الشعر وكتابة القوافى" (١).

(1) Dozy Hist des Arabes en Espagne T. 2. P. 103.

كذلك دخلت الألفاظ العربية فى اللغة الأسبانية وغيّرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة فى زمن شارل الأصغر.

"وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية. وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، واتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينية. وقد دامت هذه الحال زمناً طويلاً فى قرطبة وطليطلة، حتى أن المفسر لجهلهم باللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية. وبقي ذلك إلى أواخر القرن الحادى عشر، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م.

وليس لأحد أن يناقش كلام "كوند" القائل بأن من أدب أهل أسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب متأثر به. ولا شك فى أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ"^(١).

وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشاراً، لأنهم كانوا أحوج إليها فى ساعات اللهو والطرب، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والأمراء. وهى عليهم أسهل، ولدى ذوقهم أعذب، ولنفسهم أقرب.

(1) James Fitzmaurice Kelly. His de la literature en Espagne P. 7 & 8.

Aliterary History of the Arabs by Nichelson P. 476.

Engene Baret. De la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون فى الأندلس

كانت همّة العرب فى إبان نهضتهم متجهة إلى العلوم، منصرفة إلى الدرس والتأليف والنقل. فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والأطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا إلى ذلك. وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيماً أيضاً، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن الأمم الأخرى. ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة، وميولهم إلى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الأمل على تقدمهم فى ذلك لو أن دواتهم امتد زمنها. فقد كان لدولة بنى الأحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفنى النحت والتصوير. فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها، وجعلها مستنزهاً ومسكناً لها ولحاشيتها وأرباب دولته، ونقش صورتها على الباب. وكانوا يجلبون الصور والتمائيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية وغيرها. وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها^(١) وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقلية. وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور. فكان على أحدها صورة عصا موسى، وعلى الثانى صورة أهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح^(٢) أما تصوير الآنية والأثاث والأشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة،

(١) نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء.

(٢) نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٣٤١.

وصوروا الطيور وأشكال الرجال، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر إلى مدينة الأندلس. فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الإنسان نصب عليه اثنا عشر تمثالاً^(١).

ومن آثارهم فى فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة فى بناء المدن والقصور والمساجد. ولهم من الإتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم. ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذى - فضلاً عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة - يدل على ذوقهم الفنى، وعلى بلوغهم درجة عظيمة فى الترف ومجاراتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان فى المدن العظيمة والقصور الشامخة والكنائس المنمقة^(٢).

(١) نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦. راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية وطبعت فى روما ومنها نسخة بمكتبة سراى عبادين. وراجع الكلام على فن العمارة فى نفح الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثانى من كتاب فياردو.

(٢) أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه هشام. فكان إنشاؤه فى أول أيام الدولة الأموية؛ مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد. وقد كان فى هذا المسجد ألف ومائتا عمود كلها من الرخام، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم. وكان باب المقصورة من الفضة. وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب. محيط كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف؛ واثنان من هذه التفاحات من الذهب الإبريز، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورمانة ذهب. قال المقرئ أنها إحدى غرائب الأرض. وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف عثمان الذى خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلة ذهب مكللة بالدر والياقوت، وعليه غشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب. وارتفاع المنارة إلى مكان الآذان. ٥٤ زراعاً: ودور الثريا الكبرى تحتوى على ألف كأس وأربعة وثمانين: كلها موشاة بالذهب. وفى عضادتي المحراب أربعة أعمدة؛ اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبة العاج والأبنوس والعود.=

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس كثيراً من الفنون وغيرها . فقد كانوا لا يعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الإغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا إليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدنية الحاضرة ، وأطلعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذاك عنوا بدراساتها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية إلى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب إقليدس قى الهندسة سنة ١١٣٦ م .

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بعض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر^(١) . أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين " إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول إلى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فإن مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط

=وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملائ من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده : راجع الكلام على مسجد قرطبة في نفع الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ - ٣٦٩ .

(١) أخذ العرب كثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون إلى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب أسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى . لأن أصلهما مأخوذ عن الشكل البوزانتى . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا أنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى : فياردو جزء ٢ ص ١٨٠ .

ألفونس العاشر، الذى كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية. وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس. فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنساويين أنفسهم، الذين كانوا يقيمون فى أسبانيا مع العرب، أو يتعلمون فى مدارسهم. وكان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الأسباني المأخوذ عن الشعر العربى، لا عن الشعر اليونانى أو الرومانى. لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان، حتى ينسجوا على منوالهم، إذ لم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر. لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربى من حيث أنه قطع صغيرة، وأبيات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف. وذلك أظهر ما يكون فى فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر، وبعض القرن الخامس عشر. حتى أن أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى. قال: ولقد أجدنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب، فإن الأسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربى ثم وصلت هذه الصناعة إلى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين يجيئون من أسبانيا" (١).

واقتبس الأوروبيون كثيراً من أعمال العرب فى الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه. وإنما أردن أن تثبت ذلك القدر القليل تنويهاً بفضل العرب وأثرهم فى المدينة الحاضرة.

وقد بلغ عرب أسبانيا إلى درجة عظيمة من الترف وأبهة تلك. ولعل ذلك ما يسمونه الآن "رد فعل". فقد كانوا فى خشونة من العيش، بعيدين

(١) الجزء الثانى من كتاب فياردو.

عن كل رفاهية، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه، ورأوا مدنية الأمم الأخرى وملكوا العالم، أرادوا أن يتناسرا تلك الخشونة البدوية، فتشبهوا بالدول العظمى. وكان العربى بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة. لأنها هى التى كونت فكره وإدراكه وتصوره، وأوحت إليه هذه المعانى الشعرية. وقد رأى ذلك كله فى البلاد التى فتحها، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والأبهة والترف. فاهتم ببناء القصور الضخمة، والأبنية المشمخة، وحيازة الأشياء النفيسة، ولبس الحلل الفخمة المزركشة، وامتلاك الأوانى الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة، وغلبت عليه طبيعة السخاء، فكان يجرود بالهدايا الثمينة، ويستهيى بالأموال^(١) فقد اتخذ عبد الرحمن الثانى القصور والمتنزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقام الجسور، وبنيت فى أيامه المساجد الكثيرة والمدارس. على ما كان عليه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى^(٢). وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس فى غاية الفخامة والضحامة، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له، فقد أمر أن

(١) فقد روى عن عبد الرحمن الثانى أنه كان له جارية اسمها طروب أغضها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها. فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها. وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول إليه. فأغلقت بابها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج إليهم طائعة ولو انتهى الأمر إلى القتل. فانصرفوا وأعلموا الأمير بذلك واستأذنوه فى كسر الباب عليها. فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج ببدر الدراهم. ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها على أن لها جميع ما سد به الباب. فأجابت وفتحت الباب فانهاالت البدر فى بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال (نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥).

(٢) أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقيل له أن مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك فقال أن لابسه أنفس منه.

يتلقوا أعظم تلق وأفخمه^(١). وامتدت الثروة والأبهة إلى الحجاب والوزراء. فقد أهدي أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى استوزره الناصر هدية لسيدة، قال فيها ابن خلدون: أنها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها. وقالوا أنها عبارة عن خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين، وأربعمائة رطل من التبر، وخمس وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة، واثنى عشر رطلا من العود الهندى، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات، وعشرة أفرية، من غالى جلود الحيوان الخرسانية، وغير ذلك.

وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور فى قصر قرطبة أربعمائة دار ونيقاً وثلاثين. وكان عدة دور الرعايا مائة ألف وثلاثة آلاف دار، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف، وبلغ عدد المساجد بها سبعة وثلاثين وثمانمائة وثلاثة آلاف وعدد الحمامات سبعمائة^(٢).

(١) رتب الناصر لحجابه رجالاً من الموالى ووجوه الحشم وصاروا إلى قصر منية الحكم ولى العهد، وكانوا ستة عشر رجلاً لأربع دول لكل دولة أربعة رجال، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقعد فى بهو المجلس الزهراء، وحضر الوزراء على اختلاف مراتبهم، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والأمراء، وقد بسط صحن الدار بعناق البسط وظلت أبواب الدار وحناياها الديباج، ورفع السطور، حتى أن رسل ملك الروم عندما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية فيه وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر.

(٢) نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥.

الغناء ومجالس الأدب

أما مجالس الغناء واللهم فقد غصت بها المحافل، وشغلت أكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل وفتحت عليهم أبواباً من الخيال. وزاد في الإقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل الظرف والأدب والنساء الشواعر^(١).

جاءت صناعة الغناء إلى الأندلس من المشرق، لأنها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة، ومن أكبر وسائل السرور والتسلى. وأستاذ المغنيين فى الأندلس زرياب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدي العباسي)، قدم إلى الأندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ. ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله إلى الأندلس هم بالرجوع، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه إليه وسروره بقدومه عليه. وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويرافقوه إلى قرطبة. وأمر خصياً من أكابر الخصيان أن يتلقاه، فدخل هو وأهله البلد ليلاً، وأنزله فى دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما تحتاج إليه، وكتب له فى كل شهر بمائة دينار راتباً، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مدى. وأقطعته من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار. ولما استدعاه إلى

(١) فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعاً بالسمع مؤثراً له على جميع لذاته. نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥.

مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه، وأحبه حباً جماً، وقدمه على جميع المغنين وشرفه بالأكل معه، لما علمه من فضله وأدبه. وكان زرياب مغرمًا بفنه، حتى أنه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه، فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريتيه غزالات وهنيدة فيأخذون عودهما، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ويكتب الشعر، ثم يعود عاجلاً إلى مضجعه. وزاد زرياب في أوتار العود وترًا خامسًا اختراعًا منه، وزيادة على الصنعة القديمة. وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الأغاني بألحانها. قالوا وهذا العدد من الألحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن. واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود، صارت منهجًا لمن جاء بعده، وكان عالمًا بكثير من العلوم والفنون، أديبًا ظريفًا، حسن المسامرة^(١). وكانت له جارية اسمها متعة أدبها وعلمها أحسن أغانيه. وعرفت حمدونة ابنته بإتقانها هذه الصناعة. وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء.

وكانت مجالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص والراقصات، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم، مثل عبد الوهاب حسين الحاجب، "الذى كان وحيد دهره فى الغناء الرائق، والأدب الرائع، والشعر الرقيق، واللفظ الأنيق، ورقة الطبع، وإصابة النادرة والتشبيه المصيب، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب، وهو أعلم الناس بضرب العود".

(١) راجع أخبار زرياب فى الباب السادس من نفح الطيب والجزء الثانى من تاريخ دوزى ص

هذا كله يدل على حسن الذوق، ورقة الطبع، إذا كما أمعن الإنسان في فنون الجمال دل على رقة ذوقه. ولو أن العرب عرفوا شيئاً من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم في فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم في مجالس الأدب الغناء واللهو والشرب التي تفنن الكتاب والشعراء في وصفها^(١) واشتملت أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء فكانت تشمل مدح الأمراء، ووصف القصور والحدائق، والخيول والفرسان، ومجالس الشرب في الولائم. وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة، التي أنشأت من أحوال الاجتماع هناك وأوحت بها إلى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية، وطبيعة البلاد وما بها من رغد في العيش، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربي.

وقد كانت أغاني العشاق تدل على أثر المرأة في النفوس والاجتماع. لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر في الحركة العقلية، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً، واشتهر عدد عظيم من النساء في الشعر والأدب كما هو معروف. ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لا غير، بل كانت صلة احترام وإجلال، لظهورها في ميدان الجد والعمل، واشتراكها مع الرجل في أحوال الاجتماع، ولأثرها في مجالس الأدب

(١) كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال:

انتظم نم إخوانك أعزك الله عقد شرب يتسابقون في ودك؛ ويعاطون ريحانة شكرك
وحمدك؛ وما منهم إلا شره المسامع إلى رنة حمامة ناد؛ لا حمامة بطن واد. والطول لك
في صلتنا بجماد ناطق، قد استعار من بنان لساناً، وصار لضمير صاحبه ترجماناً. وهو
على الإساءة والإحسان لا ينفك من إيقاع به، في غير إيجاع به، فإن هفا عركت أذنه
وأدب. وإن تأنى واستوى بعج بطنه وضرب. لا زلت منتظم الجذل ملتئم الأمل.

وفنونه . وكان ذلك فى أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، علله بضروب الأدب . وكانت العبادية جارية المعتمد أدبية ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذا ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة من علماء إشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها فى أوروبا ، وحبها ممزوجاً بشئ من الوجد والإجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوارى وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال فى هذه الصنعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالمغنية فضل التى اشترت من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت فى بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت فى هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها . وكانت قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى صاحب إشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان . قالوا وجلبت إليه من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والإقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب .

وكانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الأفكار ، وأفخم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللهو والجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا البيان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة . وكان الشعر نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغنى ، ومعزة الشريف والسوقى ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الإقبال عليه أسبق ، وكل أذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لأنه كل مظاهر الحسن والجمال

فى مجالس الخلفاء والأمرء . كذلك كانت روعة تلك المجالس فى الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الأموال والمستعملون فى أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس فى فنون الأدب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس^(١) وكانت مجالسهم لذيدة ومحاضرتهم فكهة . والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتحال والابتكار .

" حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبى عامر بقرطبة فقامت تسبقهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم إلى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ فى تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أسيماء ، فعجب الحاضرون من مكابذتها السهر طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالاً .

أفدى أسيماء من نديم ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب"

ومن البدهة فى المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الإبداع فى النفوس ، ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . " أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر ، إنك لآت بالعجائب وجانب بدوائب الغرائب ، ولكنك

(١) من ذلك ما قيل "الأندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب . واشتغالا بفنون العلم وامتناناً فى المنشور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصر عنه ؛ فما مر فيها بمصر إلا وفيه نجوم وبدور وشموس : وهم أشعر الناس فيما كثره الله فى بلادهم ؛ وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس ؛ لا ينازعهم فى هذا الشأن منازع .

شديد الإعجاب بما يأتى منك، هاز لعطفك عند النادر، تياح لك، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا. وكان الذى طلبوه منه زبدة التعنيت، لأن المعنى إذا كان صلفاً ثقيلاً على النفس، قبيح الصورة عند الحسن، كلت الفكرة عنه وإن كانت ماضية، وأساءت القريحة فى وصفه وإن كانت محسنة. وكان ما فى المجلس باب مخلوع معترض على الأرض، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند حاشيته. فقال مسرعاً:

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعر نبيل
منفذ الجانبين ماض	كأنه الصارم الصقيل
راموا انصرافى عن المعالى	والغرب من دونها كليل
فاشتد فى أثرها فسيح	كل كثير له قليل
فى مجلس زانه التصابى	وطاردت وصفه العقول
كأنما بابه أسير	قد عرضت دونه نصول
يراد منه المقال قسراً	وهو على ذاك لا يقول
تنظر من لبدة لدينا	بحر دم تحتنا يسيل
كأن أخفافنا عليه	مراكب مالها دليل
ضلت فلم تدر أين تجرى	فهى على شطه ثقليل

فعجب القوم من أمره

"ودخل الوزير أبو العلاء زهر بن الوزير بن مروان على الأمير عبد الملك بن زرين فى مجلس أنس، وبين يديه ساق خميرين من كأسه ومن

لحظه، ويبدى درين من حبابه ولفظه، وقد بدا خط عذاره فى صفحة خده،
وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده، فكأنما بسحر لحظه أبدى ليلا فى
شمس، وجعل يومه فى الحين أحسن من أمس، فسأله ابن رزين أن يضع فيه
بديهاً.

تضاعف وجدى إذ تبدى عذاره وتم فخان القلب منى اضطباره
وقد كان ظنى أن سيمحق ليله بدائع حسن هام فيها نهاره
فأظهر ضد ضده إذا وشت له بعنبره فى صفحة الخد ناره
واستزاده فقال بديهاً

محيت آية النهار فأضحى بدرتم وكان شمس نهار
كان يعشى العيون نوراً إلى أن شغل الله خده بالعدار
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر، ومجاراة بعض الأدباء
بعضاً فى ذلك: قالوا: "إن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبى
عامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى، فأنشده وهو بالموضع المعروف
بالعامرية.

فالعامة تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل فى غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له. فقال أسعد الله الحاجب الأجل، ومكن
سلطانه. هذا الشعر الذى قاله قد أعده، وأنا أقول أحسن منه ارتجالاً. فقال
له المنصور قل ليظهر صدق دعواك. فجعل يقول من غير فكرة طويلة.

يا أيها الحاجب المع تلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان
إلى أن قال:

أنظر إلى النهر فيها ينساب كالشعبان
والطير يخطب شكرًا على ذرى الأغصان
والقضب تلتف سكرًا بميس القضببان
والروض يفتّر زهوًا عن مبتسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا رنفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

هذا أدل فى جملته على مكانة الشعر فى النفوس، وأنه شىء من روائع القول وجمال الكون. وهذا من مميزات الشعر العربى، وهى جمال الشعر الوجدانى. لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال، حيث يتذوق الإنسان السعادة، وينسى آلام الحياة وكوارثها. وذلك هو الغرض من فنون الجمال. لأننا إذا كنا فى حاجة دائمة للاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء، فإننا كثيرًا ما نكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك.

"حضر أبو المطرف بن عبد العزيز مع ابن عمر الوزير عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهطلها، وأتبع وبها بطلها، وأعقب رعدا برقها،

وانسكب دراكًا وذقها. والأزهار قد تجلت من كمامها، وتحلت بدر غمامها،
والأشجار قد جلى صداها، وتوشحت بنداها، وأكؤس الراح كأنها كواكب
تتوقد، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد. إذا بفتى من فتيان المؤتمن أحرص
لا يفصح، مستعجم لا يبين، ولا يوضح، متمر تنمر الليث، مشمر كالبطل
الباسل عند الغيث، وقد أفاض على نفسه درعًا، تضيق بها الأسنه ذرعًا،
وهو يريد استشارة المؤتمن فى الخروج إلى موضع بعثه ووجهه إليه فكل من
صده عنه نهره، حتى وقف إلى مكان انفراده، ووقف بإزاء وساده. فلما
وقعت عين ابن عمار عليه، أشار بيده إليه، وقربه واستدناه، وضمه إليه كأنه
تبناه، وجد أن يخلع عنه ذلك الغدير، وأن يكون هو الساقى والمدير، فأمره
المؤتمن بخلعه، وطاعة أمره وسمعه، فنضاه عن جسمه. وقام يسقى على
حكمه ورسمه، فلما دب فيه الحميا، وسبت غرامه بهجة ذلك المحيا،
واستنزله سورة العقار، من مرقب الوقار. قال

وهو يتسه يسقى المدام كأنه	قمر يدور بكوكب فى مجلس
متأرجح الحركات تنهدى ريحه	كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس فى أنامل سوسن	ويدير أخرى فى محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف الفرس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عثار أملس
جهم وإن حسر القناع فإنما	كشف الظلام عن النهار المشمش
يطغى ويلعب فى دلال عذاره	كالمهر يدرج فى اللجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة	حوراء قائمة بسكر المجلس

هذا شىء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع فى الأندلس.

النثر فى الأندلس

كان الشعر فى أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر، ولذلك الشعراء أشهر من الكتاب، لأن البلاغة فى الشعر أظهر، والأخيلة فيه أبين، وقراء العربية كانوا إلى التأثير بهذه الأساليب والصناعة أقرب. وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها.

ومع أن النثر فى المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً، وكان فى المرتبة الثانية من حيث أنه صورة من صور البلاغة العربية، أو من حيث الاعتماد عليه فى الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم، فقد تنوعت مناحيه، وظهرت له مذاهب وطرق، كمذهب ابن المقفع وطريقته، ومذهب الجاحظ وأسلوبه، وطريقة ابن العميد والحريرى، وغيرهم كما هو معروف.

أما فى الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب فى المشرق، من كلام مرسل سهل، وعبارات يتخللها سبع غير متكلف، أو كلام مسجوع متعمل. وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة فى جميع العصور، وعلى ألسنة الكتاب وأقلامهم، حاشا العصر الأول إلى أواسط دولة بنى أمية، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع، كما فى خطبة طارق وكتب الأمراء من بنى أمية.

وقد ألف عرب الأندلس فى العلوم والفنون، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التى جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات فى كتاباتهم، فلم تقتصر الكتابة الثرية على الدواوين والرسائل، قصيرة كانت أو طويلة. مسجعة أو مرسلة، فى العشق والغرام، أو فى الذم واللوم، أو فى المدح والاستعطاف، وغير ذلك، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات

المتعة، والمعاني العامة الاجتماعية، بل شمل كل شيء فى الاجتماع هناك، وكان مظهرًا لتلك المدنية، والحالة العقلية والسياسية والعلمية. وكان أثره فى الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب. كوصف المباني الفخمة من كنائس ومساجد، وقصور وآثار، وما فيها من صور وتمائيل. وكوصف الأشياء الجميلة التى غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك، والمجادلات والمخاصمات، ومجالس العلم والأدب. وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية. بشكل قصصى. كما فى رسالة "حى بن يقظان" لابن طفيل. وكتابة الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى، كما فى رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن أبى مروان ابن شهيد التى هى من نوع رسالة الغفران، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التى ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم. ثم تلك الرسائل الفريدة فى بابها التى هى من نوع رسائل ابن زيدون. ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب وما يشبهها مما لم يكن مثله كثيرًا فى بلاد المشرق، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة.

وكانوا يصفون فى كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد، كما كتبوا فى المناظرات الخيالية، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر. وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لأبى بحر صفوان بن إدريس^(١). وكما كتبوا فى الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الرسول وفى شعائر الحج^(٢). وكان لهم

(١) التى كتبها للأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن. وهى من الرسائل الطويلة المملة راجع الطيب طبع أوروبا جزء ١ صحيفة ١٠٥.

(٢) من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدد عن لسان من رجع من الحج. وهى من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢.

أساليب فى الزهد والأسرار الربانية عرف الكتاب كيف يتصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف^(١).

وفى جوار ذلك نجدهم برعوا فى أساليب اللهو والمجون^(٢). ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ للنفس تذوقه^(٣).

(١) من فلك المعرفة فى الملكوت. ونجوم الحكمة فى الجبروت. وحياة القدس. ولباس التقوى والصراط المستقيم. وراشتك الطبيعية بريش النهى حتى تصير مع الروحانيين فى مجال الصديقين ومنازل المقربين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة. راجع رسالة الفقيه ابن عمر أحمد بن عيس الألبيرى فى الذخيرة من الجزء الأول.

(٢) كما بعث بعض الكتاب بآترجة وكتب معها كتاباً يقول فيه: قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها، ومن نتائج البستان أفضلها. فشربت على وردها رطلين، وتناولتها بالراحتين فبحرمة الكأس التى رضعنا، إلا ما رفعت قدرها، وجعلت مهرها، وجعلتها على مجلس المدام، وحجبتها عن عيون اللثام، فخصالها عجيبة، وصفاتها غريبة، أن خزنتها عطرت أثوابك، وإن أمسكتها أذهبت أو صابك، وإن أعملت فيها غرب السكين، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارتك الكتب على وجه الحبيب. يا لها من أترجة غضة. قد صورت من ذهب وفضة. سرقت من العاشق سيماء، ومن المعشوق طعم ثنياه. . . الذخيرة جزء أول.

(٣) مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظره لبنى عبد بموضع يقال له الفت. تحف مروج مشرقة الأنوار. متنسمة الأنجاد والأغوار. مبتسمة عن ثغور النوار، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسمها ووليها. وجللتها من زاهر ملبسها وباهر حليها. وأرداف الربى قد تأزرت بالأزار الخضر من نباتها. وأجياذ الجداول قد نظم النوار قلانده حول لباتها. ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها. وهناك من البهار ما يزهى على مدهان النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان. وقد نوا الانفراد للهو والطرب والتنزه فى روضى النبات والأدب. وبعثوا صاحبها لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم الخ . . . نفح الطيب جزء ٢ ص ١٦٣.

وبرعوا فى فن المقامات. ولأبى جعفر عمر بن الشهيد فصول جيدة فى ذلك، تشبه ما عند الفرنجة الآن، أو يشبهها ما هو عندهم. وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة فى انتقاء الألفاظ والمعانى، وإمعان فى الصناعة وضروب الخيال^(١). وتجد لهم كلاماً مسجعاً هو من السهل الممتنع، مع رقة

(٣) كقول أبى حفص بن الشهيد . . . وقد صحبتكم مدة. وسبحت الله على رؤوسكم مراراً عدة أوقظكم بالأسحار. وأوذن بالليل والنهار. وقد أحسنت لدجاجكم سفاداً. وريت لكم من الفراريح أعداداً فالآن حين بلى فى خدمتكم تاجى. أنعى إلى دجاجى. وتنحى الشفرة على أوداجى. وحين أدركنى الشيخ يمزق لحمى ويطنخ، يا للكرام من ذل هذا المقام، وجعلت دموعه تسفح من دمه. والحزن يطبق على فمه. ثم غشى عليه، فاجتمعت الناس إليه، يضربون وجهه بالماء. ويخلصون له فى الدعاء، ثم أفاق من غشيته وأنشد:

علام يقتل الشيخ	من كل ذنب برى
محقق متحد	مـوحد سنى
هل نص هذا كتاب	أو قـسال هذا نبى
لا ذنب لى غير أنى	مـؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم. وأقبلوا على صاحب النزل باللوم. فقال ويحكم. إن هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابتني عليه ضجره. ولى فى ذبحه سر، ولا بد أن تزين به قدر، وتضرم تحته النيران، ويشبع من لحمه الضيفان. أما ترونه قرة العين والقلوب سبيكة لجين وتمثل.

ومن شيمتى مهما تزين منزلى	لضيق أن أقره أحسن ما عندى
لو أن دمي خمراً لأرويته به	ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى أبى من عقلتة	وقد كان أوصاه بذأ قبله جدى

فقال الديك: لا أكذب، الحق طريق مستبين، وأتباعه مروءة ودين. أما أنه على خلق عظيم كريم ابن كريم. غير أنه لؤم فى امرئ. وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط. أما علم أن هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك، وأنها بالأدوية أشبه بالأغذية. وأقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعنى من مثله على تنور، لا قضى به حاجة، ولا=

فى اللفظ، وجزالة فى المعنى، وطول لا يمل، وصراحة فى القول، وحرية فى الفكر^(١).

=عدم منى فقرا ومجاجة . . فزكى قوله من حوله، ولم يألوه تعظيماً، واتخذوه من ذلك اليوم حكيمًا. وصرف البدوى من أطفاه ما أحسن منه قرى أضيافه، وختم توبة بره بالرغبة فى بسط عذره. وسمعنا منه ورحلنا سحرًا عنه. إلى أن قال:

فأصغيت فإذا أنا بصوت ناقوس فى دير قسيس. وقرية كلها حانة دار البطريق. وملعب الكأس والأباريق. سائمتها خنازير. وحياضها المغاصير. ومياهها إلا نبذة والخمور. وشكلها مثلث مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود. وتثمر رمائًا من نهود. وتفايحًا من خدود. وعقارب من أصداغ. وأفاعى من أسورة وعقود. وفيها مدام من رضاب. وشفاه من كواعب أتراب، وغيد تهوى بقرط، وارتجاج لكثيب فى مرط، وجولان النطاق، وعض الخلعجان فى ساق، وخنث فى ألفاظ، ومواعيد بالخط، وقلوب تكلف وتشغف، ونفوس تنشأ، وأخرى تتلف. فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه فطبنا له وجوه الاستكراه، وعضضنا له الشفاه، فبينما نحن كذلك نكثر لغطًا، ونرى الحلول بالمستحسن غلطًا، إذ نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة، وخصور هيفة، وشموس وأقمار، على أفلاك جيوب وأرزاز، لا سيوف إلا من مقل ولا درق إلا من عجل، ولا عارض إلا من خلوق، وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزتم المنه، وثبتتم الأعنة، تعريجًا علينا إلينا وتحكمًا فى المال والولد لدينا. فكرمت الشفاعة، وقلنا السمع والطاعة.

(١) كما فى رسالة لابن الحداد.

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الأقدار، وصقال الأصداء. وعقال الأدواء. وسمتى منه بوسام. ولحفتنى منه بسموم. وأسرت حسوا فى ارتغاء وأدمجت ذما فى ثناء، والحر يأنث من الضيم. ويشمئز من الذم. ولا يقتصر على الاجتزاء. يثير الجراء. ولو ترك القطا ليلا لنام. وفى العتاب حياة بين أقوام. فاصطبر لشرب صبره. وانتدب لتسوغ مره. فمن الحكم العدل. والقضاء الفصل. إن ألدعك بما لدعتنى. وأجرعك ما جرعتنى. غير أفك فى حال. ولا مياهت بمحال. والتمويه ليس من خلق الكاذب النبیه. والحر على ما أساء يصير. وكل مجر فى الخلاء يسر. والفضل لمن حواه. لا لمن زخرف دعواه. وتحقيق البرهان. غير تنميق البيان. والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال، لا فى إمكان الزمان، =

وأحياناً نجدهم وصلوا إلى درجة فى النثر لا تفرق بينها وبين الشعر إلا فى الوزن وقواعد العروض^(١). ومن السجع الجميل والأساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بسام فى الذخيرة وترجمته الأدباء والشعراء^(٢). وتجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبى الفنى، أنواعاً من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفاً مملاً، مملوءة بالعمل، كثيرة الصناعة، قليلة المعانى^(٣). وأمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب. والفتح بن خاقان طريقتهم معروفة فى كتبه. حتى أصبح السجع طابعاً من طوابع الأدب العربى فى الأندلس وتسلسل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة. فنفعخوا الأدب بنفخة جافة جف من أجلها عوذة، حتى كسر أو كاد يكسر. وبلغ هذا منتهاه فى أيام ابن تاشفين.

= وإقبال السلطان، وقيمة كل امرئ ما يحسن. أمثال أضر لها عليك. واضحة المناهج، ومقدمات أنشأتها معك، صادقة النتائج. وجمل تشتمل على تفصيل حالينا، ونبذ تشير إلى ما فيه جرينا. وقد قابلنى عتابك. وإجلابك. بريح تعصف ورعد يقصف. واسقبلنى خطابك. وأطنابك. بوبل يخسف، وسيل ينسف، بلغ الزبى وزاد. وغمر الربى والوهاد ... إلخ.

(١) كما فى رقعة شفاة كتبها أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم: إذا شرب روض الشكر من حوض البر، وأطلع من الزهر ما يخجل مسك الغرر وتنسم عن نسيم، يشفى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجرى خلف الطلب، بيد الأدب، ويسرى فى ظلام الأمور، بسراج المنظوم والمنثور ... الخ الذخيرة جزء ١.

(٢) كقوله فى ترجمة ابن شهيد: كان أبو عامر شيخ قرطبة وفناها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاهها، ينبوع آياتها، ومادة حياتها وأساتها. ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار. أن هزل فسجع الحمام، وإن جد فزئير الأسد الضرغام. نظم كما انشق الدر، على النحور، ونثر كما خلط المسك والكافور .. الخ.

(٣) راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص

وعلى الرغم من رقى النثر فى الأندلس فإنه لم يخرج عن صبغته العامة، وهى الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية. غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية^(١)، وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب فى النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات فى الشعر.

أما طول الكلام والإطناب فيه، فيكاد يكون عاماً فى جميع كتاباتهم. وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة، والافتتان فى التصور والخيال، وبعضه ممل سقيم، يدل على تمكن الصناعة لا غير فى نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة، كما فى كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب.

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد، التى قلنا أنها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها. فهذا كان نموذج النثر والخطابة فى تلك الأيام إلى أواسط دولة بنى أمية. لأن الوافدين جاءوا من المشرق إلى المغرب، والدولة عربية فى بيت بنى أمية، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول فى نفس كل خطيب وكاتب وشاعر. فالذين هاجروا إلى بلاد الأندلس فى الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعراباً فى أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم. ولذلك نجد النثر فى تلك المدة يشبه كثيراً نثر الأمويين فى المشرق، وخطبائهم فى الأندلس أشبه بخطبائهم فى الشام وبلاد العرب. ولما كثر الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا إليها طريقة النثر المسجوع، والصناعة اللفظية، والتنميق فى

(١) كما فى رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة. راجع الذخيرة جزء أول

الكتابة. وسرى هذا فى كل أغراض الكتابة، حتى فى الكتب الفنية والعلمية،
من تاريخية وغيرها ومن تراجم للعلماء والأدباء، ومن كتب جدية وهزلية.
ومن أشهر ذلك كتب الفتح بن خاقان، كقلائد العقيان والمطمح وغيرها،
وتاريخ الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب. حتى أصبح من
غير المستطاع أن يجد الإنسان من يكتب نشراً غير مسجوع.

الشعر فى الأندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فنى ، وهو ما بها من الجمال الذى يدعو الإنسان إلى السرور والإعجاب ، وارتياح النفس إلى المعانى الجزلة ، والألفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الأساليب ، وتأنق التراكيب ، وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم ، من أنواع المعانى والبيان البديع . ويدخل فى هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان فى الصناعة ، ومقدار ماله من التصرف فى الكلام ، وما يدركه من أسرار هذا الفن ، مما يدل على عبقريته . وهذا الجزء النفى من البلاغة هو أحد أركانها ، وأكبر دعائمها ، إذ بدون ذلك لا تعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء .

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام ، التى يكشف بها الفنى عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس ، وأسرار الكون ، وحقائق الموجودات ، والآراء الاجتماعية والفلسفية ، وصور الإنسان والإنسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب فى النفوس ، ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها بأسلوبه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها إلى حقيقة من الحقائق الإنسانية . ولقد يدرك النفى ما لا يدركه غيره ، لأنه دقيق الإدراك ، قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى ما لا يراه غيره . لذلك يمكن أن يكون مساوياً للفلاسفة أو الحكماء فى الإفاضة على الإنسان من أسرار الكون وحقائقه .

والعرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . فكان الشعر فنّاً عربياً جميلاً ، وكان

العربى شاعراً بطبيعته، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل . وكانت الفصاحة والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها . وكما نزل العربى بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعهدها بالنمو، فلما نزل أرض الأندلس غرسها هناك، فنمت فى تلك الأرض الخصبة . فكانت كالزهرة الطيبة العرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة، فظهر فيها أرج الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربى فى بلاد الأندلس .

جاء الشعر بلاد الأندلس بصبغته الأولى البدوية، وما لبث أن أخذ صبغة جديدة باتساع النصور، واختلاف المناظر، والاطلاع على كثير من العلوم والآراء، والميل إلى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية . فشمّل كل مظاهر الأفكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون فى أساليبهم وأفكارهم إلى الأساليب والأفكار البدوية، لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنيناً إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان فى نفوسهم من الأثر الذى اكتسبوه من تلك البلاد، وما حصل لهم من الحياة التى لم يكن لهم بها عهد فى بلادهم، كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى، ولم يكن لهم أن يهجروا عاداتهم، لأن العجب والخيلاء، اللذين كانا لهما السلطان على عقولهم، جعلاهم - حتى فى تلك البلاد البعيدة، وحتى بعد قرون من انتجاعهم إياها - يتغنون بذكر بلادهم، ويتخذون الشعر القديم نموذجاً لهم فى الصناعة والخيال .

والذى يقرأ الشعر الأندلسى يجده أخا الشعر فى بغداد، بل وفى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة، والموضوعات التى كانت عند القدماء^(١) .

(١) راجع قصيدة ابن الحداد فى مدح المعتصم فى ابن خلكان جزء ٢ .

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جملته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع، والكلام الرشيق، والذوق النقى، والافتنان فى أساليب الخيال، ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربى: فبينما ترى الشاعر يصبو إلى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية، نجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات.

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة، وظهر هذا كله فى الشعر، لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة. ولبت منتشراً زهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كالقوط وغيرهم. وقال الشعر كثير من الأمراء. وسابق النساء الرجال فى ذلك، فكن أحياناً يسبقنهم، وعنى الناس هناك بالشعر عناية عظيمة، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة، واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية. وكان من وسائل الرقى، ومن دواعى السلم والحرب، وفك أسر المسجونين، والعفو عن المجرمين.

ولم تكد تخلو رسالة نثرية من الشعر، حتى سرت عدوى الوزن والقافية إلى النثر. وانتشرت طريقة السجع فى جميع المكاتبات، وهى محلاة بأبيات من الشعر، حتى فى الكتب العلمية، ومكاتبات الحكومة، وأجازت السفر. وكانت صناعة الشعر لازمة، وروايته واجبة، لمن يريد أن يندمج فى حواشى الملوك. فقد كان الأدباء يجتمعون فى حضرتهم للإنشاد والمسابقة فى ذلك، كما كانت الحال فى حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته

ممن جاء بعده من الملوك والأمراء، الذين كانوا يجرون المرتبات والجوائز على الشعراء^(١).

وقد كان لنشاط العرب العقلي وصفاء قرائحهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطري إليه والافتنان فيه. فقد وسع كل شيء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية. فكانوا يصفون الكبراء والعلماء، ويمدحونهم بعبارات رقيقة، أكثرها خال من المبالغات. ويثبته في شكواهم وآلامهم^(٢)، ولهم قصائد في التقرب إلى الله ومدح الرسول عليه السلام، والزهد والتصوف والثناء^(٣)، ولهم أشعار رقيقة في المزمع والتهكم والمجون^(٤).

(١) راجع الكلام على الشعر في الأندلس في كتاب

Von Schack. Poesie und Kunst der Araber

(٢) كما في قصيدة ابن الرندي الشهيرة وثناء ابن عبدون لبنى الأفطس وشكوى المعتمد بن عباد مما أصابه في آخر حياته.

(٣) راجع الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن بسام.

(٤) كما في قصيدة قاضي الجماعة بغرناطة أبي عبد الله بن علي بن الأزرق. نذكر منها شيئاً على سبيل الفكاهة قال:

عم باتصال الزمن ولا تبالي بمن وهو يواسي بالرضا من سميع أو حسن
أو من عجوز تختطى والظهر منها منحني أو من مليح مسعد موافق في الزمن
مهما تبدى خده يبدو لك الورد الجنى وإن تسفه نظري ومذهبي وتنهني
فالصفح تستوجه نعم ونتف الذقن وبعد هذا أشتفى منك ويبري شجني
واضرب الكف أمام ذلك الوجه الدني
طقطق طق طقططق طق اصغ بسمع الأذن
حقحق قح قحق قح الضحك يغليني

أفدى صديقًا كان لى بنفسه يسعدنى فتارة أنصحـه وتارة ينصـحـنى
وتارة ألـعنـه وتارة يلـعنـنى وربما أصفـعه وربما يصفـعـنى
أستغفر الله فهـذا القول لا يعجبنى يا ليت هذا كله فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا الـحديث من يسمعنـى دهر تولى وانقضـى عنى كطيف الـوسـن
يا لـيـتنـى لم أره وليتـه لم يرـنى دنست فيه جانبـى وملبـسـى بالدرن
وبعت فيه عيشـتى لكن بيخس الثمن كـأننى ولست أد رى الآن ما كـأننى
والله ما التشبيه عنـد شاعر بهين
ومنها هل أمتطى يومًا إلى الـشرق بطون السفن
وأجتلى ما شئتـه فى المنزل المؤمن حيثئذ أخلع فى هذى القوافى رستنى
وتحسن الفكرة بالـعدوس والسمنتنى واللحم مع شحم ومع طوابق الكبش الثنى
والبيض فى المقلاة بالـزيت اللذيذ الدهن وجلدة الفروج مشو يا كثير السمن
ومنها هل للثريد عودة إلى قد شوقنى
تغوص فيه أئملـى غوص الأكل المحسن
ولى إلى الإسفنج شو ق دائم يطربنى وللارز الفضل إذ تطبخه باللبن
وللشواء والرقا ق من هيام أنثنى
ومنها وهات ذكر الكسكو فهو شريف وسنى
لا سيما إن كان مصـد نوعًا بقتل حسن
ومنها وصدنى عن ذاك قلـة الوفا بالثمن
به خليلى هذه مطاعم لكننى أعجب من ريقك إذ يسـل فوق الذقن
هل نلت منها شبعًا فذكرها أشبعنى وإن تكن جوعان يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن يصور الأشياء وهـى أبداً لم تكن
فقلوه يريك ما ليس يرى فى الممكن فاسمح وسامح واقـتـنع واطو حشاك واسكن

راجع القصيدة فى نفع الطيب طبع أوروبا جزء ثانى صحيفة ٢٠٢ . وراجع الكلام
عن ابن الأزرق فى نفع الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠ .

وقد نظموا التاريخ وحوادثه^(١). وبرعوا فى وصف الأبنية الفخمة وما فيها من الصور والأشكال والزينة، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسمر والغناء والرقص. كقول الشاعر:

يا رب ليل قد هتكت حجابها بزجاجة وقادة كالكوكب
يسعى بها ساق أغن كأنها من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعمت برشف بدر طالع فأنعم ببدر آخر لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرة ربيب فى مشرب
والليل منحصر يطير غرابه والصبح يطرده بباز أشهب

ووصفوا التنزه بالليل فى ضوء القمر، والأشجار وغصونها، والرياح وهى تعبت بها وظلها الظليل، وأشعة القمر على الجداول، وصفاء الجو، والفاكهة، والأثاث والمساكن، والقصور والصور. كقول الشاعر:

قصر بمدرجة النسيم تحدث فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه وثنى قصور الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام فى روض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه فاقتر عن نور يروق ونور
فالدوح يسحب حلة من سندس تزهى بلؤلؤ طلبا المنشور
والنخل كالغيد الحسان تقرط بسبائك المنظوم والمنثور

(١) راجع الأرجوزة المذكورة لأبى طالب عبد الجبار فى آخر الجزء الأول من كتاب الذخيرة.

والرمل فى حبك النسيم كأنما أبدى غضون سـوالف المذعور
والبحر يـرعد متنه فكأنه درع تشن بمعطى مـقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا فى الأفق بين كـواكب وبدور
ووصفوا التماثيل وبرك المياة وأوانى الأزهار . كما قال بعضهم فى
دائرتين من ورد وياسمين :

يا حسنـها دائرة من ياسمين كالـحلى
فالورد قد قابلـها فى حلة من خـجل
كعاشق وحبـه تغامـزا بالمقل
فاحمر من خـجل واصفر ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه^(١) .

وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة
ومجالس اللهو والشرب والرقص . كما قال ابن شهيد :

هاك شيخاً قاده السكر لكا قام فى رقصته مستهلـكاً
لم يطق يرقصها مستثبـتاً فانشئ يرقصها مستمسكاً
عاقه من هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتكاً
من وزير فيهم رقاصـة قام للسكر يناغى ملكاً
أنا لو كنت كما تعرفنى قمت إجلالا على رأسى لكاً
قهقهة الإبريق منى ضاحكاً ورأى رعشة رجلى فبكى

(١) راجع وصف ابن حمدى فى نفح الطيب طبع أوروبا جـ ١ ص ٣٢١ .

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال؛ والشجاعة والجبن والإقدام، والنصر والخذلان. ووصفوا النفوس وما يجول بها من الميول والأهواء وما يحدث فيها من لذة وألم والعشق وأثره فى النفس. كما قال الشاعر:

قبلة كانت على دهش أذهبت ما بى من العطش
ولها فى القلب منزلة لوعدها النفس لم تطش
طرقتنى والدجى لبست خلعاً من جلدة الحبش
وكان النجوم حين بدت درهم فى كف مرتعش^(١)

وبرعوا فى هذا النوع براعة لا تحارى حين أتوا بالغرائب من المعانى الجزلة التى تثير النفوس وتحملها على التعشق كما قال الشاعر:

(١) وكقول بعضهم:

بتنا كأن حداد الليل شملتنا حتى بدا الليل فى ثوب سحولى
كأن ليلتنا والصبح يتبعها زنجية هربت أمام رومى
وكقول الشاعر:

ولما تجلى الليل والبرق لامع كما سل زنجى حساماً من التبر
وكقوله فى وصف زنجى يسبقهم

وزنجى أتى بقضيب نور وقد زفت لنا بنت الكروم
فقال فتى من الفتيان صفه فقلت الليل أقبل بالنجوم

وكقولهم فى ملاقة الأحبة أوقات الوصل
وواعدتها والشمس تنجح للندى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح فى الدجا
بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
فطعرت الآفاق حولى فأشعرت
كما يتقصى قارئ أحرف السطر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها

غضبوا الصبح فقسموه حدوداً واستنبهوا قضب الأراك قدوداً
ورأوا أحصى الياقوت نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حديق المهى أجفانهم فسبوا بهن ضراغما وأسوداً
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ضوء النهار بليها معقوداً
صاغوا الثغور من الأقاحى بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً
ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصاً فى الوصف، كقول ابن شهيد:

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب
وكان الصبح قانص طير قبضت كفه برجل غراب
ومن أبدع كلامهم فى الوصف الجميل والشعر الذى لا يجارى فى
طريق الخيال والابتكار، ورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى، قول
أبى الفضل بن شرف القيروانى^(١):

مطل الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق
ضربت الصبا مسك الدجى فاستفاض الروض طيب العبق
وألاح الفجر خدّاً خجلاً جال من رشح الندى فى عرق
جاوز الليل إلى أنجمه فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيها فيضه أيقن النجم لها بالغرق

(١) راجع القصيدة فى الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا ص ٢٦٧.

فانجلي ذاك السنا عن حلك وانمحي ذاك الدجى عن شفق
بأبى بعد الكرى طيف سرى طارقاً عن سكن لم يطرق
زارنى والليل ناع سدفيه وهو مطلوب بباقي الرمق
ودموع الطل ترميها الصبا وجفون الروض غرقى الحدق
فتأتى فى أزار ثابت وتثنى فى وشاح قلق
وتجلى ووجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته فحبا الخد ببعض الشفق
سلبت عيناه حدى سيفه وتحلى خده بالرونق

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس. كما قالوا عن ابن شهيد "إنه بات
ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور
واستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحميا يسرج لمبه، والقس قد
برز فى عبدة المسيح، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح
وطرحوا النعم كل إطراح.

لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح
وأقم منهم يعملها حميا، كأنما يرشف من كاسها شفة لميا، وهى تنفخ
له بأطيب عرف، كلما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل بعد ما ارتحل:

ولرب حان قد شملت بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره

يهدى لنا بالراح كل مخفر كالخشف خفرة التماح خفيه
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره"
أما الأزجال والموشحات وغيرها ن الأوزان التي ابتكروها في الشعر
العربي ، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتماعية ، فحدث عن البحر
ولا حرج . فقد أظهروا من البراعة في ذلك ما لا يقدر عليه إلا نفوس خلقت
شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الأنواع إلى المشرق فأحدثت
حركة جديدة في الشعر العربي ، مما سند كره في موضعه .

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر بن أبى مروان بن شهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر^(١). ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ومات سنة ٤٢٦ هـ فعاش فى أزهى عصور اللغة والأدب فى الأندلس، وفى عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس، وكان الأدباء أكرم الناس وأكثرهم إقبالا على ذلك، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم، فانصبغت عقولهم بصبغة اللهو، وانصرفوا إلى وصف هذه المجتمعات والمحافل، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التى جعلته خفيف الروح، عذب المذاق، سهلا رشيقاً، جميل البزة والأسلوب، مشتملا على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس.

(١) هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشعجى الأندلسى القرطبى وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذى الوزارتين، وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه. فتصرف فى الوزارة كيفما شاء. واشتهر شهرة عظيمة فى سياسة الملك. كما طار صيته وعلا ذكره بين الأدباء. فكان من أكتب الكتاب وأشعر الشعراء. وقد كان هو وحفيده أبو عامر من أنبغ كتاب الأندلس وأظهرهم ميزة فى الكتابة والشعر ولا سيما فى الأساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا إلى ذلك. وهو صاحب الهدية المشهورة التى أهداها للناصر (راجع ص ١٩) وقد عاش فى كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر.

ويخيل إلى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا أنه كان يصرف كل أوقاته فى اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة فى سياسة الدولة. فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع أخباره مع الناصر وأهداه الغلام فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة فى نفح الطيب.

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفنناً في علوم الأدب، بارعاً في صناعة النظم والنثر. فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة، وأساليب راقية في فني المنظوم والمنثور، حتى فاق جده في ذلك.

وبرع في أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثال في الكتابة العربية، وربما انفرد في نوعها، مما يدل على ميله إلى الأسلوب القصصي وابتكاره الفني. ولقد تحسب هذه الرسائل فذة في اللغة العربية على الرغم مما في بعضها من المشابهة برسالة الغفران لأبي العلاء، من حيث الأسلوب والموضوع. كما في رسالة "التوابع والزوابع". وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلاً عن ابن حبان بأنه "كان في تنميق الهزل والنادرة... أقدر منه على سائر ذلك وشعره حسن عند أهل النقد، تصرف فيه تصرف المطبوعين... وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال... وكان في سرعة البديهة، وحضور الجواب وجدته مع رقة حواشي كلامه وسهولة ألفاظه... آية من آيات خالقه... وكان له انهماك في شرب وبطاله"^(١). وقد اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيراً. نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض، وما بها من لهو ونعيم وجواز وخدم، وتخلص من ذلك إلى الدخول على مدح المؤتمن فمدحه بما لا يكون إلا على لسان مثله.

(١) في النسخة المخطوطة خطأ كثير في بعض الجمل والألفاظ حذف منها ما لم يمكننا فهمهم ووضعنا محله نقطاً وأصبحنا ما ظهر أنه محرف. وقد تدل النقط على حذف عدة جمل للاختصار. وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيد وربما أهملنا وضع النقط في حذف بعض الأبيات.

ولقد يرى القارئ في قصيدة ابن شهيد هذه روحاً شعرية جديدة يلمح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعاني، والتصرف فيها، وكأنما يقول ذلك بلا روية ولا تكلف، أو كأنه يعارض أبا نواس في أسلوبه. قال بعد أبيات:

ورد كما خجلت خدو	د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت	صفحاته من لطم لاطم
وغصون أشجار حكت	رفص المآتم للمآتم
بكر الحسان يردنها	من كل واضحة الملاغم
وضحكن عجباً فالتقت	فيها المباسم بالمباسم
ضحكت وأزعج بارق	فظلت للبرقين شائم
وتكاوست فيها الأبا	رق وهي فاهقة الحلاقم
وكأنها أظب رعن فن	ن دامية الخياشم
وعلا بنا سكر أبى	إلا الإنابة للمحارم
نرمى قلائسنا له	ويجر من عذب العمائم
وترنمت فيها القيا	ن لنا ورجعت البواغم
قمنا نصفق بالأكف	لها ونرقص بالجماجم
وأعدن من سندن الملو	ك سليل أقيال خضارم
يشكو الرعاة تنعماً	ويضج من حمل التمام
لا تستحيه الراشفا	ت ولا تباليه اللوائم

ر ويمتزين به المحارم	يجنيه ثمر النحو
يهوى وهن له عوالم	متجاهلات أنه
والنجح من قنص الملازم	لازمت باب محله
عجز الحواضن والخوادم	حتى إذا وقفت بنا
وتلوت من سور العزائم	ألقى من أخذى له
فانقاد من تلك الشكائم	وأقصدته بشكائمي
وكرمت عن لوم الملائم	فوردت جنات المنى
بردا فراقك وهو فاحم	وأغر قد لبس الدجى
ل الفطر لاح لعين صائم	يحكى لغرته هلا
ح فجاء مبيض القوائم	وكأنما خاض الصبا
وكأنه فى الصبح عائم	ويسير فى ببس الكرى
ح أنار من تلك المعالم	حتى إذا علم الصبا
ى مذهبة الخواتم	وتمايلت أيدى الثريا وهـ
رمد من الأقداء سالم	ورمت ذكاء بناظر

فإذا وصف وجدته يقظاً قوى الملاحظة، لا يصف الأوصاف العامة
كأكثر الشعراء، ولكنه يصف ما ياره وصفًا دقيقًا، كالمصور يصور ما هو
أمامه. وتلك صفة من صفات الرجال الفنين.

ولقد يقرأ الإنسان شعره فكأنه فى هرج ومرج. وكأنما الكؤوس تدور،

والنفوس تثور، والعزائم تخور، والعقول، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم كما قال:

أذن الديك فتب أو ثوب	وأنضج القلب بماء العنب
وتأمل آية معجزة	ما قرأنا مثلها فى الكتب
ركع الإبريق من طاعته	وبكى فابتل ثوب الأكواب
ولول المزهري نفى كـربى	وتطربت فأعـبى طـربى
وربيب قام فينا ساقياً	كالرشا أـرضع بين الربـرب
ظبية دون الظباء قصصـت	فأت غـيداء فى شكل صـبى
فتح الورد على صفحتها	وحماه صدغها بالعقرب
فمشت نحوى وقد ملكتها	مشيه العصفور نحو الثعلب
وغمام باكرتنا غيمه	تتـرع الأفق بدمع صـيب
مثل بحر جاءنا من فوقنا	جرمه من لؤلؤ لم يشـقب

وإذا هو ينتقل إلى المنح، كما ينتقل الإنسان من ظل الأشجار إلى خـير

المياه والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا	حشوه العين بمـرأى معـجب
أنت ماذا؟ قال مزن علمت	كفه النفخة كفا درـب
رامنى بالشوق أن أسقيكم	رحمة منه بأقصى المـغرب
فسألناه أين ذاك لنا	قال هل يخفى ضياء الكوكـب
ملك ناصب من خالفكم	عامرى المـتمى والمنـصب

إلى أن قال:

أنجيته للمعالى أسرة نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت ضاحكات فى وجوه الكرب
لهم أيام حرب كثرت فى عداهم داعيات الحرب

هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الإطالة لذكرنا كثيراً من شعره^(١).

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصى والميل إلى ذلك. وإن كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجة والعدوبة.

وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الغفران، من حيث أسلوبها الأدبى وسمائها "التوابع والزوابع" ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى ذلك، لأنه أدرك عصره ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب. وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء^(٢).

كتب أبو عامر بن شهيد هذه الرسالة إلى صديقه ابن حزم. فقد عاش فى عصر أبى بكر بن حزم هذا فتصادقا وتحابا. وكان لكل منهما دالة على صاحبه. وكل منهما أديب وعالم، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة إلا

(١) أخباره مبسطة مع شعره ونثره فى الجزء الأول من كتاب الذخيرة لابن هشام وفى نفح الطيب ومطمح الأنفس.

(٢) أدرك ابن شهيد عصر أبى العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٢٤٦ وعاش أبو العلاء المعرى من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩.

كانت له فيها جولة فكر ونظر. وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم^(١). فكانت عقولهم فى حركة مستمرة من الجدل إلى الهزل، ومن اللهو والمزح إلى مسائل الأدب والدين. ولذلك تجد أحدهم يؤلف فى علوم الدين، وتجد يكتب فى الهزل والمجون، وتجد عالماً وفيلسوفاً وشاعراً وعاشقاً. فكانوا يأخذون من كل فن بطرف. وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية معاً مبنية على حب الاستطلاع والبحث، وعلى الرغبة فى سرور النفس وارتياحها بآثار الفنون الرائعة. فكانت أخيلتهم مهذبة مصقولة، وأراؤهم بديعة وأساليبهم رشيقة، وابتكاراتهم عجيبة.

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم فى نفوسهم. ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذى نجده فى بعض الرسائل هناك كان مقتبساً من مثل أسلوب أفلاطون فى بعض كتبه، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التى حدثت فى اللغة العربية.

أما الأسلوب الذى كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالى تهكمى ويسميه الأدباء أسلوباً هزلياً كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: "فصول من رسالة سماها بالتوايع والزوايع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع".

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقداً بيانياً مبنياً على ما يعطيه اللفظ من الجمال، وما توحىه معانى هذه

(١) قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات وله التصانيف الغربية. منها كتاب كشف الدك وإيضاح الشك ومنها التوايع والزوايع، ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد . . إلخ.

الألفاظ من الروعة والإعجاب، على حسب ما هو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب.

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل، بشكل محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين. فهي أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء.

قال في صدرها: "كنت . . . أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فاتبعت الدواوين، وجلست إلى الأساتيد، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم . . . ، وقليل الالتماح^(١) من النظر يؤدني، ويسير المطالعة من الكتب يفيدني، إذ صادف شن العلم منى طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً، ولا كالخمار يحمل أسفاراً، فطعنت ثغرة العلم دراكاً^(٢)، وأعلقت أرجل طيره اشتراكاً، فانثالت^(٣) لي العجائب، وانهالت الرغائب. وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفى، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل، فجزعت وأخذت في رثائه، . . فقلت:

تولى الحمام^(٤)؛ بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير^(٥)

إلى أن انتهت إلى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت:

وكنتم مللتك لا عن قلى^(٦) ولا عن فساد ثوى فى الضمير

(١) النظر الخفيف.

(٢) من المداركة وهي المتابعة.

(٣) تتابعت وكثرت.

(٤) الحمام الموت.

(٥) الغرير المخلوع.

(٦) القلى البغض.

فأرتج عن القول. فإذا أنا بفارس بباب المجلس، على فرس أدهم^(١)
كأنا بقل^(٢) وجهه، قد اتكأ على رمح، وصاح بى: أعجزا يا فتى الإنس؟
فقلت لا وأبيك، للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان. فقال بعده:

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته^(٣). وقلت بأبى من أنت؟ قال زهير بن نمر من أشجع
الجن، تصورت لك رغبة فى اصطفاك. قلت أهلا بك أيها الوجه الواضح،
صادفت قلباً إليك مقلوباً. وهوى نحوك محبوباً، وتحدثنا وتذاكرت معه
أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يالفهم من التوابع والزوابع^(٤). وقلت له هل
حيلة فى لقاء من اتفق منهم؟ قال حتى أستأذن شيخنا. وطار عنى. ثم
انصرف وقد أذن له. فقال جل على متن الأهم. فسرنا عليه، وسار بنا كالطير
يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو^(٥)، حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا،
وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر. فقال حللت أرض الجن
أبا عامر، فبمن تريد أن تبدأ؟ قلت الخطباء أولى بالقديم لكنى إلى الشعراء
أشوق. قال فمن تريد منهم؟ قلت صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى،
وإذا ذى دوح^(٦) تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره. فصاح يا عينة بن نوفل،
بسقط اللوى وبحومل ويوم دارة جلجل إلا ما عرضت لنا، وسمعت من

(١) أدهم أسو.

(٢) نبت عذاره.

(٣) أنفذت رأيه.

(٤) الزوينة الشيطان أو رئيس الجن.

(٥) الدو الغلاة.

(٦) الشجر العظيم.

الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له . فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلهب . فقال حياك الله يا زهير وحيا صاحبك . أهذا هو؟ قال هو هذا وأبى جمرة يا عيينة . قال أنشد . قلت السيد أولى بالإنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط . . . وجعل ينشد :

سمالك شوق بعد ما كان أقصر

حتى أكملها ثم قال لى أنشد . فهمت بالحیصة^(١) . ثم اشتدت قوى نفسى . وأنشدت :

شجته مغان من سليمى وأدور

حتى انتهت إلى قولى :

ومن قنة^(٢) يدرك الطرف رأسها تزل بها ریح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحرہ وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حصن أبيض ذو شقائق وفى الكف من عسالة^(٣) الخط أسمر
هما صاحبای من لدن كنت يافعا مقيلان من جد الفتى حين يعثر
إلى آخر ما قال :

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذيذة . ولكنها تكاد تتكون خالية من كل نقد أو رأى له . وليس فيها الإجمال العبارة ، وسهولة الأسلوب ، ووضعها هذا الوضع القصصى الذى يدل على سعة

(١) بالهرب .

(٢) قمة الجبل .

(٣) السيف .

خياله، وبلوغه منزلة رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصرف. على أنه يميل إلى مدح نفسه وعرض شعره، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الإعجاب بكلامه. وقد برع فى وصف أحوال الشعراء الذين ذكروهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية، وكأن لكلامه ألواناً ترسم أحوالهم المختلفة، وتميز بعضها من بعض، أو كأنما استعرض أمامه هذه البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه. كما قال عن أبى نواس:

"ثم قال لى زهير: من تريد بعده؟ قلت صاحب أبى نواس. قال هو بدير حنة، قد غلب عليه الخمر. فركضنا ساعة وجزنا فى ممرنا بقصر أمه. فقلت لمن هذا القصر يا زهير؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحرى، فهل لك فى أن تراه؟ قلت أجل. إنه من أساتيدى. وقد كنت أنسيته. فصاح يا أبا الطلع فخرج إلينا فتى على فرس أشعل^(١) بيده قناة، فقال له زهير إنك موفق، قال لا، صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا تنقصه. قلت يا أبا الطبع إن الرجال لا تكال بالقفز إن، أنشدنا.

من شعرك فأنشد:

ما على الركب من وقوف الركاب

حتى أكملها ثم قال: هات إن كنت شيئاً فأنشدته.

هذه دار زينب والرباب

حتى انتهيت فيها إلى قولى:

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون فى جوف غاب

(١) فى ذنبه بياض.

وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

. . فكأنما غشى وجه أبي الطبع قطعه من الليل، وكر راجعاً إلى ما وراءه دون أن يسلم. فصاح به زهير أأجزته؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر.

. . . وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنة، فضرب زهير الأدهم. فسار بنا في قنته ففتق سمعى قرع النواقيس. فقلت فصحت^(١) من منزل أبي نواس ورب الكعبة . . . وسرنا تحتاب أدياراً وكنائس، وحانات، إلى دير عظيم تعبق روائحه، وتصوك نوافحه، فوقف زهير ببابه: وصاح سلام على أهل دير حنة. فقلت أوسرنا بذات الأكيراح قال نعم. وأرقلت نحونا الرهابين، مشدودة الزنانير، قد قبضت على العكاكيز مبيضة الحواجب واللى. . . مكثرين للتسييح، عليهم هدى المسيح. فقالوا أهلاً بك يا زهير من زائر، وصاحب أبي عامر. ما بغيتك؟ قال حسن الدنان. قالوا أنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام عشرة. وما نراكما منتفعين به، فقال وعلى ذلك. ونزلنا وقاد بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه، وعكفت غزلانه، وفي دير حنة شيخ طويل الوجه والسبلة^(٢)، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طر جهازة^(٣)، وحواليه صبية كالظباء تعلو إلى عرارة^(٤). فصاح به زهير، حياك الله أبا الإحسان. فجواب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه.

(١) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبي نواس.

(٢) الشارب.

(٣) شبه كأس يشرب فيه وفي النسخة الخطية طجهازة ولعلها محرفة.

(٤) لعلها عرارة وهي لعبة للصبيان. وظبي يعطو إذا رفع يديه ليتناول الشجر. فهو يشبه الصبية بالظباء التي تلعب.

فقال لى زهير اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك .
فصحت أنشد من كلام أبى طويلة :

ولرب حان قد أدت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فى فتية جعلوا الزقاق^(١) تكاءهم متصاغيرين تخشعاً لكبيره
وإلى على بطرفه وبكفه فأمال من راسى لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
فصاح من حبال نشوته : أشجعى ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا
فشرب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إلى من حاله . فأدركتنى مهابته ،
وأخذت فى إجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال أنشد حتى أنشدك . فقلت
إن ذلك أشد لتأيسى على أنه ما بعدك لمحسن إحسان فأنشد :

يا دير حنة من ذات الأكيراح^(٢) من يصح عنك فإنى لست بالصاح
يعتاده كل محفو مفارقه^(٣) من الدهان عليها سحق إمسا^(٤)
لا يذفون إلى ماء بسانيه^(٥) إلا اعترافاً من الغدران بالراح
ثم قال لى أنشد . فقلت وهل تركت للإنشاد موضعاً . قال لا بد لك . .

فأنشدت

(١) جمع زق وهو وعاء الخمر .

(٢) هى بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبد وللآخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض .

(٣) خالية من الشعر .

(٤) الثوب البالى .

(٥) الدلو العظيم .

أصبح شميم أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى زندا
هب من رقده منكسراً مسبلاً للكم مرخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا صائد فى كل يوم أسدا
قلت هب لى يا حبيبى قبله تشفى من غم تبريح الصدا
فانشى يهتز من منكبـه قائل: لا، ثم أعطانى اليدا
كلما كلمنى قبلته فهو إما قال قولاً ردا
كاد أن يرجع من لثمى له وارتشافى الثغر منه أدردا^(١)
قال لى يلعب: خذ لى طائرًا فترانى الدهر أجرى بالكدا
وإذا استنجزت يوماً وعده قال لى يمطل: ذكرنى غدا
شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا"

ولقد بلغ فى هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذى قصد مبلغاً تشعر به النفوس وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمسه بيديك، أو كأنك واقف معه ترى ما يراه هو ويذكره فى شعره، أو كأنك تنظر إلى صورة واضحة تبين لك أجزائها بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم.

وله رسالة فى الحلواء غير معهودة المثال فى الكتابة العربية جرى فيها مجرى المجون والهزل والفكاهة. ذكرها ابن بسام فى الجزء الأول من الذخيرة.

(١) بدون أسنان.

وكان ابن شهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد. وله آراء تدل على فكره الثاقب وعلمه الواسع فى طرق النقد الأدبى. وكأنها آراء مبنية على نظر عميق أو دراسة فنية أو علمية. وفى رأينا أن آراءه فى النقد أكبر ميزة من شعره ونثره، لأنها تدل على سعة اطلاعه وابتكاره الخالص من كل تقليد، فقد انفرد بين نقاد الأدب العربى فى ذلك. قال أبو عامر:

"إقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو، بل بالطبع مع وزنه من هذين. ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه. فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه، كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هياتها . . . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه، كان ما يطلع فى تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق. فمن كانت نفسه المستولية على جسمه، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس. فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه، وهذا هو الغريب: أن يتركب الحسن من غير الحسن. كقول امرئ القيس:

تنورتها من أذرع وأهلها يثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده. ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى.

هذا شىء طريف فى النقد الأدبى عند العرب، وكأنه يشير إلى مذهب النقاد الذين يأخذون صور الكتاب من كتاباتهم، ويقولون أن البلاغة من نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء. وفى هذا الكلام إشارة إلى مذهب علمى فى

النقد: وهو الأعضاء " ووظائفها " واتصالها بالإدراك. وذلك إن كان ليس مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهي أفكار جالت في نفسه تدل على قوة الفكر لديه. وهو يميل إلى أن الافتنان في الكلام، أو البراعة في النظم والنثر، أو ما يسمونه بالبلاغة، نوع من الإلهام، أو شيء من الغيبيات أو سر من أسرار النفوس. وهذه الآراء هي أصول مذاهب النقد الأدبي، وأصول معرفة الكلام البليغ وشرحه كما قال:

"وقال الجاحظ إنا إذا اكرتينا من يعلم صبياتنا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهماً في الشهر. ولو اكرتينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم. ولم يقل هذا إلا وقد ألف كتاب "البيان". لو كشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج، لأرى كيف وضع الكلام وتنزيل البيان، وكيف التوصل إلى حسن الابتداء، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع بأنها معاني الصنعة، ومواضع مفاتيح الطريقة".

فمذهبه في النقد وسط، لأنه يرى أن البلاغة شيء روحاني كما قال "فمن كانت نفسه من أصل تركيبي مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها. الخ" ويرى أن لهذا السر الروحي عدداً وأهبة. قال:

"جلس إلى يوماً يوسف الإسرائيلي وكان أفهم تلميذ مربى وأنا أوصى رجلاً عزيزاً على من أهل قرطبة، وأقول له: أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام فإذا جاوز النسيب النسيب، ومازح القريب القريب، طابت الألفة وحسنت الصحبة وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر. أفهمت؟ قال لى أى والله. قلت، وللعربية إذا طلبت ولل فصاحة إذا

التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك، ومن تنكب عنها قصر،
أفهمت؟ قال نعم. قلت وكما تختار مליح اللفظ ورشيق الكلام، فكذلك
يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب عن قبيحه. قال أجل.
قلت أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل:

لعمرك إنى يوم بأنوا فلم أمت خفافاً^(١) على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير
فقال لى أى والله وقعت خفاتاً موقعاً لذيذاً، ووضعت رميت ومتن
الطريق موضعاً مليحاً، وسرى غصن يراح مطير مسرى لطيفاً" إلى آخر ما
قال.

وكان يميل إلى القول بأن الأذواق تتفاوت وتختلف. وهذه قاعدة عامة
فى كل الفنون، بل هذا أساس الفنون جميعاً. قال: وربما لاذ بنا المستطعم
باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله، فتصادف منه لا تتسع له فى
كبير مبرة فتشاركه ونعتذر له، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ
القصابين، فإذا قارعت أسماعهم وما زجت أفهامهم وانحلت عقدهم، جل
شخص ذلك البائس فى عيونهم. فما شئت إذ ذاك من خبز وميرة يحشى بها
كمه، ورقبة سميكة تدفن فى مخلاته، ومن كور فقاع يصب فى فمه، وتينة
رطبة يسد بها حلقومه... فلا يكاد البائس يتمم ذلك حتى يأتينا، فيكب
على أيدينا يقبلها وأطرفنا يمسحها، راغباً فى أن يكشف له السر الذى حرك

(١) مات فجأة.

العامة فبذلك ما عندها له، وبادرت برفدها إليه. وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه. لأن هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان، وبين فكره وبينه حجاب. ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان " الخ

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها وأحوالاً تعتريها. إذ قال:

"وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير فى العادة. ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه. ألا ترى لما دار حال بعض الرسم الأول فى هذا الفن إلى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل وأصحابهم. فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً وأنور شعاعاً، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح فى العلوم. ثم دار الزمان دوراناً فكانت حالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم، فرقت الطباع. ثم دار الزمان فاعتري أهله للطائف صلف وبرقة الكلام كلف، فكانت حال أخرى إلى طريقة البديع... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه، وتتهياً له قلوب أهليه. فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانيه، والزيادة فى تفريع فنونه. ثم جاء أبو تمام فأسرف فى التجنيس وخرج عن العادة، وطاب ذلك منه وامثله الناس. والتوسط فى الأمر أعدل. ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغوانى عليه، لأنه لبس ديباجة المحدثين على لامة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب".

هذه نظرة عامة فى النقد الأدبى أو فى أطوار البلاغة العربية. يتبين منها

أن ملكه النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثر . وقد قسم الافتنان فى البلاغة إلى ثلاثة أقسام . وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن . قال :
" وهل صناعة الكلام متباينون فى المنزلة ، فمنهم الذى ينظم الأوصاف ويحرز جيد اللفظ ، إلا أنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحة التأليف حتى أنه ربما قصر فى الوصف . وأساء الوضع . وهذا فى الأبيات القلائل نافذ ، وفى القريفة المأخذ سائر ، وفى طريقة الجمهور ذاهب . حتى إذا ازدحمت عليه ، وانحشدت إليه ، وطالبتة ببناء البهجة وشرف المنزلة ، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارع فى بحر الغرارة والقابح بشعاع البراعة ، الذى مرمر السيل فى اندفاعه ، والشؤبوب فى انصبابه لا يشكو الفشل ، ولا يكل عن طول العمل . إذا ازدحمت فى الكلام عليه المطالب ، وعلقت بحواشى فكره المآرب ، وحشدت عليه الصعائب والغرائب ، أسهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه ، وأعارها من نظرة لمحة ، ومن فكرة قدحه . ثم رمى بها عن جانبيه ، وقد رويت بمائها . ولبست شعاع بهائها . . . ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال ، فإذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك فى أنحاء من الصنعة ، وجل ما عنده تلفيق وحيلة . وبذلك يجارى الأيام ويصاحب أبناء الزمان ، ما كان له عقل يقضى على نقصانه ، وسياسة يسود بها فحول زمانه . ومن خرج من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل فى أهل صناعة الكلام " .

وقد أنحى ابن شهيد باللائمة على مذهب أهل البديع . كأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة . أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج ، أو أنها كانت آخذة فى الانتقال إلى طريق صحيح . قال أبو عامر .

"وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البعران، وإلى فطن حمئة وأذهان صدئة لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدب لها فى نور البيان، سقطت إليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني فى الرقص على الإيقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هى مخصوصة بها، ولا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلات. فهو كالحمار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رسغه، واستدارة حافره. ولا له بنان يحبس بها . . . ولو جاز أن يكون حمار يغنى .

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك وشبهه من الرجال له حنكًا ولسانًا وقصبه ورثة، لما جاز أن يوقع بالمضرب على الأوتار، ويتمم بحبس الأنامل، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبصر، فيلبل بنشيدته، ويولول فى ضربه على بسيطه. فهذه حالة العصابة من المعلمين: يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريانات إلى القلب، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى. وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة، كفرطحة الرأس وتسفيطه، . . . والتواء الشدق. وخزر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة .

أليس فى هذا دليل على اطلاع أبى عامر بن شهيد على كتب العلم والفلسفة، على الرغم مما فيه من الغموض، وهل نجد بين أدباء العرب فى

النقد الأدبى من سلك هذا الطريق العلمى؟ إن هذه لآراء ممتازة فى النقد الأدبى العربى . وطريقة علمية تشبه ما حدث فى الأدب عند أهل أوروبا فى القرن التاسع عشر . وكان هذا يكون نموذجاً للنقد الصحيح وطرقه العلمية التى تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصى وتركيبه الجسمى . ولكن واحداً من الأدباء الذين تكلموا عن أبى عامر بن شهيد لم يذكروا له غير " شعره الرقيق ، وأسلوبه الرشيق ، ومجونه الكثير وأدبه الوافر . . . " إلخ .

إن ابن شهيد من أفذاذ الأدباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والإدراك فى الأندلس .

الوزير ابن زيدون^(١)

اقتترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب. فكان الوزير كاتباً وشاعراً. وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء. وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة. فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب. وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة. وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك وتقلبوا فى مراكز الدولة. وتغلبوا على شئونها. وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية.

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين، أو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي، أشهر من عرف فى حلبة الأدباء، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك، وثمره من ثمار وغرس العرب فى بلاد المغرب.

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤هـ وتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون: أحدهم أبو بكر عبد الله بن

(١) ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شىء من حياته المنزلية أو تربيته الأولى، أو ما يتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة. وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال فى كتابه (الصلة) أنه أثنى عليه وكان يكنى أبا بكر وتوفى سنة ٤٠٥ هـ ودفن فى قرطبة. وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد. وفى بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل.

أحمد بن غالب والده، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه. وهم من أصل عربي كما أشرنا إلى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الأندلس من العرب.

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة، وعالماً وأديباً. مات سنة ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة. وكان أبو الوليد منذ حداثة ميالاً إلى العلم والتعليم، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب، فانكب على الدرس والبحث، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين. وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء. واندمج في مجالي الأدب، فصار عالماً من أعلامها ودعامة من دعائمها. وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها، وأهلها في رخاء من العيش، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء. فامتلاأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون، فساعده ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه.

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس. فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق في هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر. وكأما ضاعت كل صبغة جدية في المجامع الأدبية فجرؤوا الوزراء على المجاهرة بالمجون. وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فجذب إليه الأنظار.

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدون وهو كبير الحول والطول، فتقرب إلى ولادة حتى آمالها إليه، واغتصبها من صديقها، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته بعدم الإخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضاً، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدون ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولادة. ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج في ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية، فكان من أشيع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فملك أزمة الأمور. وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه صدور كثير من منافسيه

وحاسديه على فضله ومنزلته؛ فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً. فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد، فلم يفلح في إرضاء الأمير فعزم على أعمال الحيلة والهرب من السجن.

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبى الوليد بن جهور عند أبيه أبى الحزم حتى شفع له. وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته. ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة. فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقي هناك إلى آخر عمره.

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة. فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة. لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة: عشقة لولاده وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا. ثم مدحه لابن جهور وابن عباد. ثم أثر السجن في حياته العقلية.

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره. فقد كان للمجون مساحة خاصة في النظم والنثر، فبرع ابن زيدون في الغزل، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه، وأذكى ذلك كله حبه لولادة. فإن عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه. كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهاماً من إلهاماته الفنية.

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة. ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته، فإذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق. ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري أثارتها آلامه فأخذ يئن أنيناً جميلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها شعراً ونثراً. . . والفنى يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويسمع ويشعر. ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الإدراك، التي إذا أنت تنن أنين الموسيقى، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصور والإدراك الدقيق الجميل، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلاً.

كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقة أبي حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه، وهو ينهضه الأمل مرة، يقعده اليأس أخرى. ولا يترك شاردة تمر بخاطره إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه. يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي آلت به. ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته، لأن السادة خلصة. ثم يعود فيذكر أعداءه ونيلهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه

إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة، ويرجع أئينه وألمهم وحقده على الناس ولا سيما حاسديه، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه، وهو في ذلك كعاداته في الشكوى: يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس، ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء، وكأنه في شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره، كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب التماوج. حيث يقول:

ما على ظني باس	يجرح الدهر وياسو ^(١)
ربما أشرف بالمر	ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك أغفا	ل ويرديك احتراس
والمحاذير سهام	والمقادير قياس ^(٢)

(١) يداوى من آسى الجرح داواه.

(٢) قياس هنا جمع قوس.

ولكم أجدى قعود
وكذا الحكم إذا ما
وبنوا الأيام أخيا
نلبس الدنيا ولكن
يا أبا حفص وما سا
من سنا رأيك لى فى
ووادى لك نص
أنا حيران وللأم
لا يكن عهدك ورداً
وأدر ذكرى كأساً
فعسى أن يسمح الده
واغتم صفو الليالى
ما ترى فى معشر حا
ولكم أكدى التماس^(١)
عز ناس ذل ناسف
ف^(٢) سراة^(٣) وخساس^(٤)
متعة ذاك اللباس
واك فى فهم إياس
غسق الخطب اقتباس
لم يخالفه القياس
ر وضوح والتباس
إن عهدى لك آس
ما امتطت كفك كاس
ر وقد طال الشماس^(٥)
إنما العيش اختلاس
لوا عن العهد وخاسوا^(٦)

(١) أكدى يخل أو قل خيريه .

(٢) مختلفون .

(٣) أشراف .

(٤) أدنياء .

(٥) العصيان .

(٦) غدروا .

أذوب هامت بلحـمى فانتـهاب وانتـهاس^(١)
كلهم يسال عن حا لى وللذئب اعتـساس^(٢)
إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انـجاس
ولئن أمسيت محبوساً فللغيث احتـباس
وفيت المسك فى التـر ب فيـوطى ويداس

هذه نفحات القلوب، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة، وهذا هو جمال القول، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته. بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله. كل معنى فيه تحتاج إليه النفس فى مثل هذه المواقف. ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لأن الشاعر صادق فى قوله، معبر عن شعوره يرسم صورة نفسه الحزينة المتألمة. لهذا كان الشعر جميلاً.

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه، وأمعن فى ذلك، وكأنما كان يبكى حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخرى. أو كأنما معنى من هذه المعانى كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه. فلما مدح ابن جهور مدحه فى قلب استعطاف، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى. وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور، فكان عاتباً أشد منه مادحاً، لأنه كثيراً ما كان فى مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه، ولا يريد أن يملئ عليها ولو همساً أنه فى موقف مذلة. وكأنه كان يتسلى بهذا، لأنه

(١) مثل الانتهاس وهو الأكل بمقدم الأسنان.

(٢) تجسس.

يرى أن أعداؤه لم ينالوا منه إلا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى أنه قال
متهكماً:

ولو أننى أستطيع كى أَرْضى العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
فقال :

ألم يأن أن يبك الغمام على مثلى وهلا أقامت أنجم الليل مأتماً
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى
لتندب فى الآفاق ما ضاع من نبلى لعمر الليالى أن يكن طال عمرها
لألقيت بأيدي الذل لما رأت ذلى تحلت بآدأبى وإن مـآربى
لقد قرطست بالنبل فى مقتل النبل (١) أخص لفهمى بالقللى وكأتما
لسارحة فى عرض أمنية عطل وأجفى على نظمى لكل قلادة
(٢) بيت لذى الفهم الزمان على دخل ولو أننى أسطيع كى أَرْضى العدا
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل وإن رجأى فى الأمام ابن جهور
شريت ببعض العلم حظاً من الجهل كريم عريق فى الكرام وقلما
لمستحكم الأسباب مستحصد الفتل يرف على التأميل لألاً بشره
يرى الفرع إلا مستمداً من الأصل ويغنى عن المدح اكتفاء بسروه (٤)
كما رف لألاء الحسام على الصقل غنى المقلة الحكلاء عن زينة الكحل

(١) النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف .

(٢) لا فائدة فيها من عطلت المرأة إذا خلا جيدها من القلائد .

(٣) الذحل الحقد .

(٤) رفعته وعلو شأنه .

أبا الحزم أنى فى عتابك مائل إلى جانب تأوى إليه العلا سهل
حمائم شكوى صبحك هوادك تناديك من أفنان آدابى الهدل
وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء
الذى لقيه فى سجنه، وصورة من صور البؤس الذى حرك شعوره وفتق من
لسانه، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همًا وغمًا.

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره. وما
أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسائله الجدية. وكأنما كان فكره
سجينًا مثله من شدة تألمه فى السجن، فإنه لم يخرج عن عادته فى ضرب
الأمثال والفخر بنفسه، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دب على وجه الأرض.

غير أن كلامه مع ذلك المذاق، رقيق الحاشية، جذاب خلاب، تظهر
عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير، فإنه ليس من الخيالات الشعرية
الصفرة بل به كثير من الحقائق التى كان يملئها عليه شعوره كما قال:

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين الأثر
ولا استطلعت ذمًا^(١) الليل من أسف إلا على ليلة سرت مع القصر
إلى أن قال:

فهمت معنى الهوى من وحى طرفك لى إن الحوار لمفهوم من الحور
لم يسأل الناس عن حال يشاهدها محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر

(١) الذماء بقية الروح يريد ما بقى من الليل

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب^(١) وللشبيهة غصن غير مهتصر
 يا للرزايا لقد شافهت منهلها غمراً^(٢) فما أشرب المكروه بالغمر^(٣)
 لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الأمانى ضايح الخطر
 هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر
 إن طال فى السجن ائداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم الذكر^(٤)
 وإن يثبط أبا الحزم الرضى قدر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
 من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنيه على حذر
 وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن فقال
 " . . . وبلغنى أنك أحد اللائمين لى، ومن أمثالهم: ويل للشجى من
 الخلى^(٥) وهان على الأملس ما لاقى الدبر^(٦). وعلمت أن العاجز من لا
 يستبد، فالمرء يعجز لا محالة. ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين، العير
 والوتد، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين،
 وقد قال تعالى على لسان موسى: ﴿ففرت منكم لما خفتكم﴾. فنظرت فى
 مفارقة الوطن، فقديماً ضاع الفاضل فى وطنه، وكسد العلق^(٧) فى معدنه.
 كما قال:

(١) قرب.

(٢) الغمر الكثير.

(٣) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى.

(٤) سيف ذكر حاد.

(٥) الشجى المشغول.

(٦) يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى ظهره قرحة والأملس صحيح الظهر.

(٧) العلق النفيس.

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء^(١) من حطبه
فاستخرت الله فى إنفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن ، إلا
أن الغى لم يرتفع ، ومادة البغى لم تنقطع .

شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن تهوى المزار وما شطوا
أحبابنا ألوت بحادث عهدنا حوادث لا عهد عليها ولا شرط
لعمركم إن الزمان الذى قضى بشت جميع الشمل منا لمشط
وأما الكرى مذلم أزرکم فهاجر زيارته غب وإمامه فرط
إلى أن قال :

هرمت وما للشيب وخط بمفرقى ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فاذاكرت من الروضة الغناء طاولها القحط
وإنى لراج أن تعود كبدها لى الشيمة الزهراء والخلق السبط^(٢)
وحلم امرئ تعفى الذنوب لعفوه وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فمالك لا تختصنى بشفاعاة يلوح على دهرى ليسها علط^(٣)
إلى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى
وأجمعها لذكر الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما

(١) الكباء العود المتبخرة .

(٢) يرد الخلق الكريم يقال رجل سبط اليمين كريمهما وسبط الجسم حسن القد فهى من صفات المدح .

(٣) الميسم أثر الحسن والعلط سواد يزين به الوجه .

انقضى والبكاء على الحاضر، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره. ولذلك كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه. كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام، فرسمه فى شعره. لأنه رجل فنى عرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطرهِ.

ولقد يلاحظ الإنسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو علم واسع. وإنما هو خيالاً أكثر منه مفكراً، وشاعراً أكثر منه عالماً. وهذه كل حال شعره ونثره.

أما مدحه وراثؤه فهما فى الدرجة الأخيرة من شعره، لأنه على جمال أسلوبه فى ذلك، وحسن تصرفه فى المعانى، لا يكاد يعثر الإنسان فيه على معنى جديد ولا أرى خاص، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعانى من قبيل معارضيه غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوج ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان.

ومن أجمل قصائده فى ذلك كلامه فى المعتضد بن عباد وابنه المعتمد^(١) ومن أرق كلامه فى الشكوى، وأقرب عباراته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضى، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله:

الهوى فى طلوع تلك النجوم	والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى	لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما انقضى إلى أن تقضى	زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذى بظلم الليالى	ليس يومى بواحد من ظلوم

(١) راجع قصيدته التى يرثى بها ويمدح المعتمد ابنه فى نفح الطيب طبع أوروبا ج ٢ ص

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حينًا مؤلمًا، فإذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية، فبكى وبكى معه . كما قال :

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح	تقضت مبانيتها مدامعه نرحًا
مقاصير ملك أشرفت جنباتها	فخلنا العشاء الجون ^(١) أثناءها صبحًا
يمثل قرطبيها لى الوهم جهرة	فقبتهها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	إذا عز أن يمسى الفتى فيه أو يضحًا
هناك الحماء الورق ^(٢) خفافها	ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحًا
تعوضت من شدو القيان ^(٣) خلالها	صدى فلوات قد أطار الكرى صبحًا
ومن حملى الكأس المفدى مديرها	تقحم أهوال حملت لها الرمحا

(١) الجون يطلق على الأبيض والأسود والغرض منه الأسود .

(٢) التى فى لونها بياض ممزوج بسواد .

(٣) الجوارى .

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال، واندماج كثير من الأدبيات فى مجالى اللهو والطرب، أن المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين، وملأت رءوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم. فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور، والخمر تدير العقول وتملى عليها القول، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال. والعقول ثملة بنشوة الغرام، والرءوس مثقلة بحرارة المدام، والناس لا يفوتهم الطرب، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم، حتى فى أشد المحن. فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول:

وأدر ذكرى كأسًا ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله، وكانت خليعة ما جنة بارعة فى الجمال أدبية شاعرة، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء "تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء... خرجت على نهاية فى الأدب والظرف حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة متدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غربتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل

بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . . . " وقالوا " أنها كانت بالمغرب كعلية
بالمشرق، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق. وأما الأدب والشعر والنادرة
وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها. وكان لها صنعة فى الغناء. وكان لها
مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما
اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف، وتمتيع السمع والطرف، بحيث
تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق السباب " فقال ابن زيدون
رضاها، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه، حتى كتبت إليه تضرب
له موعداً فقالت:

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكرم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر
قال أبو الوليد " فلما طوى النهار نوره، ونشر الليل نيره أقبلت بقدر
كالقضيب، وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل.
فملنا إلى روض مدبج، وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت
سلاسل أنهاره، ودر الطل منشور، ورحيق الراح مزورور. فلما شيبنا نارها،
وأدركت منا ثأرها، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه . . . وأنشدتها:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذا شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمناً أطلعك
إن يطل بعدك ليلى فلکم بت أشكو قصر الليل معك "
وكتبت إليه بعد ذلك تقول:

الأهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي
إلى أن قالت :

تمر الليالي لا أرى البين ينقضى ولا للصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

لا نريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحىه من روائع
القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس، فإن تاريخ الإنسانية حافل
بحوادثه. ولكننا نقول أن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه،
ليس من المسائل الهزلية. لأن الشعر الذى هو وحي النفوس وجمال الإدراك
الإنسانى، أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب، ووصف هذا الضعف
الإنسانى الذى نسميه عشقاً، فإن العشق إدراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة.
ومن لم يفتح قلبه يوماً ما، لم يدرك أسرار الحياة، ولم ير غير ظواهرها ولم
يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون. إن جمال مظاهر الحياة
وأسرار النفوس فى التآلف، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية.
والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر، لأنه مصدر الشعر
الخيالى الجميل. لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار
النفوس، ويفتح القلوب. ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله.

إن النساء منبع من منابع الشعر. والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات
لديهم وهى وصف شعور الناس. والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن
نفسه فحسب، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم. وليس
أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين. إن الشاعر
يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعانى ويدفعها إلى

النفوس فتصبو إليها، ويذيعها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته. وذلك لا يكون إلا في الشعر.

فإذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والإكثار منه، فقد أخطأوا من جهة واحدة: وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد، وأن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة، وأن المعاني محصورة في ذلك.

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال، فكان فنياً مبدعاً. أرأيت شعراء الغرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين: الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم، والأضواء التي كانت تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظلمهم، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم، جديرة بأن لا تنسى، لأنها أثر من آثار العشق. الثاني أن الشاعر الفنى يفر من التكرار، ويعرف أن معاني العشق والحب سرعان ما تنفذ، فهو يتحايل على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليضل إلى التعبير عن مراده، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل. فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يبرزها. كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم. فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة في أيام الربيع، يرد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة، فذكر في شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك، وأبدع أيما إبداع، وافتن افتناناً عظيماً في ذلك. فقال:

إنى ذكرتک بالزهراء مشتاقاً
 وللنسيم اعتلال فى أصائله
 والروض عن مائة الفضى مبتسم
 يوم كأيام لذات لنا انصرمت
 نلهوا بما يستميل العين من زهر
 كأن أعينه إذ عاينت أرقى
 ورد تألق فى ضاحى منابته
 سرى ينافحه نيلوفر عقب
 كل يهيج لنا ذكرى تسوقنا
 لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم
 لا أسكن الله قلباً عن ذكركم
 لو شاء حملى نسيم الريح حين هفا
 كان التجازى بمحض الود من زمن
 فالآن أحمد ما كنا لعهدكم
 والأفق طلق ووجه الأرض قدر راقا
 كأنما رق لى فاعتل إشفاقاً
 كما حللت عن اللبات أطواقاً
 بتنا لها حين نام الدهر سراقاً
 جال الندى فيه حتى مال أعناقاً
 بكت لما بى فجال الدمع رقرقا
 فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
 وسان نبه منه الصبح أحداقاً
 إليك لم يعد عنها الصدر إن ضاقا
 لكان من أكرم الأيام أخلاقا
 فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
 وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
 ميدان أنس جرينا فيه إطلاقا
 سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار
 المعانى التى لم يسبق إليها؛ وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك
 النفوس وتستولى على القلوب. وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما
 يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والأسلوب. كما فى قوله:

إليك من الأنام غدا ارتياحى
وما اعترضت هموم النفس إلا
فديتك أن صبرى عنك صبرى
ولى أمل لو الواشون كفوا
وأعجب كيف يغلبنى عدو
ولما أن جلتك لى اختلاسا
رأيت الشمس تطلع فى نقاب
فلو أستطيع طرت إليك شرقا
وحسبى أن تطالعك الأمانى
فؤادى من أسى بك غير حال
وأن تهدى السلام إلى شوقا
ولقد يسمع الإنسان أنينه فى شعره، ويرى نفسه الحزينة من خلال
كلامه، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى للذين يملآن نفوس
العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها. على أنه يلتذ لذكر محبوبته
وتذوق الآلام فى سبيلها. فيقول:

متى أنبيك ما بى
متى ينوب لسانى
الله يعلم أنى
فلا يلذ منامى
يا راحتى وعذابى
فى شرحه عن كتابى
أصبحث فيك لما بى
ولا يسوغ شرابى

يا فتنة المتعزى وحجة المتصايبى
الشمس أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص
كل الإخلاص فى حبه، وأن حبه هذا هو كل أمنيته. وأنه يرى فى سبيل
العشق ما لا يراه غيره، ويهون عليه كل شىء فى سبيل إرضاء حبيبه حتى
حياته. وهو فخور بهذا كما قال:

أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعذك
وقد رأتك الأمانى رضى فلم تتعذك
يا ليت شعرى وعندى ما ليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدى كطول ليلى بعذك
سلنى حياتى أهبها فلست أملك ردك
الدهر عبدي لما أصبحت فى الحب عبدك

على أننا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان
كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه
بقول الشعر. كما قالوا أن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يغنى بها،
واستحسن ألحانها، فأنشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق متيم، وضمنها مدح
السلطان. فقال:

يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليا
وإن عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى إن أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهًا جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقيلا
لأقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا
وفى بعض كلامه، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى التى
قيلت فى العشق، فينظمها ويلبسها ثوبًا جديدًا وكأنها له، وقد برع براعة
عظيمة فى ذلك كما قال:

يا غزالا أصارنى موثقًا فى يد المحن
إننى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن
ليت حظى إشارة منك أو لحظة تعن
شافعى يا معذبنى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خلوا من الهوى وأنا اليوم مرتهن
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن
ليس لى عنك مذهب فكما شئت لى فكن
وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره، خفيف الروح عذب
الألفاظ سهل الأسلوب.

أما نونيته التى أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيرًا من شعوره وآرائه
المختلفة. فهى على شهرتها وجمالها ككل شعرة ولذلك لم نذكرها.

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التى كتبها فى سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته فى غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال ، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات الشعر معروفة وقعت فى صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله ، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال فى نواحيه ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله فى قالب ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ويمخضه كما يمحض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار فى التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت فى نفسه منزلته . وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يظن أن تذكر فى مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل اتعظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجدته ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، راد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك

فى نثر ابن زيدون وهو من دواعى الإعجاب بأسلوبه فى رسائله . فقد عرف كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون .

ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يجسم بها المعنى فى نفس القارئ لتهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

ففى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتملق إليه أخرى . ويعتذر فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه فقال :

"يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمأتنى إلى برود إسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، غضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحسن الجحاد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يغص الماء شاربى ،

ويقتل الدواء المستشفئ به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية الممتنى فى أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص.

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شماتة الأعداء

وأنى لأتجلد، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول:

هل أنا الأيد أدمها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله، وسمهرى عرضه على النار مثقفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

ثم أخذ يتعلل بالآمال، ويضرب فى ذلك الأمثال، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو، ويحمده على كل شئ، كما يحمد الله على السراء والضراء. فقال:

"هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع. ولن يرينى من سيدى أن أبطأ سبيه، أو تأخر غير ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها وأثقل السحائب مشياً أحلفها، وأنفع الحيا ما صادف جدباً، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه فى اغتفاله.

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سررن ألوف

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة، فقال:

"وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاؤل الذى لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك. لا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟

ألا يكن ذنب فعء لك واسع أو كان لى ذنب ففضلك أوسع
فهبنى مسيئاً كالذى قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل
حنانيك. قد بلغ السيل الزبى، ونالنى ما حسبى به وكفى، وما أرانى
إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح اركب معنا،
فقلت ساوى إلى جبل يعصمنى من الماء، وأمرت ببناء صرح لعلى اطلع إلى
إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت فى السبت، وتعاطيت فعقرت،
وشربت من النهر الذى ابتلى به جيوش طالوت . . . "

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد.
ثم أخذ بعد ذلك يبرى نفسه، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه،
على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك، وأخذ يلوم ابن جهور لوما
لا يظهر إلا من خلال عباراته، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما
يقول:

"فكيف ولا ذنب إلا نغمة أهداها كاشح، ونبأ جاء به فاسق، وهم
الهمازون المشاءون بنميم، والشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة
الذين لا يتركون أديماً صحيحاً . . .

والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية إليك،
ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت يأساً منك، مع ضمان تكلفت

به الثقة عنك، وعهد أخذه حسن الظن عليك. ففيم عبث الجفاء بأذمتي،
وعاث العقوق في مواتي وتمكن الضياع من وسائلتي. ولم ضاقت مذاهبي
وأكدت مطالبتي؟ وعلام رضيت من الركب بالتعليق بل من الغنيمة بالإياب؟
وأنى غلبني المغلب وفجر على العاجز الضعيف، ولطمتني غير ذات سوار؟
وما لك لم تمنع مني قبل أن أفترس وتدركني ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم
جوانح الأكفاء حسداً لى على الخصوص بك، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة
فى الكرامة عليك؟

ثم ذكره بإخلاصه له، ومدحه إياه، وأخذ يرجع إلى استعطافه ويملقه
فقال:

"وقد زاننى رسم خدمتك، وزهانى اسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل
فى سماطك، وقمت المقام المحمود فى بساطك.

ألست الموالى فىك غر قصائد هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يظن الروض منه منورا ضحى ويخال الوشى فيه منمنما
وهل لبس الصباح إلا برداً طرزته بفضائلك؟ وتقلدت الجوزاء إلا عقدًا
فصلته بمآثرك؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته فى محاسنك؟ وبث المسك إلا
حديثاً أذعته فى محامدك؟ ما يوم حليلة بسر. وإن كنت لم أكسك سلبياً،
ولا حليتك عطلاً، ولا وسمتك غفلاً. بل وجدت أجراً وجصاً فبنيت،
ومكان القول ذا سعة فقلت. حاشا لك أن أعد من العاملة الناصبة، وأكون
كالذبابة المنصوبة تضىء للناس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك
أولى".

ثم جاءت عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى، فبين له أن مثله لا يصير على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر، ويخاطر في هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله. فقال:

"ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأي أن أتحوّل إذا بلغتني الشمس ونبابي المنزل، وأصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال، فلا استوطئ العجز، ولا أطمئن إلى الغرور. ومن الأمثال المضروبة خامري أم عامر. وإني مع المعرفة بأن الجلا سباً، والنقلة مثلة.

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارع مظلوم مجراً ومسحبا وتدفن منه الصالحات وإن يسيء يكن ما أساء النار من راس كبكبا عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه، والخليط لا يتوقع زياله، والنسيب لا يخفى، والجمال لا يجفى. ثم ما قران السعد للكواكب أبهى أثراً، ولا أسنى خطراً من اقتران غنى النفس به، وأنتظامها نسقاً معه، فإن الحائز لها، الضارب بسهم فيهما، وقليل ما هم، أينما توجه ورد منهل بر، وحط في جانب قبول، وضوحك قبل إنزال رحله، وأعطى حكم الصبي على أهله.

وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح ومقبل وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن في هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه. فأخذ يلطف من حديثه، ويسكن من هياجه، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه في الحياة. فقال:

غير أن الوطن محبوب، والمنشأ مألوف، واللبيب يحن إلى وطنه،

حنين النجيب إلى عطنه، والكريم لا يجفو أرضاً فيها قوابله، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه، قال الأول:

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى أن يصب سحابها

بلاد بها حل الشباب تئامى وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا إلى مغالاتى بعقد جوارك، ومنافستى بلحظة من قربك، واعتقادى

أن الطمع فى غيرك طبع، والغنى ممن سواك عنا، والبدل منك أعور،

والعوض لقاء، وكل الصيد فى جوف الفرا.

وإذا نظرت إلى أميرى زادنى ضنا نظرى إلى الأُمراء

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه، ويضرب الأمثال فى ذلك، ويمدح

ى جوار سيده بقوله:

"أعيزك ونفسي من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما، وأكرم غير مكرم،

وأشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم، فما أبست لك إلا لتدر،

وحركت لك الحوار إلا لتحن، ونبهتك إلا لأنام، وسريت لك إلا لأحمد

السرى لديك، وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر، ومتى أعذرت فى فك أسرى

لم يتعذر، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة، والشفاعة زكاء المروءة،

وفضل الجاه بعود صدقه.

وإذا امرؤ أهدى إليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجديدة. وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى

من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة، التى تهيج مرة وتسكن أخرى،

وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين، وكأئما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه

وأهوائه، أو كأنه هو ونفسه قرنان: يشتد كل منهما عندما يخاف قوة صاحبه.

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف على كتب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هذه الرسالة. يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل، ويرى نفسه المتهكمة، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته، لا يريد أن يقول هذا ظلم، ولكن يريد أن يقول هذا حمق وخرق فى رأى. ويرى نفسه الكئيبة التى أخدمتها الأكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق. يرى الإنسان كل ذلك فى هذه الرسالة. ومن هنا جمالها وإبداعها. لا ما بها من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير.

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة. فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار، وعلى باع أوسع فى الهجاء. لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس إقداعاً، وتهكم به تهكماً لا مثيل له، حتى أنه ليخيل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال فى الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جميلاً خلافاً يدل على تمكنه من التصرف فى الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها، الذى يستغرق أربعة أحماسها أو أكثر، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والأبيات المشهورة، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال. على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب، فقد ذكر أكثر من خمسين اسماً لمشهورى الرجال، سردها سرداً، وكان يكفى عشرها، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغواً. ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة. وليس أدل

على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة. فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال:

"أما بعد أيها المصاب بعقله. المورط بجهله. البين سقطه. الفاحش غلظه العاثر فى ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره. الساقط سقوط الذباب على الشراب. المثهات تهافت الفراش على الشهاب. قال العجب أكذب. ومعرفة المرء نفسه أصوب. وإنك راسلتنى مستهدياً من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك. متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك. مرسلًا خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة. كاذباً نفسك أنك ستزول عنها إلى. وتخلف بعدها على.

ولست بأول ذى همة دعتة لما ليس بالنائل

ولاشك أنها قلتك إذا لم تضن بك. وملتك إذا لم تعز عليك. فإنها أعذرت فى السفارة لك. وما قصرت فى النيابة عنك. زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه. والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه. حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه. وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه. وأن قارون أصاب بعض ما كنزت. وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك ... "

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء. ثم أقذع فى الدم وأفحش فى صفاته فقال:

"وهبها لم تلاحظك بعين كليله عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود. وكانت إنما حلتك بحلاك، ووسمتك بسيماك. ولم تعرك شهادة. . ولم تكن كاذبة فيما أثنت له عليك، فالمعيدى تسمع به خير من أن تراه.

هجين القذال، أرعن السبال. طويل العنق والعلاوة. مفرط الحمق والغباوة.
جافى الطبع. سىء الجابة والسمع. بغيض الهيئة. سخيـف الذهاب والجيئة.
ظاهر الوسواس. منتن الأنفاس. كثير المعايـب. مشهور المثالب. كلامك
نمـنة. وحديثك غمـمة. وبيانك فهـمة. وضـكك قهقهة. ومشـيك هرولة،
وغناك مسألة. ودينك زندقـة. وعلمك مخـرقة

مساو لو قسمـن على الغوانى لما أمهـرن إلا بالطلاق»

واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء
والتهكم. ولقد كشف ابن زيدون فى هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة
لانتقام وأنه شديد الحفيظة، ودل على غلظة فى طبعه، وخشونة فى أخلاقه.
مع ذلك فهى رسالة تمتاز بأسلوبها. وتناسق عباراتها. ولعل ابن زيدون أخذ
هذا الأسلوب عن الجاحظ فى بعض رسائله، كما فى رسالة التريـع والتدوير.

أحمد بن عبد ربه^(١)

عاش ابن عبد ربه فى أيام نضارة دولة بنى أمية فى الأندلس، زمن عبد الرحمن الناصر، وكان أكرم الناس لديه ولدى ولى عهده الحكم، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل. تعلم فى قرطبة قاعدة العلوم إذ ذاك. ودرس جميع الفنون العربية، ولا سيما علوم الأدب، حتى أصبح إماماً فيها، وكان محباً للاطلاع فصار أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بآداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح. وكان فى أول أمره ككل الأدباء والظرفاء الذين يميلون إلى اللهو فكان كثير من شعره فى صباه شعراً رقيقاً غزلياً^(٢) وقد رجع

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء بنى أمية بالأندلس. ولد فى سنة ٢٤٦ هـ وتوفى سنة ٣٢٨ هـ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة. ذكره ابن خلكان فى الجزء الأول. وياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء فى الجزء الثانى، والضبى فى كتابه بغية الملتبس ص ١٣٧. وذكر فى عدة مواضع من نفح الطيب ولا سيما فى الجزء الثانى، وفى الجزء الأول من يتيمة الدهر طائفة من شعره.

(٢) شهد له المتفنى بهذا. روى فى ذلك ذكره صاحب نفح الطيب فى الجزء الثانى وياقوت فى كتابه معجم الأدباء جزء ثانى أنه اجتمع مع أبى الطيب فى مسجد عمرو بن العاص أحد الأدباء ففأوضه قليلاً ثم قال أنشدنى المليلح الأندلسى يعنى ابن عبد ربه فأنشده:

يا لؤلؤ يسبى العقول أنيقاً	ورشا بتعذيب القلوب رقيقاً
ما أن رأيت ولا سمعت بمثله	داراً يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه	أبصرت وجهك فى سناه غريقاً
يا من تقطع خصره من رقة	ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما أكمل إنشادها استعادها ثم صفق بيديه وقال: يا ابن عبد ربه لقد تأتيت العراق حبواً.

عن لهوه فى شيخوخته وتاب عما فعله فى أيامه الماضية . وقالوا أنه عمل على أعاريض شعره الذى قاله فى صباه أشعاراً فى الزهد وسماها الممحصات .

وقال عنه صاحب اليتيمة : "أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلاً . وشعره فى غاية الجزالة والحلاوة ، وعليه رونق البلاغة والطلاوة " وأورد له طائفة من شعره .

والحق أن مقطوعاته الشعرية فى الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف فى ذلك وأحسنه . وأجمل شعره فى هذا النوع ، وكل هذا من قبيل الصناعة وجب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء ، بل هو أديباً أكثر منه شاعراً . وإنما جاء الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وامتلائه بأقوال الشعراء . وكان بطبيعته ميالا إلى الرقة ، فانحدر إلى قول الشعر الرقيق ، وأغرب بعض الأغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأدباء شعراء . فهو رقيق الذوق حسن الديباجة .

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على أنه كان شغوفاً بقول الشعر ولكنه شغف فنى . حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الألفاظ والمعانى المرقصة ، وكأنما يشرب الإنسان خمراً لا يقرأ شعراً . أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل ، أو لحظة الحياة اللذيذة . أو كأن الكأس وما فيه والحبيب وجماله كل شيء فى الحياة . كما قال :

اشرب على المنظر الأنيق	وامزج بريق الحبيب ريقى
واحلل وشاح الكعاب رفقا	خوفاً على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى	خل قليلاً عن الطريق

وقد أجاد فى هذا النوع من الغزل، كقوله :

بزمَامِ الهوى أمت إليه وبحكم العقار أقضى عليه
بأبى من زهى على بوجهه كان يدمى لما نظرت إليه
كلما علنى من الراح صرقاً علنى بالرضاب من شفتيه
ناول الكأس واستمال يلحظ فسقتنى عيناه قبل يديه
كذلك كان رقيقاً فى شعره وميلاً إلى الرقة فى كل شىء، وإلى
الابتكار فى المعانى والأساليب. فقد قالوا عنه، ورواه ابن بسام فى
"الذخيرة" وابن خلدون "فى مقدمته" : إنه أول من سبق إلى اختراع
الموشحات.

ولقد كان يصف مواقف العشاق ومحادثتهم ويصور ذلك بشكل ساحر
خلاب وعبارات جذابة. كقوله :

ودعـتـنى بزورة واعـتـناق ثم نادى متى تكون التلاقى
وبدت لى فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفـراق أفـطع يوم ليتنى مت قبل يوم الفراق
وله قصائد طويلة فى العقد الفريد.

وأفضل ما جاء به ابن عبد ربه، وعد من أجله أكبر أدباء الأندلس،
كتابه الشهير "العقد الفريد" الذى هو من أمهات كتب الأدب العربية، وهو
كتاب فذ بين هذه الكتب جرى فى تأليفه على أسلوب لم يسبق إليه. وهو

تقسيمه إلى عقود وجواهر، خص كلا منها بكلام فى موضوع خاص واستوعب هذه الموضوعات بقدر ما سمحت له مباحثه، فجاء كتاباً وافياً لمن يريد أن يطلع على ما قبل فى الأدب العربى: من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر: من كلام الأعراب والمستعربين. ومن رسائل أدبية وفنية، وكلام فى السياسة والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر. ونقل شيئاً عن بعض الأمم الأخرى مما كان معروفاً فى كتب الجاحظ وغيرها. وأودعه كثيراً من كلامه. وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة، أسهل تناولاً من غيره وأدل فى جملته على أدب صاحبه ورقة ذوقه فى الاختيار. وفى هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس فى غيره، ويكفى الاطلاع عليه للوقوف على شىء عظيم من الأدب العربى وعقول العرب ونفسياتهم. ومعظم الكتاب، أو كله من مختار كلام الناس، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال:

"وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر ولب اللباب. وإنما لى فيه الاختيار وحسن الاختصار. وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه... وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة فى فنون الأخبار، ولا جامعة لجمال الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها. وقرنت بها غرائب من شعرى...

وقد أخذوا على المؤلف أنه لم يذكر شيئاً في كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده. وقالوا أن صاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وإنما هو يشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه ورده، وعابه في ذلك أبو على الحسن محمد التميمي القيرواني صاحب الرسالة التي كتبها إلى أبي المغيرة بن حزم.

ابن دراج القسطلی^(١)

هو أبو عمر أحمد بن دراج القسطلی. آدب أهل زمانه، وأشهر من عرف فى عصره بطلاقة اللسان وبالغة الشعر. قال عنه الثعالبی فى یتیمه الدهر: "بلغنى أن القسطلی كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام".

ولد ابن دراج سنة ٣٤٧ هـ وتوفى سنة ٤٢١ هـ وأدرك عز الدولة الأموية، لأنه ولد فى آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش فى عصر الحكم ابنه، ذلك العصر الذى بلغت فيه حضارة العرب منتهاها، وفى عصر المنصور بن أبى عامر، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بنى عامر كما يقولون، بل قالوا أنه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين. واشتهر ذكره فى الشام والعراق^(٢).

كان ابن دراج يعيش بشعره، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك. وناهيك بمن تكون هذه صناعته، يفد على من يعرف ومن لا يعرف، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد. ولعل تهافته على المدح وتسابقه فى هذا الميدان ووقوفه بين أيدى الملوك والأمراء هو الذى أكسبه هذه الشهرة. على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد

(١) راجع ابن خلكان ج ١ والذخيرة ج ١ وفهرس الجزء الثانى من نفع الطيب طبع أوروبا وبغية الملتمس ص ١٤٧.

(٢) ويقول فيه ابن بسام أنه كان فى وقته لسان الجزيرة شاعراً وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيراً وقال عنه ابن خلكان أنه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ما ينظم ويقول: وقال أن له ديواناً فى جزأين.

بنى أمية وتآلب الناس على دولة بنى عامر، والاشتغال بالدسائس. ذكر مؤرخ الأندلس الشهير أبو حيان ابن دراج بقوله: "أبو عمر القسطلی سابق الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء واضطرتته على النجعة فاستقرأ ملوكها أجمعين . . . يهز كلا بمدحه، ويستعينه على نكبته، وليس منهم من يصغى له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخطبهم . . بمقوله، فيصمون عنه. إلى أن أناخ بساحة منذر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه ولم يزل عنده وعند ابنه بعده.

أما شعره فهو فى جملة شعر من يتردد على موائد الأدب ليتذوق من كل لون طعمًا، ويجمع هذه الطعوم ليجعل له مائدة خاصة به يدعو إليها الآكلين وكأنما يأكلون من مائدته. حتى أن بعض الباحثين استدل بقصيدته التى مدح بها المنصور بن أبى عامر على تقليد الشعر القديم. ويقول أنه عارض بها قصيدة أخرى فى المدح على أنه أجاد إجادة عظيمة فى هذه القصيدة التى دلت على براعته فى التقليد. ولعله أراد أ، يبين للمنصور أنه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر، وأن مادحه خير من مادح ذاك. والقصيدة فى غاية السبك وحسن البيان، وهى من أجمل قصائده. تشبه الشعر القديم بما فيها من الروح البدوية التى تدل على أخلاق العرب من الشهامة وصدق العزيمة، وعزة النفس والجلد والصبر على تحمل الآلام، ومحاطبة النساء ووصف الوداع. حتى لقد يظهر من عباراتها أنها من كلام أهل البدو لمتانة أسلوبها ونزعتها العربية الخالصة، وكأنها صادرة من عربى يجوب القفار وتقطع الصحارى أعناق مطاياها. ويلفحه الهجير فيحرق وجهه. وتهب عليه

النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت . ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما
يطأ حطائر الجحيم . يقطع المفاوز طولا وعرضاً . وكأنه فى بحر يزخر . مياهه
الرمال وأمواجه السراب .

يكاد يلمح الإنسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى
يسمع بذكرها ، ويظن أنه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة . فإذا
امتلاّت نفسه من هيبة هذه القفار وهول الأسفار وهبوب الرياح ، سمع فى
كلامه ، ما هناك من زئير الأسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى
الشاعر يعانى الخلاص من تلك الأهوال ويحاول الفرار ، من مخالب الزّوام .
ولم ينس وهو يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل
البهيم والقصيدة هى :

ألم تعلمى أن الشتاء هو التوى	وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفنى طول السفار وأنه	لتقبيل كف العامرى سفير
ذرينى أرد ماء المفاوز آجنا	إلى حيث ماء المكرمات نمير
فإن خطيرات المهالك ضمن	لراكبها أن الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجته وابنه الصغير

ولما تدانت للوداع وقد هفا	بصبرى منه أنه وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى	وفى المهد مبغوم الندا صغير
عينى بمرجوع الجواب ولفظه	بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت	له أذرع محفوفة ونحور

فكل مفدات الترائب مرضع
عصيت شفيح النفس فيه وقادنى
وطار جناح البين بى وهفت بها
لئن ودعت منى غيوراً فإننى
ولو شاهدنى والهواجر تلتظى
أسلط حرا الهاجرات إذا سطا
واستشق النكباء وهى لوافح
وللموت فى عين الجبان تلون
لبان لها أنى من البين جازع
ولو بصرب بى والسرى جل وعزمتى
واعتسف المومة فى غسق الدجى
وقد حومت زهر النجوم كأنها
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
وقد خيلت طرق المجرة أنها
وقد أيقنت إلى المنى طوع همتى

وكل محياة المحاسن ظيز
رواح لتدآب السرى وبكور
جوانح من ذعر الفراق تطير
على عزمتى فى شجوها لغيور
على ور قراق السراب يمور
على حر وجهى والأصيل هجير
واستوطى الرمضاء وهى تفور
وللذعر فى سمع الجرىء صفير
وأنى على مض الخطوب صبور
وجرسى لحنان الفلاة سمير
وللأسد من غيل الضباب زئير
كواكب فى خضر الخدائق حرر
كؤوس مهى والى بهن مدير
على مفرق الليل البهيم قدير
وإنى بعطف العامرى جدير

هذا فى جملة أسلوب عربى ضيم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف. ولكنه يدل على أن ابن دراج لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى، وإنما هو مقلد بارع، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الأمكنة التى لم يرها إلا فى كلام

الشعراء. فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد.

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد إلى الأندلس قوله:

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها	هدية من والى وتحفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة	وأهدى إلى صنعاء من نسجها وشيا
ويكى ملوك الأرض من كان مفخرًا	إذا امتثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا	مآثره حفظًا وآثاره وعيا
إذا لمعت زرق الأسنة حوله	كإضرام نيران الهموم حواليا
ولد لاذ أبطال الجلال بعطفه	كما لاذ أطفال الجلال بعطفيا
وما قصرت عنه رماح عداته	كما قصرت عنهم رياش جناحيا
فيا لك من ذكرى سناء ورفعة	إذا وضعوا فى الترب أيمن شقيا
وناحت ليالى الدهر منى ميتا	بآخر أيام دفنت بها حيا
وكان ضياعى حسرة وتندما	إذا لم يفد شيئًا ولم يغنى شيا
وأصبحت فى دار الغنى عن ذوى الغنى	وعورضت فاستقبلت أسعد يوميا
فيا عبرتى سحى لعلى مبلل	بحريك ما انزفت من ماء خديا
إلى آخر ما قال:	

وقد أجاد فى أساليب المدح إجابة لا يقدر عليها إلا من انقطع لها. فلقد تجده يمدح مدحًا يحرك الأطماع ويدفع الممدوح إلى الغرور، ويجعله

يعتقد في نفسه ما ليس أهلاً له . وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر، ويجله فوق كل إنسان، حتى كأنه ليس في خلق الله من يدانيه أو يجازيه في صفات الكمال .

قال من كلام يمدح منذر بن يحيى :

فلئن تركت الليل فوقى داجيا	فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
وحللت أرضاً بدلت حصاؤها	ذهباً يرف لناظري وجوها
ولتعلم الأملاك أنى بعدها	ألفيت كل الصيد في جوف الفرا
ورمى على رداءه من دونهم	ملك تخير للعلا فتحيرا
ضربوا قبابهم على فعاذنى	من كان بالقدر المعلى أجدر
وكأنما تابعت تبع رافعاً	أعلامه ملكاً يدين له الورى
وحططت رجلى بين نادى حاتم	أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيت زيد الخيل تحت عجاجة	يكسو غلائلها الجياد الضمرا
وأيت بجدل وهو يرفع منبرا	للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلقها	سعيّاً فكنت الجوهر المتخيرا

كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق إلى الأسماع رنته وحسن سبكه . ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح، ولكنه ذكر فيه كل خواطره وأفكاره، وكأنه اتخذه وسيلة للتعبير عن آرائه التى لا تخرج عن الشكوى والحقْد على الأيام وبعض الآراء المعروفة، ولقد كان يتأثر بالحوادث، ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول :

ومن دوننا أنسـات الديار نهـاب الحمى موشحات الطلول
مغانى السرور لبسن الحداد على لابسـات ثياب الدهول
خطيبات خطب النهى والمهور مهـارى علها رحال الرحيل
فمن حرة حليت بالجلال وعذراء نصت بنص الزميل
ولا حلى إلا جمان الدموع تسيل على كل خـد أسيل
فيبدلن من طول خفض النعيم بشق الحزون ووعث السهول
ومن قمر الليل تحت الحجال بهول السرى تحت ليل طويل
وقد جرى فى وصفه على الطريقة الخيالية المعروفة عند شعراء العرب .

كما وصف أسطول المنصور بن أبى عامر . فقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة ، وأن ذلك من آثار تقدمها ، ومن وسائل حمايتها ، ومن المسائل الحيوية لصيانتها ، أو يذكر شيئاً من الآراء الجدية ، أو الاجتماعية أو السياسية . ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك ولم يفكر فى هذا ، وإنما كان يفكر فى مدح الأمير لا غير . ولو أنه كان مدفوعاً بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال . ولكنه قال :

تحمل منه البحر بحرأ من القنا يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالات الشراع كأنها وقد حملت أسد الحقائق غيل
إذا سابقت شأو الرياح تخيلت خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزيجها الرياح فإن وفـت أنافت بأجـياد النعام فيول
ظباء سهام ما لهن مفاحص وزرق حمام مما لهن هديل

سوا كن فى أوطانهن كأن سما بها الموج حيث الراسيات تزول
كما رفع الآل الهوارج بالضحى غداة استقلت بالخليط حمول
أراقم تفرى نافع السم مالها بما حملت دون الغداة مقليل
هذه نظرة تدل على أن ابن دراج وإن لم يكن من الشعراء المبتكرين، أو
من أصحاب الصفات الشعرية الممتازة، فهو بارع فى صناعته متين، فى
أسلوبه، مادم يجيد الاختيار فى اللفظ والمعنى. وله قصائد كثيرة وبعض
رسائل نثرية، ذكرها صاحب الذخيرة فى الجزء الأول. وكلها من باب الخيال
ونقل معانى غيره فى نظمه ونثره. ومع ذنب يحسبه الأدباء من أكبر الشعراء.

المعتمد بن عباد^(١)

نشأ المعتمد فى عز أبيه، وترعرع فى أبهة الملك، وورث كثيراً من صفات والده. فقد كان أبوه نبل الطبع شريف النفس، شجاعاً مهيباً داهية فى

(١) هو أبو القاسم محمد المعتمد على الله بن المعتضد بالله بن عباد صاحب قرطبة وإشبيلية وأشهر ملوك الطوائف.

ولد المعتمد سنة ٣٤١ هـ بمدينة باجة وتوفى فى السجن بأغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ومجمل خبره فى ذلك أنه تولى الأمر والحال فى اضطراب وشقاق، والدولة فى ضعف: فقد كان تابعاً لملك الإفرنج يدفع إليه إتاوة سنوية. حتى طبع ذلك الملك فى أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريته. وأرسل إلى المعتمد رسولا، فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه. فتأهب ملك الإفرنج للإغارة على قرطبة، فلما علم كبار الناس اجتمعوا إلى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيما بينهم لينقذوا بلادهم من شر العدو، واتفقوا على أن يستنجدوا بملك مراكش يوسف بن تاشفين، وأخبروا المعتمد وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضى أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك. فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك، وأرسل جيشاً إلى الأندلس، وتقابل هذا الجيش بجيش - المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الإفرنج، فانهزم الإفرنج وفر ملكهم هارباً، وقوى أمر المسلمين. وقد أبلى المعتمد فى هذه الموقعة بلاء حسناً، وقاوم مقاومة الأبطال، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الواثق بالظفر.

ولقد كان هذا الانتصار العظيم الذى سر به المعتمد بن عباد أعظم سرور فى حياته من أكبر الأسباب لشقائه: لأن يوسف بن تاشفين ذلك البربرى طمح فى بلاد الأندلس ولا سيما عندما اطلع على ما هناك من الأموال والذخائر والمباني والبساتين وأصناف الأموال وأسباب الترف التى لم يرها فى بلاده. وزاده طمعاً فى ذلك تزيين حاشية تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها. واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذاك وانتهزت بطانته هذه الفرصة فأوغروا صدره على المعتمد حتى عزم=

السياسة اتسع الملك على يده، وصارت دولته أكبر دولة إذا ذاك، وكان مع هذا أديباً فاضلاً، كريم الأخلاق ثاقب الذهن حاضر الخاطر، شاعراً رقيق الذوق حسن الاختيار طلي العبارة، جميل الصورة، بهيج الطلعة، جذاباً بهيئته وشكله، جواداً كريماً:

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فاكسب منها شيئاً كثيراً، ومال بطبعه إلى الأدب والمجون. فكان كأبيه فى كل صفاته. ولكنه كان أشعر منه وارق ذوقاً وأخف ظلاً، وأحب للأدب من أبيه، حتى قالوا أنه لم يجتمع الأدباء والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده، وناهيك بأمر شاعر من أفضل الشعراء ديباجة، وأرقهم ذوقاً، وأحبهم إلى مجالس الأدب. ألا يكون ذلك من الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدباء^(١).

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وثراء^(٢) ميالا لأن يصرف وقته فى

=على الانتقام منه فحاصره وهو بإشبيلية. ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع عن نفسه وبلده وجالد مجالدة لا تعرف. وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به. ولكن ماذا يعمل إنسان رقيق أمام هؤلاء الأجلاف؟ على أنه ألقى بنفسه على الموت وهو ثابت الجأش. والناس فى رعب وفزع يترامون فى الأنهار من شرفات الأسوار، إلى أن نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهيين آخذين كل شىء رأوه ووجدوه. وقبضوا على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه المأمون والراضى وقتلوهما وأرسل المعتمد مقيداً مع أهله إلى بلاد مراکش بعد أن شيعه أهل بلده ومحبوه بالبكاء والنحيب وأرسله ابن تاشفين إلى مدينة أغمات وبقي فيها إلى مات سنة ٤٨٨ هـ.

(١) راجع سؤاله عن كلمة مهيب فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثانى صفحة ٤٧٣.

(٢) قالوا أنه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنهما سبعمائة مثقال وأهداهما إلى فتاتين. وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حمل إليه حمولة وافرة من قراريط الفضة فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملةتها جمل مرصع بالذهب واللالئ فقال له أبو العرب معرضاً ما يحمل هذين الكيسين إلا جمل فتبسم المعتمد له به فارتجل شعراً فى ذلك وقالوا أن هذا الجمل بيع بخمسائة مثقال.

اللهو الأدبي ومجون الشعر ومجاراة الشعراء فى قولهم . وكان يعجبه كثيراً أن يكون شاعراً وأديباً بين هؤلاء الأدباء والشعراء ، ويجتهد فى أن يقول الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله إلى ذلك من الأسباب التى جعلت شعره رقيقاً .

وكان صافى الذهن نقى الذوق ، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال ، عذب الحديث إذا تكلم ، حسن الاختيار فى نظم الألفاظ والمعانى ، فكان شعره فى جملته رقيق الحاشية صادقاً فى معناه ، خالياً من التكلف ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته .

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية . كانت تملئ عليه الحوادث فيقول ، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فيفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالى من كل تصنع ، أو معنى ليس له أثر فى نفسه ، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح . فكان شعره أياماً من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه . وأجاد فى كل ذلك إجابة تدعو إلى الإعجاب برقة شعره ورقى خياله .

أما مجونه فلم يخرج فيه عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله . يشعر الإنسان عند تلاوته بخفة روحه وحسن ذوقه ، وبراعته فى سهولة الكلام والتعبير عما يرد ، بدون تكلف وحسن فى الصناعة وافتنان فى التعبير . وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء فى حسن الوصف ودقته .

فقد كان حلو الفكاهة فى جميع أوقاته تشمله الخمر أحياناً فتزید من رقة أدبه . ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه ، وبديهته تملئ عليه جميل القول . فقد جاءت إليه جارية تسقيه وكان كلفاً بها ، إذ لمع البرق فارتاعت فقال :

يروعها البرق وفي كفها برق من القهقهة لماع
كل ذلك كان له أثر عظيم في شعره. وإذا لم يكن المعتمد من كبار
الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم في الحياة قول الشعر، ولا
من المكثرين، فهو وجه من وجوه الأدباء، وصورة من صور الشعراء الظرفاء
عشاق الشعر والأدب. ودليل على ما وصلت إليه حال الأدب في تلك
البلاد، وعلى تأثير الحضارة في النفوس وتهذيبها الأخيلة والتصوير، ورقة
الشعور وجمال القول.

كما كتب إلى أبي محمد المصري يدعوه إلى مجلسه:

أيها صاحب الذى فارقت عي نى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التى تسمى من الد ذة والرقعة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا قد أعدا لك الحيا والحياء

وقال فى ساق وذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله:

إنه دخل عليه فى دار المزينة والزهر يحسد إشراق مجلسه، والدر يحكى
اتساق تأنسه، وقد رددت الطير شدوها، وجددت طربها وشجوها، والغصون
قد التحفت بسندسها، والأزهار تحيى بطيب تنفسها، والنسيم يلم بها فتضعه
بين أجفانها، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها، وبين يديه فتى من فتيانها،
يتثنى تثنى القضيبي، ويحمل الكأس فى راحة أبهى من الكف الخصيب، وقد
توشح وكأن الثريا وشاحة، وأنار فكأن الصبح من محياه كان اتضاحه، فكلما
ناول الكأس خامره سوره، وتخيل أن الشمس تهديه نوره، فقال المعتمد:

لله ساق مهفهف غنج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى أنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائب الذهب
وأما بؤسه وما ألم به فى آخر حياته فقد وصفه وقد نالت منه الآلام
وأذابت مهجته، حتى لم يبق من نفسه بقية من الصبر، واستولى عليه الجزع،
وكأنما ينظر إلى عزة الماضى، وملكه الزائل فيتمالكه اليأس، ويكاد يقضى
على كل ما فى نفسه من شجاعة وبأس، وقد نحله الضعف وملكه البكاء،
وذابت نفسه حسرة على ما هو عليه وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى
أصبحوا خدماً لخدمهم، وقد كانت تذلل لهم الجابرة، وتخدمهم خاصة
الناس.

يصف ابن عباد ذلك فى شعره، وكأنك تراه فى أشد ما يكون الرجل
من البؤس واليأس، فلا يرجو الخلاص إلا إلى الموت. فقد بلغ من أمره أن
أكرم بناته دعاها الحال إلى أن تطلب عزلاً من الناس تسد بأجرته بعض مالها.
فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت شرطة أبيها. وأنفق أن السيدة الكبرى أم
بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زهر بمراكش قد استدعاه ابن تاشفين
لعلاجه، فطلب إليه المعتمد راغباً فى علاج زوجته، فكتب إليه الوزير رسالة
بإجابة طلبه، ودعا له فيها بطول البقاء. فقال المعتمد فى ذلك:

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول له البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب فإن هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى عوارى قد أضر بها الجفاء

خوادم بنت من قد كن أعلى
وطرد الناس بين يدي ممرى
وركض عن يمين أو شمال
ولكن الدعاء إذا دعاه
جزيت أبا العلاء جزاء بر
سيسلى النفس عن ما فات علمى
مراتبه إذا يبدو النداء
وكفهم إذا غص الفناء
لنظم الجيش أن رفع اللواء
ضمير خالص نفع الدعاء
نوى برا وصاحبك العلاء
بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه فى سجنه بناته يوم عيد فى أطمار باليه وحالة بؤس، وكن
يغزلن للناس بالأجرة فى أغمات. فلما رآهن المعتمد فى أطمار رثه شعر كأنما
تمزقت أحشاؤه وانصدع قلبه. فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة
برزن نحوك للتسليم خاشعة
يطأن فى الطين والأقدام حافية
أفطرت فى العيد لا عادت إساءته
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا
من بات بعدك فى ملك يسر به
فساءك العيد فى أغمات مأسورا
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
فكان فطرك للأكباد تفتيرا
فردك الدهر منهياً ومأمورا
فإنما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا عرف كيف يصدع القلوب بكلامه، وكيف يفتح قلبه ليرى
مكنوناته وأبان لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب إلى الكلام وتجسم المعانى:
"دخل عليه وهو فى تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقية

عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساور السود، وهو لا يطيق أعمال قدم،
ولا يريق دمعا، إلا ممزوجاً بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفي
وسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، فلما رآه بكى
وقال:

قيدى أما تعلمنى مساماً أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما
يصرنى فيك أبو هاشم فينشى والقلب قد هاشما
ارحم طفيلاً طائشاً لبه لم يخش أن يأتيك مترحما
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول فى نفسه من
المعانى، ويصف آلامه وصفاً قريباً من الحقيقة؟ واستعان على ذلك مما رآه من
البؤس وآثاره الظاهرة. فذكر حالته وما هى عليه، وذكر أولاده وما يعانونه،
ولم يلتجئ إلى الخيال ولا إلى الأحلام. ولكن شعره جميل لأن الحقائق إذا
ألبسها الشعراء دياجة الشعر أصبحت شعراً جميلاً. وليس الشعر الجميل إلا
حقائق شعرية.

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفع شأنه، فيستعذب هذه الآلام
ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد
فيستصغر كل شئ يلاقه، لأنه إنما خرج إلى القتال بهذه النفس التى يحملها
بدون أن يتحصن بشئ سوى قوة بأسه، علام بأنه سيجود بها يوماً ما فى
موقف يرى الموت فيه خيراً من الحياة. نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة.
فقال عندما أخذ أسيراً.

وما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديق
قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
والأذ من طعم الخض	مع على فمى السم النقيع
أن تستلب عنى الدنا	ملكى وتسلمنى الجموع
فانقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطب	ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصنى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي	ص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسي	ل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن	بهوى ذلى والخشوع
شم الأولى أنا منهم	والأصل تتبعه الفروع

وله فى الحنين إلى شلب وقت إن كان يرتع فى بحبوحة العيش مع
صديقه ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق، صادر عن مقروح، وقد فارقه ابن
عمار فأرسل إليه يقول:

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر	وسلمهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب عن فتى	له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم	فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها	بمخضبة الأرداف مجد به الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتي
وليل بسد النهر لهواً قطعته
نضت بردها عن غصن بان منعم
وما قاله وهو يبكي على نفسه:

قد كان كالثعبان رمحك في الورى
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه
يا سائلاً عن شأنه ومكانه
هاتيك قينته وذلك قصره
من بعد كل عزيزة رومية
تحكي الحمائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية، وحالته الحاضرة منبعاً من منابع
شعره، هو يتسلى عما ما يتذوق من الآلام. وليس فى البؤس معين غير
الشكوى ولا للمنكوب ارتياح لغير أنينه ونظره إلى أيامه الماضية، وإلى تلك
اللحظات التى كان ينعم فيها، فترتاح نفسه إلى ذكرها، فيشعر كأنه لا يزال
فى نعيمها ولذاتها. فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى فى أوقات
البؤس، يتسلى بها البائس فى محنته، فيرى أنه كان وفير الحظ فيها، وأن
الدهر يومان، فإذا كان يوم السعادة قد انقضى فإنه لا يزال يذكره. وهكذا
تتناوبه الأفكار فيستسلم للقضاء وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الأيام.

هذه حال ابن عباد فى شعره يبكى فيه ويندب حظه. كما فى قوله:

غريب بأرض المغربين أسير
وتدبه البيض الصوارم والقنا
سيبكي عليه منبر وسرير
وينهل دمع بينهن غـزير

مضى زمن والمملك مستأنس به
 وأصبح منه اليوم وهو نفور
 برأى من الدهر المضلل فاسد
 متى صلحت للصالحين دهور
 أيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
 أمامى وخلفى روضة وغدير
 بمنبتة الزيتون موروثه العلا
 تغنى قيان أو ترن طيور
 بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
 تشير الثريا نحونا ونشير
 ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
 غيورين والصب المحب غيور
 ولقد كان كل خاطر يمر به وكل
 حنينه إلى أهله، فينفق لسانه بقول الشعر الذى يمزق القلوب ويذيبها حسرة.
 ولما قتل المرابطون ابنه المأمون فى قصر قرطبة وألقوا بجسده على
 الأرض، ومالوا إلى رندة حيث ابنه الثانى الراضى وقضوا عليه، قال المعتمد
 برثيئهما، وقد رأى قمرية تنوح، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغمًا.

بكت إن رأت الفين ضمهما وكر
 مساء وقد أخنى على الفها الدهر
 وناحت فباحث واستراحت بسرها
 وما نطقت حرفًا يبوح به سر
 فمالى لا أبكى؟ أم القلب صخرة
 وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
 بكت واحدًا لم يشجها غير فقدته
 وأبكى لآلاف عد يدهم كثر
 بنى صغير أو خليل موافق
 يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحر
 ونجمان زين للزمان احتواهما
 بقرطبة النكداء أو رندة القبر
 عذرت إذ أن صن جفنى بقطرة
 وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
 نقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
 مثلها فلتحزن الأنجم الزهر

هذا بعض ما فى نفس المعتمد بن عباد، وهذا بعض شعره المنبعث من قلبه المقروح. فكان شاعراً وجدانياً، ولكن وجدانه امتزج بالحقائق وحوادث الحياة. فكان شعره جميلاً له علقه بالقلوب، لأن الوجدان والحقيقة إذا تألفا فى الشعر وامتزجا فى ساحة الخيال، أظهرها الحقيقة شعراً جميلاً، والشعر حقيقة مرئية فى ثوب خيالى جميل.

الوزير ابن عمار^(١)

كان ابن عمار فى أول أمره فقيراً خامل الذكر، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كغيره، فقصد إلى تلك السوق الرائجة، سوق الأدب، وربح فيها،

(١) هو أبو بكر بن عمار من أسرة يقولون عربية الأصل. وقد عاش إلى سنة ٤٧٩ حيث قتله المعتمد نب عباد بيده. ويظن أنه عمر ٥٠ عامًا.

تأدب على بعض علماء قرطبة ككل الأدباء. لأن رواج سوق الأدب فى تلك الأيام وسهولة مواردها كانت تحمل أمثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل. وقد أراد أن يعيش على متون القوافى ومصاريح القريض. فحمله ذلك على أن يجيد الشعر، وكان بطبعه ميالا إلى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهورى الشعراء.

وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب: فقد كان فى أول أمره يسأل بشعره ليعيش، ويفد على الكبير والصغير ويمدح الأمير والصعلوك طالبًا عطاياهم.

قالوا عنه .. أنه لم يزل يجول فى الأندلس مسترفداً لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من مدح من ملك أو سوقة، وأنه ورد فى بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق: فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض البخت، وانتهى أمره إلى أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها، فدخل فى موكب ضخمة وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين دخلها أيام أبيه المعتضد بالله. فكان أول شيء سأل عنه صاحبه. صاحب المخلاة. فقال ما صنع فلان أهو حى: قالوا نعم، فأرسل إليه بمخلاته نفسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل ملأتها برأ ملأناها تبراً.

وما زال ابن عمار على هذه الحال فى كسب الأموال، يدفعه الطمع إلى السير فى طريق الوصول إلى مراكز العظماء فشحذ من لسانه لأنه هو السلاح الوحيد لديه. حتى علا ذكره بين الشعراء، واشتهر فى عالم الأدب، ومدح المعتضد بن عباد بقصيدة=

وكان أديباً يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره، وكان من الأذكاء كثير المجون

=أعجب بها إعجاباً وجعله من أجل ذلك فى جملة شعرائه. ومنذ ذلك الوقت اندمج فى حاشية الأمراء، وخلع عن نفسه لباس البؤس. ثم اتصل بالمعتضد بالله بن المعتضد، وكان شاباً أديباً يحب الشعر ويميل إليه فأحبه المعتمد لاتفاقه معه فى الميول والأهواء وفنون الأدب والشعر والملاهى وأنواع السرور. ولما تولى المعتمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيراً له هناك وترك له الحكم والأمر والنهى، وهناك عاش مع المعتمد عيشة الأصدقاء وعيشة اللهو والطرب والمجون؛ وقد كان مجلس الأمير هناك مجتمع الأدباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو لكثرتهم؛ ولا يكاد يخلو مكان منهم وكانت مجلس الأدباء هناك كل شىء فى الحياة. فاغمر ابن عمار والمعتضد بن عباد فى السرور واللهو انغماراً. وصاروا كأنهما شخص واحد، حتى غلب ابن عمار المعتمد على أمره؛ وملك منه كل شىء، وساءت السمعة بينهما، فلما علم المعتضد بذلك فرق بينهما، ونفى ابن عمار فى أفاصى بلاد الأندلس، وما زال فى منفاه إلى أن مات المعتضد وتولى الأمر بعد أبيه المعتمد فدعا إليه ابن عمار واختص به. وامتزج به امتزاجاً لا يكون بين رجل وأقرب الناس إليه، حتى لقد كانا ينامان أحياناً على وسادة واحدة. ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سىء الظن غير مخلص فى وده. فكان يتربص من المعتضد الفتك به، رغم إخلاصه له. وقد ولاه المعتمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه إليه واستوزره، وكان معه كما كان جعفر البرمكى مع الرشيد وسلم له كل شىء فى السياسة وأمر بالدولة. حتى أنه أصبح من قواد الجيش وانتصر على الأعداء فى وقائع معروفة، وكان له حيل فى الخداع ومهارة فى التغلب على غيره. ولما رأى علو أمره خطر له أن يستبد بالملك وأن يكون ملكاً، فأراد أن يأخذ بلنسية ويملكها بعد أن فتحها ويخضع طاعة المعتمد، ونسى كل ما كان بينهما؛ ولكن لم يتمكن من ذلك. وبلغ المعتمد أمره فهرب ولجأ إلى سرقسطة. فخافه هناك بنو هود. فأخرجوه. فالتجأ إلى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المعتمد من تسلمه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بغل بين عدلى تبين وخرج الناس جميعاً لرؤيته على هذا الحال، بعد أن كان يهرع إليه الكبير والصغير لتقبيل يده. ولما مثل بين يدى المعتمد أخذ يعد أياديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلاً. ثم أمر به فدخل إشبيلية على الحال التى دخل بها قرطبة. وسجن فى غرفة فى قصر المعتمد. ومنذ هذا الحين كتب قصائده الشهيرة فى الاستعطاف حتى لان منها المعتمد ولكنه رجع عن عفوه وقتله بيده فى السجن سنة ٤٧٩ هـ.

كجميع الأدباء فى ذلك العصر فانفتح له باب آخر فى الشعر والخيال، وقال فى ذلك كما قال غيره، حتى أخذوا عليه الإمعان فى المجون، والإدمان فى الشرب، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر مآثرها.

نقمقم على الراح أدمن شربها وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد إلى الوغى سوى ومن أعطى كثيراً ولم يكد
فديتكم لم تفهموا السر إنما قليتكم جهدى فأبعدتكم جهدى
مع ذلك فقد برع فى المجون، وكان شعره فيه أصدق منه فى غير،
وأجمل ديباجة وأسلوباً لأنه صادر عن شعور صادق. وله فى ذلك خيالات
ومعان جميلة.

وقد كلف بالغناء ومجالسه، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلو
الفكاهة عذب الحديث، يهرع الأدباء إلى مجالسه ويسرون بحضوره. فقد
رووا أن بعض الكتاب اصطبح يوماً والجو مسكى العوارف، لازوردى
المطارف، والروض أنيقه لباته، رقيقة هباته، والنور مبتل، والنسيم معتقل،
ومعه قومه، وقد راقبهم يومه، وصلاته تصافح معتفيه، ومبراته تشافه
موافيه، والراح تشعشع، وماء الأمان ينشع، فكتب إلى ابن عمار وهو ضيفه:
ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت فى ودى مسراً ومعلنًا
فلو تسأل الأيام من هو مفرد بود ابن عمار لقلت لها أنا
فإن حالت الأيام بينى وبينه فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا
فلما وصلت الرقعة إليه تأخر عن الوصول، فقال أحد الحاضرين: إني
لأعجب من ابن عمار، كيف قعد عن هذا المضمار، مع ميله إلى السماع؟
فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو:

هصرت لى الآمال طيبة الجنى وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنا
والبستنى النعمى أغض من الندى واجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها فبت سميلاً للسناء ولللسنا
اعلل نفسى بالمكارم والعلى وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما تعاورت الأسماء غيرك والكنى
لأوسعتنى قولاً وطولاً كلاهما يطوف أعناقاً ويخرس ألسنا
وشرفتني من قطعة الروض بالتي تناثرت فيها الطبع ورداً وسوسنا

هذا كلام وجدانى جميل، يسوغ للنفس تذوقه، لأنه طلى العبارة،
عذب سهل فى لفظه ومعناه. مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على
ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التى ربما لم يكن للمدوح حظ فيها، بل هو
مدح ممزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة، آثار النعيم فى النفوس
وأثر النعمة على المنعم عليه. أو هو شكر يراد به المدح، أو هو نوع من
الافتتان فى المدح وأساليبه.

وكانت له خفة روح تظهر فى كلامه، وكأنه لا يبالى بما يقول، ولا
سيما إذا ذكرت الراح. فقد كان فى حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت
الكأس وتمكن الأئس، وغنيت أصوات، ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب.
فارتجل يخاطب الرشيد.

ما ضر أن قيل إسحق وموصله ها أنت أنت وذى حمص واسحق
أنت الرشيد فدع ما قد سمعت به وإن تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشة واحضر بساقيك ما قامت بن ساق

هكذا كان يفعل السرور فى رأس ابن عمار، فكان لآثره فى نفسه
وشعره شىء كثير، وكان شعره فى اللهو والغزل من أحسن ما قيل فى نوعه،
وإن كانت معانيه ككل المعانى، إلا أن له بهاء فى أسلوبه ككل الشعراء
الفنيين. ولقد يقول المعنى فيخيل إليك أنه شىء جديد. كما قال يتغزل:

قالوا أضرب بك الهوى فأحبيتهم يا حبذا وحبذا إضراره
قلى هو اختار السقام لجسمه زيا فخلوه وما يختاره
عير تمونى بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
من قد فلبى إذ تثنى قد وأقام عذرى إذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره
أما مدحه، فله أسلوب خاص فى تصور المعانى وترتيبها: يعرض صوراً
مختلفة من الأخيلة التى كانت معروفة فى الأندلس بعبارة سهلة رشيقة، كما
فى قصيدته التى مدح بها المعتضد، وهى تدل على مقدار ملكة الشعر وقوتها
فى نفسه، وإنه شاعر بفطرته. يشعر بجمال القول، ويعرف كيف يصل إلى
اقتناص المعانى الجميلة، ويضعها فى أسلوب جميل، وخيال جميل، ورقة فى
الذوق، وكأنك تقرأ كلاماً منثوراً لا شعراً منظوماً. أو كأنك تسمع نغمات
الأوتار، أو رنات القوافى أو حفيف الأشجار والنسيم يمسحها ويملقها. أو
أنك فى روض تفتحت فيه الأزهار، ومالك عليك ظلال الأشجار، أو كأنك
ترى كتاباً مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيما أعماله، أو
مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

لما استرد الليل منا العنبرا
وشيا وقلده نداه جوهرا
خجلا وتاه بأسهن معذرا
صاف أطل على رداء أخضرا
سيف ابن عباد يبدد عسكرا
والجو قد لبس الرداء الأغبرا
من ماله العلق النفيس الأخطرا
ونحاه لا يردون حتى يصدرا
وألذ في الأجفان من سنه الكرى
والطرف أجود والحسام مجوهرا
نار الوغى إلا إلى نار القرى
إن كنت شبهت المواكب أسطرا
لما سقانى من نداه الكوثر
لما سألت به الغمام الممطرا
من لا تسابقه الرياح إذا جرى
تنبوا وأيدى الخيل تعثر فى البرى
.....
عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا

والصبح قد أهدى لنا كافوره
والروض كالحسنا كساه زهره
أو كالغلام زهى بورده رياضه
روض كأن النهر فيه معصم
وتهزه الصبا فتخاله
عباد المخضر نائل كفه
علق الزمان الأخطر المهدي لنا
ملك إذا ازدحم الملوك بمورد
أندى على الأكباد من قطر الندى
يختار إذ يهب الخريدة كاعبا
قداح زند المجد لا ينفك عن
لا خلق ترى أفرى من شفار حسامه
أيقنت أنى من ذراه بجنة
وعلمت حقاً أن ربعى مخصب
من لا توازنه الجبال إذا احتبى
ماض وصدر الرمح يكهم والظبا
قاد الكتائب كالكوكب فوقهم
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً

كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
رأيته فى برديته مصورا
فقرأته فى راحتيه مفسرا
حتى حسبنا كل ترب عنبرا
حتى ظننا كل هضب قيصرا
وجنت به روض السرور منورا
أسعى بجد أو أموت فأعذرا
وحباه منه بمثل حمدى أنورا
فى الحرب إن كانت يمينك منبرا
نيلا وتقنى من عتا وتجبرا
رحباً وضمت منك طرفا أحورا
إلا اليهود وإن سمت بربرا
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
لما علمت الحسن يلبس أحمر
وفتقتها مسكاً بحمدك أذفرا
أوردته من نار فكرى مجمر
فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
وحنا عليه الطل حتى نورا

ملك يروك خلقه أو خلقه
أقسمت باسم الفضل حتى شمته
وجهلت معنى الجود حتى زرت
فاح الثرى متعطراً بشنائه
وتتوجت بالزهر صلع هضابه
هصرت يدى غصن الندى من كفه
حسبى على الصنع الذى أولاه أن
يا أيها الملك الذى حاز المنى
السيف أفصح من زياد خطبة
ما زلت تغنى من عنى لك راجياً
حتى خللت من الرياسة محجرا
شفيت بسيفك أمة لم تعتقد
أثمرت رمحك من رءوس كماتهم
وصبغت دوعك من دماء ملوكهم
بمقتها وشيا بذكرك مذهباً
من ذا ينافحنى وذكرك صندل
لئن وجدت نسيم حمدى عاطرا
وإليها كالروض زارته الصبا

وكان ابن عمار يتخذ الشعر للتعبير عن كل شيء، فلم تكن تمر به
حادثة من الحوادث إلا ذكرها في شعره. فكان إذا أراد أن يكتب للمعتمد
كتب له شعراً، وإذا أراد أن يشكو، شكا في شعره، وإذا أراد أن يذكر خبراً
ذكره في شعره. وكأما كان شعره صحيفة من صحفه اليومية.

ويخيل إلى من يقرأ كلامه أن المعاني كانت تنهال عليه انهياراً، أو أن
الشعر صقل لسانه وتمكن منه، حتى أصبح لا يقول إلا شعراً، أو لا يقدر
على التعبير إلا بنظم المعاني، أو أن الشعر عنده كالنثر في سهولة التعبير.
وأكثره خال من الخيالات الشعرية، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به
جمال الشعر: وهو امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة، وإعجاب الإنسان
بزلاقة لسانه وتناسق ديباجته. إذ ليس كل شعر خيالاً، وليست بهجة الشعر
وصناعته محصورة في الخيال: من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز
غريب. فقد يكون الشعر معرفة التعبير عما في النفس وكشف ما بها.
وحسب الشاعر أن يصل بعبارته إلى امتلاك الأسماع وإعجاب النفوس بقوله.
وليس الشعر غير ذلك. كقوله:

أأسلك قصداً أم أعوج عن الركب	فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدري أفي البعد راحتي	فأجعله حظي أم الحظ في القرب
إذا انقدت في أمرى مشيت مع الهوى	وإن أتعبه نكصت على عقبي
على أنني أدري بأنك مؤثر	على كل حال ما يرحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمي	وأرجوك للحب الذى لك قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى	وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه
وما جئت شيئاً فيه بنى لطالب
سوى أننى أسلمتني لمامة
وما أغرب الأيام فيما قضت به
أما أنه لولا عوارفك التى
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى
سأستمح الرحمى لديك ضراعة
وكان لآلامه أثر عظيم فى شعره، فكانت قصائده فى استعطاف المعتمد
وسيلة من وسائل التعبير عن كل آرائه وخطرات نفسه. وليس أرق فى كلامه
من استعطافه، ولا أشد أثراً فى النفس من كلامه حين تضيق فى وجهه الدنيا
على رحبها. فمن ذلك قوله للمعتمد:

سجايك إن عافيت أندى وأسمح
وإن كان بين الخطتين مزية
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
نعم لى ذنب غير أن لحمه
وإن رجائى إن عندك غير ما
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد
وعذرک إن عاقبت أجلى وأوضح
فأنت إلى الأدنى من الله أجرح
عدائى وإن أثنوا على وأفصحوا
سوى أن ذنبى واضح متصحح
صفات يزل الذنب عنا فيسفع
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
يكر إن فى ليل الخطايا فيصبح
أما تفسد الأعمال نمت تصلح

أقلنى بما بينى وبينك من رضا
وعف على آثار جرم جنبته
ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم
وما ذاك إلا ما علمت فإئني
وقالوا سيجزيه فلان بفعله
ألا إن بطشا للمؤيد يتقى
وبين ضلوعى من هواه تيممة
سلام عليه كيف درا به الهوى
ويهنيه إن مت السلو فإئني
وقال يصف سجنه لصديق له وكأنما هى أنة من أئينه، ولوعة من
لوعاته، وهى من الشعر المطبوع:

أدرك أخاك ولو بقافية
فلقد تقاذفت الركاب به
طفحت صحابته بلا سنة
بمعارج أدت إلى جرد
عال كأذن الجن إذا مردت
وحش تناكرت الوجوه به
قصر تمهد بين خافقتى
متحير سال الوقار على

كالظل يوقظ نائم الزهر
فى غير مرماة ولا بحر
وتساقطوا سكرًا بلا خمر
حتى من الأنواء والقطر
جعلته مرقاة إلى النسر
حتى استربت بصفحة البدر
نسرين من فلك ومن وكر
عطفية من كبر ومن كبر

ملكت عنان الريح راحتته فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فإن يهمل فقد أبلت فى العذر
وصلت خدمة قاطع سببى وأطعت أمر مضيع أمرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر مستأثراً بالحمد والشكر
وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول .

هذا شىء عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية، يمكن
بها معرفة ما فى شعره من الرقة والمعانى الوجدانية، وما له من السهولة فى
الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعانى الجدية أو الفلسفية أو الاجتماعية،
فقد قصر كلامه على الوجدانيات فى شكواه وبث آلامه، فليس هو من
الشعراء المفكرين، ولا ممن كان للتربية العلمية أثر فى نفوسهم، وكأنه لم
يطلع على شىء سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء . حتى امتلأت نفسه من
ذلك، ومال إلى قول الشعر . فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين .

عبد الجليل بن وهبون^(١)

عاش عبد الجليل بن وهبون فى حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الأحوال التى مر بها ابن عمار وغيره. من مجون ولهو وطرب، فكان له نصيب فى ذلك. وقالوا عنه ما قالوا فى غيره من حب اللهو والميل إلى الغلمان. وذكروا له شعراً كثيراً فى ذلك. وكأن كل نفسه كانت منصرفة

(١) لم نقف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته. ولكن عرف عصره الذى عاش فيه ووفاته الذين عاشهم.

عاش ابن وهبون فى عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين فى حضرته، وصديقاً للوزير ابن عمار. فهو إذًا من أهل القرن الخامس الهجرى ويقولون أنه توفى فى أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣. هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بإشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت فى أوجها، وسوق الأدب والعلم رائجة. وكان من أصحاب الرحلات والنقلة، يفد على الملوك والأمراء مع غيره فى نفسه. فقد اجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتصم بن صمادح فاهتز له وعرض عليه مالا وافراً فلم يقبل وكان اليوم عيداً فقال:

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى وركن المعالى من ذوائبه يعرب

فيا أسفا للشعر ترمى جماره ويا بعد ما بينى وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه. وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم إشبيلية قصد الأستاذ الأعلام مؤدب ابن عباد. وكان فى نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شىء من الرقة، وعلق آمالاً كثيرة على ذلك، وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلهم الأستاذ الأعلام، وقالوا أنه عرض فى هذه القصيدة به، فعرضها على ابن وهبون أمر الرد عليها. فقال فى ذلك قصيدة سمعها فجن بها وطار بذكره، وأعجب به، ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم يرحل إلى ملك سواه، وبقي فى حضرة المعتمد. ولما بدت الفتنة هناك خرج هارباً ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم.

لهذا، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون في هذه البيئة لأنه عاش فيها، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال. ولكنه مزج بين الجسد والهزل في شعره. فتراه تارة خليعاً ماجناً، حلو الكلام عذب العبارة، منغمساً في ملاذه ومسراته انغماس الرجل الذى تسيره أهواؤه، وكأنه لا ينظر إلى الدنيا، وما فيها غير نظر الماجنين، فإذا أتعبتك خفة روحه، وأفعمت نفسك سروراً من خلاعته ومجونه، ونظرت نظرة أخرى إلى شعره، رأيت ينابيع الحكمة تنفجر من غضونه، وظننت أنك تقرأ فى كتاب حكمة وفلسفة، لا فى ديوان شعر وخيال، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم، بلسان عربى مبين، أو أنه نفحة من نفحات المعرى، أو حكمة من حكم المتنبى.

لم يترب ابن وهبون^(١) تربية خاصة، ولم يعيش عيشة غير عيشة من كان معهم. ولكن آراءه ليست كآراء غيره ممن عاشوا معه، بل ذلك شىء غير معروف عند أكثر شعراء الأندلس. فقد عهدنا الأندلسيين برعوا فى نوع

(١) فمما رووا عنه أن ركب بإشبيلية زورقاً فى ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل

بيده شمعتان. فقال بن وهبون فى ذلك:

أعجب بمنظر ليلة ليلاء	تحيا بها اللذات فوق الماء
فى زورق يزهى بغرة أغيد	يختال مثل البانة العيناء
قرنت يده الشمعتين بوجهه	كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاح تحت الماء ضوء جبينه	كالبرق يخفق فى غمام سماء

وقال فى فتى وقد تأبطه وزير جميل:

يا هلال استتر بوجهك عنى	إن ملوك قابض بشمالى
هبك تحكى سناه خيراً بخير	قم بجئنى لقده بمثال

وقال متغزلاً وقد أبدع إبداع المغرمين الفنين:

زعموا الغزال حكاة لهم نعم	فى صدره من عاشقيه وهجره
وكذا يقولون المدام كريقه	يارب ما علموا مذاقه ثغره

جميل من الخيال ورقة الأسلوب وجزالة اللفظ، والأوصاف التي دعتهم إليها آثار تلك المدنية الحديثة ولم يعهد لها شعراء العرب. أم ابن وهبون فقد برع في نوع آخر وهو الشعر الفلسفي على أنه لم يقصر في ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق في هذا الميدان ميدان الخيال. حتى رموه بالمجون أكثر من غيره، وقالوا أن ذلك من شأنه. ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين. وفي الحق إن ذلك لم يكن ناشئاً من تربية فكرية أو إطلاء واسع على علوم الدين والفلسفة، ولكنه كان ذكياً مفكراً، وشاعراً صافى القريحة، قادراً على نظم المعاني نظماً شعرياً. ولا بد أن يكون قرأ كثيراً من شعر المتنبي وأبي العلاء فأخذ يعارضهم في أساليبهم، أو يجاريهم فيا كانوا ينظمون من المعاني والموضوعات، مع بلاغة عبارته. كما قال:

نفسى وجسمى إن وضعتهما معاً	آل يذوب وصخرة خلقاء
لو تعلم الأجيال كيف مآلها	عامى لما امتسكت لها أرجاء
أنا لنعلم ما يراد بنا فلم	تعييا القلوب وتغلب الأهواء
طيف المنايا في أساليب المنى	على طريق الصحة إلا دواء
تتعاقب الأضداد مما قد ترى	جلبت عليك الحكمة الشنعاء
ماذا على ابن الموت من أبصاره	ولقائه هل عقت الأبناء
أبغرنى أن يستطيل بى المدى	وأنا بحيث تواطت الغبراء
لم ينكر الإنسان ما هو ثابت	فى طبعه لو صحت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته	أن تستوى من حسنه الأعضاء

هذه فلسفة منظومة. وإذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك

لمعانيه وما فيه من الآراء التى تجذب النفوس إليها، كما يجذبها الخيال،
والبلاغة الساحرة، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضاً.

ولكن الأدباء لم يفهموا هذا النوع من الشعر، بل لا يقولون إنه من
باب الشعر. وقد ظنوا أن الشاعر الذى يحوم حول هذه المعانى إنما دفعه
العجز إلى ورودها، ورماء إليها ضيق التصور وجفاف الفكر^(١).

قال ابن وهبون هذه القصيدة فى رثاء أبى الحجاج الأعلم، وأتمها فى
مدحه. ورثاؤه يشبه فى جملة رثاء أبى العلاء من حيث معانيه. وقد يكون
قرأ شعر أبى العلاء أو المتنبى. ولكن مهما كانت الحال فليس إدراك ابن
وهبون كإدراك غيره من الشعراء. وإن كان جاراهم فى أساليبهم الشعرية، فإن
له ميزة ظاهرة فى المدح نفسه الذى هو شكل معروف وطابع اتفق عليه فى
الأدب والخيال، من تعداد الفضائل والأوصاف الكريمة كما قال من قصيدة
فى مدح ابن عمار قال:

قتلت بنى الأيام خيراً فباطنى مشيب وما يبدو على شباب
ولما رأيت الزور فى الناس فاشياً تخيل لى أن الشباب خضاب

(١) قال صاحب الذخيرة فى ذلك:

وهذا معنى فلسفى قلما عرج عليه عربى، إنما فرغ إليه المحدثون من الشعراء حين
ضاق عنهم منهج الصواب، وعدموا رونق كلام الأعراب، فأسر إلى هذا الهذيان إسراع
الجبان إلى تنقص أقرانه. واستجادة سيفه وسنانه. وقد قال بعض أهل النقد أنه عجيب
فى الشعر والنثر أن يأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بالفاظ الفلاسفة
القدماء. وإنى لأعجب من أبى الطيب على نفسه، وذكاء قبسه، فإنه أطال قرع هذا
الباب والتمرس بهذه الأسباب، وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال إليه إيضاعه، حتى
قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من شر سماعه.

وآليت لولا ملك لخم محمد
ولولا ابن عمار وفاضل سعيه
وما كان يؤتى الأمن من حيث يلتقى
ولا أحرقت أرض العدو صواعق
وما كان هرون أصح وزارة
نهوض ولو أن الأسنة مركب
مضى مثل ما يمضى القضاء وهزه
كما اقترنت بالبدر شمس منيرة
أنافت به فوق السما كين همة
فلفظته يوم المباهاة خطبة
له سنه فى الجد والهزل مثلما
وقد نزع أيضاً فى بعض شعره نزعاً أبى العلاء والمتنبى فى الفخر بنفسه
ومدحها، لأن تلك كانت الطريقة الجديدة أو بدعة الشعر فى ذم الناس
والفخر بالنفس كقول المتنبي.

الخليل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وقول المعرى:

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً
تجاهلت حتى ظن أنى جاهل

(١) كذا فى الأصل.

فقد قال ابن وهبون:

أتخفى على الأيام غر مناقبى وقد بذ شأوى شأو كل نقاب
ويركبنى رسم الخمول وقد غدت خصال العلى والمجد طوع ركابى
سأرمى بهماتى قصارى مراتبى وإن كان أدناها يطيل طلابى
لتعلم أطراف الأسنة أننى كفيل بها عند الصدى بشارب
وتشهد أطراف اليراعات أننى بهن مصيب فصل كل خطاب
وليس نديمى غير أبيض صارم وليس سميرى غير شخص كتاب
مضمخة لا بالخلق أناملى مزعفرة لا بالعبير حرابى
ولكن بنفح يخجل الروض زاهراً ولكن بدعس فى كلى ورقاب

وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبي وأسلوبه فينسج على منواله، حتى
لقد يخيل إليك أنك تقرأ أشعر المتنبي وقوافيه. ولعل ذلك كان من ضروب
التقليد والمحاكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار. ولكنه يدل على ميل ابن
وهبون إلى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجدية، والبحث فى بعض أحوال
الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها، وإظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع
فى الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول. كما قال:

أطلت فى الدهر تصعيدى وتصويى ودهر ذى اللب مضمار التجارب
ورب آخر لا يهدى إلى فمه أصاب غرة مأمول ومرغوب
وآفتى أدب باد فضيلته من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى حظ ومخبرتى تكفى وتجربى

وقد أرى صوراً فى الناس مائلة
أشيمها بين تحقيق وتكذيب
لما ملأت يدى منهم لأخبرهم
نفضت كفى بأشباه اليعاسيب
بيض وجوههم سود ضمائرهم
فما حصلت على عرب ولا نوب
الصدق أولى بمن يبدى ضغيتته
لا تجعل الصدق من نعت الأصاحب

مع هذا فكان ابن وهبون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى
وكلام صادر من غير شعور. وذلك لتمكن ملكة الشعر منه واحتياجه إلى هذه
المجاراة. ولكن ذلك لم يكن يخلو من نظراته وملاحظاتة، مما يدل على أنه
كان كثير التفكير. ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعباراته الشعرية مع شىء
من التهكم، فتجد كل ذلك جميلاً، كما قال وقد وقفت مرتبه عند العامل.

ألستم معشر الأملاك طائفة
تقضى بتخليدها هذى الأناشيد
فإن نقصتم أناساً من نوالكم
فحق منكم لأهل الشعر تزويد
لكم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا
فإنما نحن تحميد وتمجيد
يا صاحب المجد إن المجد سائمة
تضل إذا لم يكن بالشعر تقييد
خذنى بما شئت نم غراء شاردة
يصغى الأصم إليها وهو مفئود
واعذر بتقصيرها من لا يزال له
فى ساقه الرزق ارقال وتوخيد
لا يدرك القوت مما أنت واهبه
حتى يطول من العمال تنكيد
وليس للشعر إلا خاطر يقظ
يهزه منك ترفيد وتأييد
وما المدائح إلا بالملوك وهل
يبدى سنا العقد إلا النحر والجيد

وكما قال:

قل للرشيد وقد هبت نوافحه
أشكو لديك الندى من حيث أحماه
يا قاتل الشكر بالإحسان يغمره
عجبت من كرم فى راحتك بدا
أثرت عندك من جاء من نشب
يا واحداً تقتضى آلاؤه جملاً
للناس بعدك فى العليا منازلهم
وبرع فى الوصف وفى كل ما قال فيه، فقد وصف قصراً بقصيدة طويلة
جيدة المعنى، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سرداً بدون
فكر. قال فى هذه القصيدة:

وللزاهى الكمال سنا وحسنا
يحاط بشكله عرضاً وطولا
تواصلت المحاسن فيه شتى
وقدر مثل ركز الطود ثبت
تدافع من جوانبه ائتلافاً
فلو أدنوا حرام السحر منه
سماء ترمى بعباب تبر
كما وسع الجلالة والكمالا
ولكن لا يحاط به جمالا
فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
ومختال من الحسن اختيالا
يكاد المستبين يقول مالا
لأضحى يعبد السحر الحلالا
كأن بها أكاما أو تلالا

فقد كاد اللبيب يهاب منه ويحسب أن بحر الجو سالا
فما أبقى شهاباً لم يصب ولا شمساً تنير ولا هلالاً
ومنها فى الحكم:

تزاحمت الهموم خلال صدرى فما تركت لأنفاسى مجالا
وما خلت الزمان يكون ثقلا ولا نفحاته تأتى وبالا
كأنى كلما استنشقت منه أرد به إلى كبدى نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبى إذا كان الإباء له نكالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون. وهو وإن لم يكن من الشعراء المعروفين بكثرة الكلام، فإن شعره صورة من صور الأدب فى الأندلس القليلة المثال. بل هو من الشعراء الذى كانوا يحاولون الانتقال بالشعر من الخيال الصرف إلى المعانى العامة. أو إلى نوع من فلسفة التفكير التى تدل على أن حسن الديباجة وجمال الأسلوب يجعلان الفلسفة شعراً، والتفكير العميق فى باب الخيال الجميل.

ابن حمديس الصقلي^(١)

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرماندين، الذين لم يكد تطأ أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل، وأذاقوهم العذاب الأليم، وحمولهم على ترك دينهم، وفتكوا بأعراضهم، وأذلّوهم وأهانوهم فى شرفهم. فشهد ابن حمديس، ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف، وينقض عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول.

لذلك أثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه وخياله الشعرى وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث.

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بإشبيلية، وعاش فى حاشية المعتمد بن عباد وصار فى جملة شعرائه، وتبعه فى منفاه. ولم يكن ابن حمديس معروفاً عند قدومه إلى إشبيلية. فقد قال:

"أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى، ولا يعأبى، حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى.

(١) ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلي سنة ٤٤٧هـ فى جزيرة صقلية وفى سنة ٤٧١هـ هاجر إلى أسبانيا وعاش فى إشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة.

فأنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذ بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فنك^(١)، وقال لى افتح الطاق التى تليك ففتحتها، وإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، فحين تأملتها. قال لى أجز.

انظرهما فى الظلام قد نجما. فقلت: كما رنا فى الدجنة الأسد.
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها. فقلت: فعل امرئ فى جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة. فقلت: وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته^(٢).

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الأيام. وأذاقته مرها قبل حلوها. فثقلت عليه الحياة. ولوت من ظهره بعد أن أخرجته من وطنه وليس له إلا لسانه وخياله. وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم. فلما اضطر إلى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه، وأظلمت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملذات أو التظاهر بالمسرات. ولقد يلمح الإنسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخمريات والمدح والوصف.

وأما عقله فكان ميالا إلى إدراك الأشياء والمعانى إدراك من يحاول فهم ما يرى ويفكر. فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات،

(١) دابة فروتها أطيّب أنواع الفراء.

(٢) نفح الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦.

والمعقولات بالمحسوسات. وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الإدراك. وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه إلى وصف المراتب وإدراكها. ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى إلى آخر، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبة. أما قوته الشعرية التى بها تكوين هذه الأشياء وضعها فى أسلوب خيالى جميل فتابعه لنفسه وعقله، وأكثر اعتماده فى ذلك على ما يكتسبه من التأثير بظواهر الأشياء وما فيها من التشابه بالجمال.

ذلك أسلوبه فى شعره أو أن هذه هى صفات شعره: يشكو الزمان ونصيب الحر منه وكثرة نوبه، ويأتى فى خلال ذلك بعبارات شعرة جميلة تدعو القارئ إلى الشعور بما يشعر به هو.

وعلى الرغم من صبغته الجدية فى شعره، فإن كثرة كلامه فى الخمر ومجالسه والعشق وآثاره، تدل على أنه كان يميل إلى شىء من المجون، ولكنه كان أقل من غيره فى ذلك فإن الإنسان لا يكاد يرى للتهتك أثراً فى كلامه. ولولا أنه عاش فى هذا العصر وفى حاشية المعتمد بن عباد، لقلنا أنه كان بعيداً عن اللهو والمجون، ولحملنا شعره الذى جاء فى هذا على نوع من الصناعة والخيال، إذ أننا نجده فى كثير من شعره يميل إلى الكلام فى المواعظ والعبر، أو إلى بعض الآراء التى تدل على أنه كثيراً ما كان يدفعه الفكر إلى خوض المعنى النفسية أو الخواطر الفلسفية، ويمزج هذه الأفكار ويصوغها فى أنواع شعره. ويظهر من شعره أنه أنضج من غيره وأكثر تأثراً بالمعانى الاجتماعية من سواه. ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر فى الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً وصافاً كما هو معروف عنه. ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية.

وقد أبدع فى هذا الشعر الجدى المملوء بالعبر والحكم . كما دل على أنه مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتغال شعره على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية ، والآلام التى يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ، كما يظهر آلام العاشق الشاعر آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً ناقماً على الحياة وما فيها . كما قال :

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب	أو قال حسبي من إخمالات ذى حسب
لا يلحظ الحر إلا مثلما وقعت	على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه	يخوضها كل حين جحفل النوب
إن الزمان بما قاسيت شيبى	ولم أشيبه . هذا والزمان أبى
ولو خلا الدهر ذو الأنباء من عجب	أكثرت منه ومن أنبائه عجبى
قرأت وحدى على دهرى غرائب	فما أعاشر قوماً غير مغترب
أحلت عزمى على همى فقطعه	كأن عزمى على صمصامتى الذرب
ما قر بى السير فى سهل ولا جبل	إلا كما قر جارى الماء فى صلب
ولم أضق فى السرى ذرعاً بمعضلة	قد زاحمتنى حتى ضاق مضطربى
وترتقى حر أنفاسى فابعثه	برداً وإن كان مستبقى من اللهب
وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد	وإن تبطن داء قابل الوصب

ولقد تنقبض نفسه فتحرك حركة البائس الذى ينظر إلى الأيام نظر الحاقد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه واقف على أبواب

الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو فى حالة كآبة نفسه متأثرة
بهذه الخواطر. كما قال:

وعظت بلمتك الشائبة	وفقد شيبك الزاهية
وسبعين عاماً ترى شمسها	بعينك طالعة غاربة
فويحك عل عبرت ساعة	ونفسك عن زلة راغبة
فرغت لصنعك مالا يقيك	كأنك عاملة ناصبة
وغرتك دنياك إذ فوضت	إليك أمانيتها الكاذبة
أصاحبه خلتها؟ أنها	بإحداثها بثت الصاحبة
أما سلبت منك برد الشباب	فهل يسترد من السالبة
وإن دقائق ساعاتها	لعمرك آكلة شاربة
وإن المنية من نحوها	عليك بإظفارها واثبة
ألم ترها بحصاة الردى	لكل حميم لها حاصبة
كأن لنفسك مغنيطسا	غدت للذنوب به جاذبة
فيا حاضراً أبداً ذنبه	وتوبته أبداً غائبة
أذب منك قلباً تجارى به	سواكب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا	وأتعب إثباته كاتبه
عسى الله يدر أعنك العقاب	وإلا فقد ذمت العقاب

وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره
صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً فى الشعر العربى: تلك الصبغة هى محاولة

الخروج من الوجدانيات التى هى أكبر الشعر العربى ، إلى الكلام عما يجول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعترية من حيرة وشك ويقين ، وكراهة للوجود أحياناً ، وميل إلى البقاء تارة . ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الإنسان من رؤيتها وتلك بوصف أوقات الأُنس ولحظات السرور ، من حسن الذكرى ووصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره فى النفس وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها .

فهو فى كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله فى كل كلامه ، وتشع بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التى هى أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعرى . وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لإنسان كان من أكبر الشعراء ، فإذا كانت حاسته النفسية التى هى رقة شعوره قوية أيضاً كان فى مقدمة الشعراء . كل ذلك فى شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسى فى مقدمة شعراء العرب المفكرين . بين فى شعره ما تنطوى عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته إنساناً أمثاله كثيرون . وإذا كان كثير التفكير فى ظلمات الحياة ووجوهها العابسة وميالا إلى التأمل فى ذلك أكثر من التفكير والنظر فى وجوهها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؛ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه إدراكه ، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه فى غير قبضة أهله من الأسباب التى أثرت فى نفسه واستولت على

عواطفه . فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحى باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن فى ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل إلى أمثال أفكار المتصوفة فى لوم أنفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً ، عاطفة للندم أو توبيخ النفس ، فىرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكى على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعرى وأرقة فى هذا الأئين . حيث يقول :

يا ذنوبى ثقلت والله ظهرى	بان عذرى فكيف يقبل عذرى
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلى وهجرى
ثقلت خطوتى وفودى تفرى	غيب الليل فيه من نور فجرى
رب موت السكون فى حركاتى	وخبأ فى رماده حمر جمرى
وأنا حيث سرت أكل رزقى	غير أن الزمان يأكل عمرى
كلما مر منه وقت بربح	من حياتى وجدت فى الربح خسرى
يا رفيقاً بعبده ومحيطاً	علمه باختلاف سرى جهرى
هل بقلى إلى الصلاح فسادى	منه وأجبر برأفة منك كسرى
وأجرنى بما جناه لسانى	وتناجت به وسأوس فكرى
أو كقوله وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف ، ولكنه مع ذلك شاعر جميل القول :	

كملت لى الخمسون والخمس	ووقعت فى مرض له نكس
ووجدت بالأضداد من جسدى	غصناً يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما	لحظ الهصور جآذر خنس

وأبيض من فودی من شعری
والعمر یذبل فی منابته
وحف كأن سواده النفس
غرس ویلبس نضرة غرس
إلى أن قال:

وأقل ما یبقى الجدار إذا
یارب إن النار عاتبة
ما انهـد تحت بنائه الأس
ولكل سامعه لها حس
لا تجعل جسدی لها حصبا
فیه تحرق منی النفس
وارفق بعبد لحظة جزع
يوم الحساب ونطقه همس
وكقوله فی الشکوى:

أسـمـنى الدهر للرزایا
وكنـت أمـشى ولست أعیا
وغير الحادثات قفشی
فصرت أعیا ولست أمشى
كأننى إذ كبرت نسر
یطعمه فرخه بعش
ومن دعاياته فى ذلك:

نومى على ظهر الفراش منغص
من عاديات كالذئاب تذاءبت
والليل فیه زیادة لا تنقص
وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمی خمراً تداوم شربها
مسترخصات منه مالا یرخص
فترى البعوض مغنياً برابة
والبق تشرب والبراغيث ترقص
وكانت تثور نفسه ثوراً وتغلى غلیان الرجل فتتطق بالشعر وكأنه زاهد
فى صومعة. أو ناسك فى دیر أو تقى من كبار التقاة. فىقول:

بيتك فيه مصرعك	وفى الضريح مضجعك
غرتك دنياك التى	لها شراب يخدعك
همت بحب فارك	وقلما تمتعك
يضررك الحرص بها	والزهد فيها ينفعك
لا تأمن منية	إن عصاها تقررعك
مغربك القبر الذى	يكون منه مطلعك
إن فرققت تربة	فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف	أهواله تروعك
كم جر ما أشققت من	لمسك منه إصبعك
فكيف بالنار التى	من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا	ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن	لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات فى ذكر أيامه الماضية، فيذكر كل ما يخطر بباله، ويسطر الماضى كما يسطر الكاتب مذكراته فى كتاب، أو كما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله. وهو يخرج من معنى ليدخل فى معنى آخر بين جد وهزل، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر، وكأنما تمر أمام القارئ سلسلة حوادث، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها. قال فى إحدى هذه القصائد:

قضت فى الصبا النفس أوطارها وأبلغها الشيب إنذارها

نعم وأجملت قداح الهوى
 وما غرس الدهر فى تربة
 فأفريت فى الحرب آلاتها
 كميتا لها مرح بالفتى
 تناولها الكوب من دنها
 وساقية زررت كفها
 تدير بيـاقـوتة درة
 وفتيان صدق كزهر النجوم
 يديرون راحا تفيض الكؤوس
 عليها فقسمن أعشارها
 غراساً ولم يجن أثمارها
 وأعددت للسلم أوزارها
 إذا حث باللهـو أدوارها
 فتحسبه كان مضمارها
 على عنق الظبى أزارها
 فتغمس فى مائها نارها
 كرام النجائر أحرارها
 على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ فى وصف دير وصاحبة هذا الدير ما عندها من خمر، وأبدع
 فى وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخيالات غريبة. ووصف ملهى من
 الملاهى وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكيه حكاية، وكأنك
 جالس فى ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد
 تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه. قال:

وراهبة أغلقت ديرها
 هدانا إليها شذى قهوة
 طرحت بميزانها درهمى
 تفرس فى شمها طيبها
 فتى دارس الخمر حى درى
 فكنا مع الليل زوارها
 تذيع لأنفك أسرارها
 فاجرت من الدن دينارها
 مجيد الفراسة فاختارها
 عصير الخمر وأعصارها

يعد لما شئت من قهوة
وعدنا إلى هالة اطلعت
يرى ملك اللهو فيها الهموم
وقد سكنت حركات الأسى
فهذى تعانق لى عودها
وراقصة لقطت رجلها
وقضب من الشمع مصفرة
كأن لها عمداً صففت
إلى أن قال:

ذكرت صقلية والأسى
ومنزلة للتصايبى خلت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكا
يهيج للنفس تدكارها
وكان بنو الظرف عمارها
فأنى أحدث أخبارها
ء حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكرت صبره على ذلك، وذكر غربته،
وهجر وطنه، وإن ذلك كان من أكبر محنه. ثم ذكر شكاته من الناس وهو
يضرّب الأمثال فى أثناء ذلك، وفيما لاقى من الأهوال بانفراده فى عزله حتى
عن خيال كان يزوره. ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضلها الجم وذكر
لياليه الماضية، وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الأعداء عليها وأخذ
يصف أهل بلده، وما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب

بأفضل وأجمل ما يصف شاعر قومًا يعتز بهم، ويشرف بالائتمان إليهم.
وختم كلامه بالحنين إلى وطنه، والبكاء على أهله. فقال:

تدرعت صبرى جنة للنوائب	فإن لم تسالم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم	ورضت شموساً لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة	إذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة	وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
بيت رياش العضب فى ثنى ساعدى	معارضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مثلما	مضاربة يوم الوغى فى الضرائب
فكنت وفدى فى الصبا مثل قده	عهدت إليه أن منه مكاسبى
فإن تك لى فى المشر فى مآرب	فكم فى عصى موسى له من مآرب

ثم أخذ يتكلم عما فى نفسه من ذكرى الحوادث الماضية، وخيانة الناس والأيام، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت بها معانيه ويجسمها للقراء. ولم يخرج فى مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض فى بعض العبارات، وذكر الركب والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزالها. كقوله:

أتحسبنى أنسى وما زلت ذاكرًا	خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغذى بأخلاقى صغيراً ولم تكن	ضرائبه الأخلاف ضرائبى
ويارب نبت تعثره مرارة	وقد كان يسقى عذب ماء السحاب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها	وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسبابى بقطع السباب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
وعجيب تلك العادة التى ابتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحاً
يخجل منه القارئ. فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء؟ هل هذا
من الأساليب الشعرية؟ لعله من وسائل التسلية، على ما فيه من المبالغة
والتغنى بمدح النفس. ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فإنها بدعة عجيبة
فى الشعر العربى وأسلوب غريب.

وبينما الشاعر يكيل لنفسه كيلاً، ولا يقنع بشىء منه تراه فاجأك بذكر
الخمر ووصفها ومدحها. وإنك لتكاد تشمل من ذلك، وإذا هو ينتقل إلى
الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله. فيقول:

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب جلا من طلوعى بين زهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطقى تصخ فى مقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لا دسة الراح والصبأ له من يدى الأيام غير سواب
معتقة دع ذكر أحقاب عمرها فقد ملئت منها أنامل حاسب
إذا خاض منها الماء فى مضم الحشا بدا الدر منها بين طاف وراسب
ولو أن أرضى حرة لأتيتها بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها من الأسر فى أيدى العلوج الغواصب

إلا فى ضمان الله دار بنوطس ودرت عليها معصرات الهواضب
 أمثلها فى خاطرى كل ساعة وأمرى لها قطر الدموع السواكب
 أحن حنين النيب للموطن الذى مغانى غوانيه إليه جواذبى
 ومن يك أبقى قلبه رسم منزل تمنى له بالجسم أوبة آتب

هاذ خلط فى تركيب القصيدة، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب،
 فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجميل. على أن هذا شاعر عرف
 كيف يتكلم عن شعور، وكيف يطيع نفسه حين تدفعه إلى الكلام ليصور
 خفاياها ويبين مكنونها.

وله فى الوصف براعة معروفة، واستحضار عجيب لصور الأشياء
 والتشبهات، ودقة فى جمع الأشياء وتنسيقها، كأنما تراه يجمعها وينسقها
 بيده، أو كأنه يغوص على المعنى الخفى فيأتى به ويضعه فى موضعه. ولقد
 يتكلف أحياناً جمع هذه المعانى، حتى كأن كل كلمة اختطفت من مكانها
 لتوضع فى مكان آخر. ولكنك تراها كالعقد يؤخذ من عنق الحساء إلى عنق
 الغانية، فلا يفقد قيمته ولا نضارته وكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما
 يصف وتحس ما يقول^(١): لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب. لا يكاد يشعر

(١) كما فى قوله يصف شمعة

قناة من الشمع مركوزة	لها حرية طبعة من لهب
تحرق بالنار أحشاها	فتدمع مقلتها بالذهب
تمشى لنا نورها فى الدجى	كما يتمشى الرضى فى الغضب
عجبت لأكلة جسمها	بروح تشاركها فى العطب

وكما قال يصف ساقيه:

وساقيه تسقى الندامى بمدى	كؤوسا من الصهباء طاغية السكر =

بشيء إلا ذكره فى شعره، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءاً بذلك، أو كأن هذه كانت كل حياته، لذلك كان يقول فى المعنى الطريف، كما يقول فى المعنى المبتذل، ولكن الابتذال يضيع أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته.

ولا تكاد تقف له على غور فى الوصف، ولا على أسلوب واحد، لأنه يميل إلى الاختراع: ويصف الصيد والليل، ويذكر رفاقه، ثم يعرج على السرور والكلام فى الخمر، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها، ويصف طلوع الصبح. ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها. وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً، أكثر منه خيالياً كأنما يرسم ما يرى. كما قال:

وليلة حالكه الإزار	مدت جناحاً كسواد القار
تجب عنا غرة النهار	عقرت فيها الهم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار	فى مجلس ضم بنى الفخار
كهالة تضحك عن أقمار	تزاحمت بأنجم درارى
من كل نمر فى حمى الذمار	مهين مال ومعز جار
يسقون من ساطعة الأنوار	كثيرة الأسماء والأعمار

إلى أن قال:

=يعود فيها كل جام كأنما	تضمن روح الشمس فى جسد البدر
إذا قصدت منا نديماً زجاجة	تناولها رفقاً بأنملة العشر
ويرسلها فى مائها فيعيدها	إلى راحتى ساق على حكمه تجرى

قمنا لتنقى عرض الخمار عن جوهر الأنفس فى الصحارى
بكل طرف سهلب مطار^(١) موجة الإقبال والأدبار
إلى أن قال:

فمر بى غيم من الغبار يشكل فيه أحرف الآثار
كأنما يطلبه بثأر ماذا يريد الطبى بالفرار
يحذفه بير مع صغار حذف المولى باليد اليسار
فمن ابن ربح فى قميص نار وهو مع الإجهاد والإضرار
فلو ترانا فى انتزاع الدار فى روضة كالغادة المعطار
نأكل من صيد أبى العقار ونشرب الصهباء بالكبار

ما كنت إلا خالع العذار

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه، فتجده ينسى أحياناً نفسه المظلمة،
ويكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله، ويذكر العبارات التى تدعو
إلى الخوض فى غماره، وإلى انتهاز هذه الأوقات حتى يعد فوات الشباب
الذى يبكى عليه، بما يكون أرق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء،
ويسلى نفسه بهذا الكلام، ووصف هذه المجالس، ثم يرجع على نفسه بالعبرة
والعظة أو تعود إليه نفسه المتشابة أثناء هذا الهرج والمرج فيفوق من ثورة سروره
ومجونه، ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام، وأنه ليس من أهل هذه
المجالس، ولا من شراب الخمر، ويرجع إلى التقوى والندم على الذنوب.
فيقول:

(١) سهلب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير.

بعذارى من سلافات الخمر
فاتقاه السكر عنهم بالسرور
يتمشى فيه بالشيب دثور
بلغت لم تشن منهن صدور
للصبا نار وفي الوجنة نور
ذات عمر كثرت فيها الدهور
أنجم الكاسات فى أيدي البدور
فى يد الآنس عنهن تفور
بنجوم طلع ليست تغور
مات من عمرى إلى يوم النشور
إنه فى شعرى شاهد زور
أذرف الدمع رواحا وبكور
لوعة منه إلى ماء الثغور
وهى بالشدو على الشرب تدور
يصطفى نار الوغى حيث تفور
وذوى اللهو مغيبى والحضور
وإن استغفرت فالله غفور

حبذا فتين صدق عرسوا
عربد الصحو عليهم بالأسى
عمروا ربع الصبا من قبل أن
إن للأعمار أعجازاً إذا
كل نافي^(١) العمر فى شرته
يقتنون العيش من قانية
أطلع الساقى عشاء منهم
عد بالأكواب عنى أن لى
عمر الشيب الدجى من لمتى
لا نشور لشبابى بعد ما
خضاب الشيب لا أقبله
أنا من وجدى بأيام الصبا
فكأنى ذو غليل تلتظى
أصف الراح ولا أشربها
كالذى يأمر بالكر ولا
فسواه بين إخوان الصفا
أنا من كسب ذنوبى وجل

(١) هكذا فى الأصل .

وقد اشتهر بوصف القصور . كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجباً من دوحة نبتت من العقيان
عجباً لها تسقى الرياض ينبعا نبعت من الثمرات والأغصان
خست بطائرة على فتن لها حسنت فأفرد حسنهما من ثان
قس الطيور الخاشعات بلاغة وفصاحة من منطق وبيان
فإذا أتيح لها الكلام تكلمت بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على خوض لها فكأنها منها إلى العجب العجاب رواني^(١)
فكأنها ظنت حلاوة مائها شهدا فذاقته بكل لسان
إلى أن قال :

كم مجلس يجرى السرور مسابقا منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الحدود ملاحه فكأنه المحراب من غمدان
فسماءه فى سمكها علوية وقبابه فلكية البنيان
وكقوله :

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعة أقلامها فأرتك كل طريدة تصويرا

(١) كذا فى الأصل .

وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها النزويق والتشجيرا
وكأنما للأزورد مخرم بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا
يا مالك الأرض الذى أضحى له ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة منها ودمرت العدا تدميرا^(١)

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما فى نفسه من ألم، وما يلاقيه فى سبيلها
من شماتة الأعداء، وما يتمناه من الصبر فى سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها
من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها ويدل فى آن واحد.
فيقول:

عذبت رقعة قلبى ظلمًا بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما وما شفيت بطلبك
أسخط كل عدو رضيته لمحباك
من لى بصبر جميل على رياضة صباك
فيا تشوق بعدى إلى تنسم قـربك
ووجنة غمتها فى الورد صنعة بك
لقد جنحت لسلمى كما جنحت لحربك

(١) راجع القصيدة فى الديوان المطبوع فى رومة ص ٤٨٢.

فبالدلال الذى زاد فى ملاحاة عجبك
فكى من الأسر قلبا عليه طابع حبك
ونعمينى بعتبى فقد شقيت بعتبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل فى ذلك وربما لم يكن لن ميزة فى غير الأسلوب، وربما كان مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم ما يشعر به القارئ من الثثرة. غير أن المعانى تنهال عليه انهيارا فيعذب الكلام. كما قال:

غيرته غير الدهر فشاب ورمته كل خود باجتناب
فغدا عند الغوانى ساقطا كسقوط الصفير من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا إذ رماه الشيب رجماً بشهاب
وكأن الشعر منه سعف يلتظى فيه شواظ ذو التهاب
أيها المغرى بتأنيب شج سلط الوجد عليه هل أناب
هام لاهمت من الغيد بمن حبها عذب وإن كان عذاب
لمت لا لمت عميدا قلبه عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باق مع المرء إذا كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبى من أقبلت فى صورة ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل فى خلقها ليته تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن والردف النقا والأقاح الثغر والطل الرضاب
ظبية فى العقد إما التفتت ومهاة حين ترنو فى النقاب

ويذكر الخمر وكأن الناس جميعاً سكارى، وفي كل رأس نشوة وحيرة.
وكان الخمر حلال لا حرام، أو كأنها أكمل شيء في الوجود، لأنه يصفها
بأكمل الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات. ويخيل إلى الإنسان أنه لم
يبق كلمة تمت إلى الخمر بقراءة إلا ذكرها، أو معنى يدب في النفس بدبيبها
إلا قاله، والقارئ يشمل بذكر الخمر كما يشمل بأسلوب الشاعر وعذوبته، وكأن
أحداً لم يقل مثله في ذلك كما قال^(١):

(١) أو كما قال الشاعر:

أشهب في دجى الليل ثقب	أم سراج ناره ماء العنب
أم عروس فوق كرسى بدا	يجتليها اللهو في عقد الحب
يا شقيق النفس أنفاس الصبا	بردت والصبح لا شك اقترب
قم أمتعك بعيش لم تقع	في صفاء منه أقذاء النوب
فلقد حان لضوء الفجر أن	يضرب السرحان فيه بذنب
فأدرها تحت ليل سقفه	ظلمة فيها من النور ثقب
أو على برق سماء ضاحك	غيمة بالدمع منه منسكب
سكر الروض وغنى طيره	أفلا ترقص قامات القضب
هات درا فيه ياقوت وخذ	جسم ماء حاملا روح لهب
قهوة لو سقيتها صحرة	أو رفت باللهو منها والطرب
يجذب الروح إليه روحها	الطف الشئين عند ما انجذب
ولدت بالشيب في عنقو دعا	وهي اليم عجوز لم تشب
كلما موجهًا المزج أرت	حبب الفضة في ماء الذهب
ما درى خمارها عاصرها	فحديث الصدق فيها كالكذب
خنذريس عتقت في أجوف	من دم العنقود مملوء نخب
ومليح الدل إن عل بهما	قلت نجم في فم البدر غرب
شعشع القهوة في صوب الحيا	وسقاني فضله مما شرب
فتلاقى في فمي من كأسه	ماء كرم وغمام وشفت

وجسم له من غيره روح لذة
إذا قبض الإبريق منه سلافة
شربنا وللإصباح فى الليل غرة
على روضة تحيا بحية جدول
بأزهر يجلو اللهو فيه عرائسًا
كأن لها فى الخمر حمر غلائل
وكم من كميت اللون تحسب كأسها
إذا مزجت لأنت لنا وتحولت
جرى فى عروق النار ماء كأنما
وإن نال منها ذو الكآبة شربة
سليل ضروع أرضعت حلب السحب
تقسمها الشراب حوليه بالقعب
تريد اندماجًا بين شرق إلى غرب
يفىء عليه ظل أجنحة القضب
كراسيها أيدى الكرام من الشرب
مزررة الأطواق باللؤلؤ الرطب
لها شفة لعساء ذات لمى عذب
بأخلاقها عن قسوة الجامح الصعب
رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
تسربت الأرواح منه إلى القلب

ابن برد الأصغر^(١)

بنو برد أسرة معروفة بالأدب كبنى شهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزاباً أدبية تستخدم عمالاً للملوك والأمراء، يكتبون لهم ويساعدونهم فى أغراضهم. والأمر أنفسهم أدباً وشعراً، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم فى مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بآرائهم، ولاحتياجهم إليهم فى أوقات الطرب ومجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار. ولذلك كان الوزراء جميعاً وأدباء وشعراء ورجال جد ولهو. وكانت هذه المجامع تحتوى على كثير من الناس المختلفى المذاهب والعقائد فى كثير من المسائل، كما كانت مسرحاً للدسائس والملق، ومثاراً لغضب الملوك والأمراء، وباعثاً من بواعث الرضى، وجد الناس بالخطوة عند الرؤساء.

(١) هو حفيد أبى حفص الأكبر كاتب يحيى بن على بن حمود الذى خرج على عمه القاسم بن حمود وأسرته ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقاً سنة ٤٥١ هـ. وكان بين يحيى هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمناً وانتصر مكل منهما على صاحبه مرات وخذل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطراباً من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت إليهم ثم خرجت منهم نهائياً إلى ملوك الطوائف وكان أبو حفص الأكبر من أشهر الأدباء (توفى سنة ٤٢٨ بسرقسطة) ومن كتاب ديوان الأشاء فى دولة العامريين وكتب للمظفر بن أبى عامر. وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول باعه فى الساسة. (ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وكان قد استبد بالأمر وحجر على الخليفة هشام الأموى وأراد أن يستأثر بما بقى من رسوم الخلافة. فطلب من هشام المؤيد أن يولييه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملاء من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوماً مشهوداً فكتب عهده من إنشاء أبى حفص بن برد.

بهذا وغيره رقى الأدباء إلى مراكز الوزرة، وقبضوا على أزمة الأمور، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم. وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها، وانتمى إلى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلاً لأن يجولوا في هذه الميادين. وعرف بنفسه من لم يكن معروفاً، واستعان على ذلك بالحاجة إلى أمثاله. وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب دبيبها في جسم الدولة هناك، والفرقة بين الناس تعمل فيهم، والأمة آخذة في الندهور، وسلطان بني عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع، والمنصور يحاول هدم ملك بني أمية، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة. فاندس في هذه الفئة نفر من الأدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم. فقصدوا الأمراء والملوك، فرحب هؤلاء بهم وأفسحوا لهم صدورهم. فكان من جراء ذلك انتعاش حركة الأدب في عصر كانت الدولة ماثلة فيه إلى السقوط، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء. فطال عمرهم بطول الحاجة إليهم. وهذا سر بقاء الأدب في الأندلس حافظاً شكله ومكانته إلى أواخر الدولة هناك. ومن الذين عاشوا في هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرتعون في ساحاتها بنو برد. وأشهرهم أبو حفص الأكبر وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر.

كان أبو حفص بن برد الأصغر من كبار الكتاب والأدباء ومن النبهاء الأذكياء، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف في الشعر. أخذ عن جده أبي حفص الأكبر وسلك مسلكه. وكان يفخر به وبالانتماء إليه^(١) وهو من المقدمين بين الأدباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله.

(١) حيث يقول:

حد حسامى قطعة من حدى
من نظم الألفاظ نظم العقد
وكف بالأقلام أيدي الأسد

من شاء خبرى فأنا ابن برد
وأرفع الناس بناء جدى
ونقد الكلام حق النقد

"كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر . ومثلها السائر . ينفث فيها بسحره . ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره .

وكان يفر بامتلاك أعنة البلاغة^(١) . فقد كان الأدب ولا سيما الشعر والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال ، التى تقاس بها أذواق الأمم الفنية ودقة الإدراك لديهم ، وفهمهم أسرار الوجود الخفية .

وأسلوبه النثرى هو فى جملته أسلوب خطابى ، يسلك فيه مسلك توارد الجمل والمتراذفت ليملك الأسماع ، ويؤثر فى نفس القارئ . وإن كان كثير من هذه الجمل مكرراً خالياً من معنى جديد . وهذا طريق طويل ، ولكنه أحد طرق البلاغة الذى يسمونه بالأطناب ، ويريدون أنه فى نهايته يصيب الغرض المقصود من التعبير ، ويوصل إلى ما يؤدى إليه الإيجاز : من معرفة مواقع الكلام الدال على المعنى تواء . وقد يكون هذا الأسلوب آتق فى لفظه ، لكثير اختيار الكاتب الجمل الفصيحة وأثبت فى الذهن ، لكثرة تردد المعنى الواحد فى ذهن السامع بعبارات مختلفة .

(١) كتب يقول فى كتاب سماه (سر الأدب وسبائك الذهب) . . . وأصبحنا بعد نرمى أغراض الكلام بأسهم أزرها شديد . ونعقد مناظم القول بألن برىء منها التعقيد . ونسيل من المنشور جداول النطاف ، ونجيد من المنظوم جواهر الأصداف ، وكان جدى أحمد بن برد رحمه الله لطول ممارسته هذه الصناعة برحاء اللهب ، ونهمة الطلب . ودعة الزمان وإقبال السلطان . . . كأنه وقد أقبسنى من مصابيح وصاياه فيها . . . وصرف لى ضوء من هداياته من أفاء الله به نفعاً وأوسع معها إرشاداً . ثم إن الأيام إثر مصابه . وبعد ذهابه . باكرتنى بصروفها . شغلتنى . . . يرفع خروقتها . ومكابدة ضيقها : وسوق الأدب قد كسدت ، والعى أمضى من البيان ، والإساءة أحد من الإحسان . وأفلامنا يومئذ فى عطلة . ومحابرنا فى عقلة وكتابتنا فى رقدة . . . إلخ . . .

راجع الجزء الأول من الذخيرة .

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد، وعلى الافتنان في معرفة الفرار من ملل التكرار، وعلى أبرز هذه الجمل المتحدة المعنى كأنها مختلفة الدلالة، مما لا يقدر عليه الموجز بإيجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير في الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر في كثرة الجمل وإدراك معانيها.

أما أبو حفص فإنه من أصحاب الأطناب، الذين يميلون إلى قرع الأسماع بنغمات البلاغة في كثرة الجمل على المعنى الواحد. وهذا كثير من نثره، وربما كان ميالا إلى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعاني، ولكنه في جملته حسن الديباجة، وأسلوبه من أحسن ما يكون من نوعه.

والظاهر أنه كان يعشق هذا الأسلوب. فإن نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلا، جملا جملا، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها، كالحكم والأمثال^(١). وله كثير من النثر الصناعي المتكلف، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعبث بصناعة الكلام^(٢).

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام، ولا أغرب من هذه الأساليب التي يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللمة. على أن ذلك لا يخلو

(١) من ذلك قوله في وصف القلم والمداد والكتاب، ويقولون أنه أول من ابتكر الكتابة في هذا الموضوع، المداد كالبحر. والقلم كالغواص. والألفاظ كالجواهر. والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب. والقلم خادم له. ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة. ويلفظ نوراً.

(٢) كقوله: أظلم لى جو صفائك. وتوعرت على أرض إخائك .. فليت شعري ما الذى أفصى مهجة الود. وأذبل زهرة ذلك العهد ... وإن رغم أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس إلخ.

أحياناً من أثر فى النفس ونغمة لذيذة فى السمع . تمر من النسيم العليل .
كقوله فى الاستزارة .

"اليوم يوم بكت أمطاره . وضحكت أزهاره . وتقنعت شمس . وتعطر
نسيمه . وعندنا بلبل أزج وساق غنج . وسلافتنا سلافة أخذان . وسلافة دنان
قد تشاركنا فى الطباع . وازدوجنا فى إثارة السرور . فأحرق إلينا سراق
الدجى . تجد مرأى لا يحسن إلا لك . ولا يتم إلا بك . الزيارة بالليل أحفى .
وبالزائر والمزور أخفى . وقد سدل حجاب . ووقع قرابة . وتبرقت نجومه
بغيمه . وتلفعت كواكبه بسحائبه . فاهتك إلينا سترًا . وخض إلينا بحرًا . . . "

ومن هذه الأساليب الفنية فصول كتبها فى تفضيل الورد على غيره من
الأزهار وقالوا أنه مخترع هذا النوع ، وأول من كتب فى هذا الموضوع^(١) .

(١) وقد عارضه فى هذه الرسالة الأديب أو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بحبيب .
وكان أبو الوليد حبيب هذا من الممتازين بالكتابة فى زمنه ؛ أديباً مشهوداً له بالفضل .
تلميذاً لابن الأبار أحد شعراء المعتضد بن عباد ، وقالوا أنه كان وهو ابن سبع عشرة سنة
ينظم النظم الحقائق . وينثر النثر الرائق . واستوزره جد المعتمد بن عباد وكان يصغى إلى
مقاله ويرضى بفعله ، وهو ما جاوز العشرين (نفع الطيب طبع أوروبا جزء ٢ ص ٢٩٠)
وكان شاعراً أكثر شعره فى الأزاهر ولم يذكر ابن بسام من رسالته التى عارض بها ابن
برد الأصغر إلا طرفاً صغيراً . قال فيه : "وأما رسالة أبى الوليد فخاطب بها المعتمد يومئذٍ
قال فيها : فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعين الخطاب . فواو " فصل الربيع . هى خيرة
الورد فى الوطن . وسحابته فى الزمن . ولما أن قرأته أنكرت ما فيه . وبنيت على هذه
مبانيه ، ونقد معانيه ، وعرفت الورد بما عليه فيما نسب إليه ، من استحقاقه مالا يستحقه ،
واستثاله ، وعلمت أن مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة .
تدبير دبرى ، ورأى غير مرضى ، فكتبت إلى الأقحوان والخيرى الأصفر كتاباً ، قالت فيه
لو استحق الورد أمامه ؛ واستوجب خلافة . لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التى لم تزل
تجاوره فى مكانه . وتحىء فى أوانه ، ولا ندرى لأى شىء أوجبت تقديمه . ورأت =

أما رسالته فى ذلك فهى رسالة نادرة فى موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها، وحسن ذوقه فى اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وأنه كان من الكتاب الذين يميلون إلى الأساليب القصصية. وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير فى بلاغة المشرق، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام فى الأزهار على هذا النحو.

تصور ابن برد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت فى مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه. وقد دل الكلام على عقل الكاتب وأنه من أصحاب المعتقدات، أو أنه فى كلامه هذا يمثل ميول العقول فى عصره. وذلك أنه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير فى الوجود والمخلوقات فقال:

"إن صنوفًا من الرياحين، وأجناسًا من البساتين، جمعها فى بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس فى ضمائرهما لم يكن له بد من التفاوض فيه، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف، وأجمعت على أن ما يثبت فى ذلك من العهد، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شحه ولم

=تأهيله. بما غيره أشكل له وأحق به. وهو نور البهار والبادى فضله بدنو النهار. والذى لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء، مشبهًا بالعيون التى لا يحول نظرها، ولا يجوز حورها، وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخد عند من تشيع فيه. وأشرف الخواس العين إذا هى على كل متول عون وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رسائله

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

وأصبح تشبيه الورد - وأقربه من الحق، فول ابن الرومى فى الشعر الطائى، ولقد وافق ووفق وشبه فحقق " وطول أبو الوليد فى رسالته هذه وختمها بمبايعة الأزهار البهار ورجع عن تقديم الورد فى خبر طويل.

يأن منها وقبة فقام منها قائمها فقال: يا معشر الشجر، وعامة الزهر، إن الله تعالى لطيف خبير، خلق المخلوقات البريات، باين بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها، فجعل عبداً وملكاً، وخلق قبيحاً وحسنًا، فضل بعضاً على بعض، حتى اعتدل بعدله الكل، واتصل على لطف قدرته الجميع، وإن لكل واحد منها جمالا في صورته، ورقة في محاسنه، واعتدالا في قده، وعبقاً في نسيمه ومائية في ديباجته".

ثم تطرق من ذلك الكلام في الزهور وما لها، وما اختصت به من الجمال والمنزلة في الاجتماع ونفوس الناس فقال:

"وقد عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس، وزهت بحاضرنا المجالس، حتى سفرنا بين الأحبة، فوصلنا أسباب القلوب، وتجلنا لطائف الرسائل، وصبغ فينا القريض، وركبت على محاسننا الأعاريض".

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحمودة بقوله:

"فطمح بنا العجب، وأزهى بنا الكبر، وحملنا تفضيل من فضلنا، رائثار من آثرنا، على أن نسيم الفكر في أمرنا والتمهيد بعواقبنا، والتطبيب لأخبارنا".

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الإنسان. وهى طريقة جميع أصحاب الأمثال والأساطير، الذين يتكلمون على ألسنة الحيوان أو النبات. ولكن الظاهر أن الكاتب لم يكن يقصد بذلك لا الوصف أو سعة الخيال، لا العبرة والعظة. غير أن هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية، أو القرية من ذلك وخروج من الدائرة المعروفة، دائرة الرسائل والمكاتبات، ودليل على رقى

الفكر، وترك القديم، وباب جديد من أبواب المنشور، الذى يدخل منه الكتاب إلى القصص والحكايات.

ثم أخذ بعد ذلك فى تفضيل الورد وبيان مزاياه. فقال:

"وادعينا الفضل بأسره، والكمال بأجمعه، ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا، ومن هو أولى بالرياسة منا: وهو الود، الذى أن بذلنا الإنصاف من أنفسنا، ولم نسيح فى بحر عمانا، ولم نخل مع هوانا، دنا له، ودعونا إليه، فمن لقيه منا حياه بالملك، ومن لم يدركه زمن سلطانه، ودولة أوانه، اعتقد ما عقد عليه، وولى ما دعا إليه، فهو الأكرم حسبا، والأشرف زمنا، أن فقد عينه، لم يفقد أثره، أو غاب شخصه لم يغب عرفه، وهو أحمر، والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح، وهو الياقوت المنضد، فى أطباق الزبرجد، وعليها فوائد العسجد، والأشعار من محاسنه حسنت، وباعتدال جماله وزنت".

وقد دل على أوصاف الكمال التى فى الورد، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته. ثم استرسل فى الكلام على هذا النمط، وذكر أنواعا أخرى من الزهر وأنطقها بالكلام. فقال:

"وكان ممن حضر هذا المجلس، من رؤساء الأنوار والأزهار، النرجس الأصفر، والبهار والبنفسج، والخيرى النمام. فقال النرجس الأصفر. والذى مهد لى حجر الثرى، وأرضعنى ثدى الحيا، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أسير من التعب له، والشغف به، والأسف على تعاقب الموت دون لقاءه، ما انحل جسمى، ومكن سقمى، وإذا قد أمكن البوح بالشكوى، فقد خف ثقل البلوى. ثم قام البنفسج فقال

على الخير سقطت، أنا والله المتعبد له، والداعى إليه، المشغوف به، وكفى ما
بوجهى من ندوب، ولكن التأسى بك آنس. ثم قام البهار فقال: لا تنظروا
إلى غضارة منبتى، وتضارة رونقى، وانظروا إلى وقد صرت حدقة باهتة تشير
إليه، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه.

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ثم قام الخيرى فقال: والذى أعطاه الفضل دونى، ومد له بالبيعة يمينى،
ما اجترأت قط أجلا لا له واستحياء منه، على أن أتنفس نهاراً، أو أساعد فى
لذة صديقاً أو جاراً، فلذلك جعلت الليل سترأ، واتخذت حوائجه كنا
وجعلها تتناقش وتتنافس. ثم تم بعد ذلك اتفاقهما فى مجلس عام، وكتبت
بذلك صكاً اعترافاً منها بفضل الورد، وإطاعته. وجعلته رئيساً لها، تطيع
أمره ونخضع له، فقال:

"فلما استوت آراؤها، قالت أن لنا أصحاباً، وأشكالا وأتراباً، لا نلتقى
بها فى زمن، ولا نجاورها فى وطن فهلم فلنكتب بذلك عقداً، ينقذ على
الأقاصى والإدانى فكتب رقعة، ونسختها: هذا ما تحالفت عليه أصناف
الشجر، وضروب الزهر، وسميها وشتويها ربيعها وقيظيها، ما نجمت من
تلعة أو ربوة، وتفتحت من قرارة أو حديقة، عندما راجعت من بصائرها،
وألهمت من مراشدها، واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد
قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه
عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة والعبودية، وبرئت من
كل زهر نازعه المباهاة له، والانتداء عليه فى كل وطن، ومع كل زمن. فإنه
زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الحلف، فلتعرف أن إرشادها فيه، وقوام
أمرها به".

ذلك من الأساليب الجديدة فى اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال ومتانة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية. لأن كل أدب أو بلاغة لا تحتوى على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من الأسرار الإنسانية، التى لا تظهر إلا فى مثل هذه الموضوعات، تكون آداباً ناقصة أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعرائها. ولا تكون هذه الأساليب إلا فى أمة تربت أخيلتها وعقولها تربية علمية فنية. ولقد ظهرت بوادر ذلك فى بلاد الأندلس عند بعض الكتاب، وخصوصاً فى القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك. ولقد كان هذا الباب الذى ولجه الكتاب فى الأندلس يصل بهم إلى طريق جديد لم يسلكه كتاب العرب فى المشرق، غير أن هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له أنصاراً كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولأن الكتاب والأدباء لم يتسن لهم بعد اقتباس هذه الأساليب القصصية. فكانوا يحتاجون إلى زمن طويل لصقلها فى عقولهم والتعود على فهمها. ولقد كان أيضاً من الأسباب التى لم تدفع الكتاب إلى السير فى هذا الطريق أن الدولة لم تدم طويلاً، والملوك الأدباء ابتدأوا يختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ أن هذا الأسلوب القصصى بدأ يظهر بشكل خيالى أكثر منه بالحقائق التى تلمس النفوس. وكان لابد أن يبتدىء بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا. وقد كانوا يريدون الدخول فى الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يقفون أثرها، غير ما ابتكره أبو العلاء فى رسالة الغفران من جم الأدباء والمناقشة مع بعضهم بعضاً فى مسائل اللغة والأدب. ولكن يظهر من

كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصى كان يتسرب إليها شيئاً فشيئاً، وإن رسائل العتاب وغيرها تحتوى على كثير من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التى تخطاها النثر فى اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها إلى حب الجديد. والأساليب التى كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته. وأنه وجه من وجوه الأدباء فى ذلك العصر.

وقد كان ابن برد شاعراً أيضاً، وربما كان شعره أفضل من نثره، لأنه ميال إلى الصناعة فى الكلام، والصناعة أمراً على النفس فى الشعر منا فى النثر. وكل شعره أو جلّه قطع صغيرة فى الغزل. وشعره خفيف الروح، عذب التذوق كأنه نغمات موسيقية، أو فكاهات أو مسامرات. وله معانى ظريفة أخذها وتصيدها ونظمها، وألبسها لباساً من صناعته. كقوله:

أبدأ تأتى بعــــــتب دون أن آتى بجــــــرم
بيننا فى الحب قــــربى ستم عينيك وجسمى (١)
ومن قوله:

يا كثير الجفء لى ومضيعاً وسائلى
طال حبى ولم تفز منك نفسى بطائل
أنت لى هاجر وإن كنت فى ثوب واصلى

(١) قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومى:

يا عليلاً جعل العلة مفتاحاً لقمى ليس فى الأرض غير جفنيك وجسمى

أنت إن زرت منهــــــــــــــــلا كأن أحلى مناهلى

وجرى خياله فى هذه المعانى شوطاً بعيداً، وأخذ يتصيد ما فيها وبيته
فى كلامه وشعره: كطيب ريح فم الحبيب، واحتراق فؤاده بنار الحب، وغرفته
فى دموعه. وله أبيات رقيقة فى وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف
على النفس، الذى تلذ قراءته بخفة وزنه ونغماته الموسيقية أكثر مما فيه من
المعانى التى هى معروفة لكل عاشق. كقوله:

بــــــــــــــــــــداع عللوه	وبهــــــــــــــــجر وصلوه
لم يــــــــــــــــبالوا يوم صد	أى وجد حــــــــــــــــملوه
أخرجــــــــــــــــوه من محل	لــــــــــــــــتسلى أدخلوه
بلغت منه الأــــــــــــــــعادى	أى شىء أــــــــــــــــملوه
رب ستر للــــــــــــــــتصابى	فوقه قد سللوه
كلما سقوه كــــــــــــــــأساً	إثر كــــــــــــــــأس قبلوه
وهلال بــــــــــــــــشــــــــــــــــرى	بنــــــــــــــــجوم كللوه
فى بهــــــــــــــــيم من ظلام	بسناه أــــــــــــــــخجلوه
نشــــــــــــــــطوه ثم لما	لأن عطفنا ثــــــــــــــــبطوه
عزــــــــــــــــلوه عن وصال	حــــــــــــــــسداً ثم ولوه
إنما حــــــــــــــــبى فــــــــــــــــيكم	مثلاً قد أــــــــــــــــرسلوه

وقال ابن بسام أنه أخذ هذا الوزن والروى من قطعة لشاعر من شعراء
بغداد. وهكذا كان يسطو على المعانى وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها
على منواله. كقوله فى معنى معروف.

والبدر كالمرآة غير صقلها عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه مثل التباس النقش بالقرطاس
فكان فى كل شعره يميل إلى زينه اللفظ والتشبيهات البديعة ككثير من
الشعراء مثل قوله :

سقانى وجفن الليل يغسل كحله بماء الصباح والنسيم رقيق
مذاباً كذوب التبر أما بخارها فضخم وأما جسمها فرقيق
وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصرف يقلد المعانى ويضعها
فى أوزان العروض، غير أن هذا لا يحط من قدره ولا يغمط من حقه فى
ميله إلى قول الشعر وذوقه الفنى . وله قصائد ذكرها صاحب الذخيرة فى
الجزء الأول .

الأعمى التطيلي^(١)

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التطيلي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء في عصره^(٢).

أما نشره فهو نشر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها ووضوحها، وعدك التعمق في البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار

(١) تطيله بالضم ثم الكسر وياء ساكنة مدينة بالأندلس في شرق قرطبة (راجع معجم ياقوت) وهو معروف بالأعمى التطيلي نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ وفي القلائد والذخيرة الطليطلى.

(٢) لم يقف له على ترجمة وافية. وقد حملنا على ذكره شهرته وماله في عالم الأدب. وقد مدحه الأدباء كعادتهم في كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام: له أدب بارع. ونظر في غامضه واسع. وفهم لا يجارى. وذهن لا يبارى. ونظم كالسحر الحلال. ونثر كالماء الزلال.

وقالوا عنه أنه نظم أخبار الأمم المختلفة في لبة القريض. وعبارة الذخيرة تكاد تكون هي بعينها عبارة القلائد. ولست أدري أيهما أخذ عن الآخر لأن الفتح بن خاقان وابن بسام عاشا في عصر واحد (فقد مات ابن بسام في سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩) والظاهر أن عبارة قلائد العقيان كانت أشهر لأن الضبى صاحب كتاب "بغية الملتبس في رجال أهل الأندلس" أشار إليها بل ذكرها ولكنه نسبها إلى المطمح فأخطأ في هذه النسبة. لأنها ذكرت في قلائد العقيان. واختصر الضبى على عبارة الفتح بعد أن جزها وأورد له شيئاً من شعره للاستدلال على فضله. ولقد نبهنا هذا الأسلوب إلى صعوبة دراسة كثير من الكتاب والشعراء الذين لم يعن أصحاب التراجم والأدباء بالكلام عنهم. ولم أجد عن الأعمى التطيلي هذا شيئاً في ابن خلكان ولا في فوات الوفيات ولم يتكلم عنه المقرئ في نفح الطيب بما يدل على شيء من حياته. لذلك تقتصر على شيء من ذكر منظومه ومنشوره والكلام على ذلك.

والافتتان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحاً تدب ديباً بين جملة وألفاظه، وإن له قوة يظهر أثرها فى تلاوة كلامه .

وأما معانيه فأقل ما فيها أنك تراه يحاول ألا يقتصر على اختيار اللفظ وبلاغة العبارة. بل يريد أن يكشف شيئاً من أحوال النفوس، ويضم ذلك إلى جمال القول وبهجة المعانى. لذلك تجده فى رسائله ينتقل من معنى إلى آخر، ويتكلم عن نفسه وغيره، ويذكر المعنى العام والخاص، ويتواضع ويفخر، ويتملق ويتكبر، ويستصغر نفسه ويستكبرها. كل ذلك فى رسائل يرسلها فى العتب أو التقرب أو الشكوى. وقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذى يجوب فيه الكتاب ويظهرون خفايا نفوسهم. وينشرون على العالم مطويات أفكارهم. وكان نوع الرسائل كل ما يعرفونه من أساليب الكتابة لبث شكواهم، والتعبير عن آرائهم الشخصية. وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العالم الخارجى. فإذا تكلم أحدهم لا يتكلم إلا عن نفسه، وإذا شكا لا يشكو إلا آلامه، وإذا مدح مدح لحصوله على خير، وإذا ذم ذم لوقوعه فى شر، وإذا وصف وصف ما يحيط به لا غير. ويكفى دليلاً على ذلك أن أنواع الشر عندهم انحصرت أو كادت تنحصر فى كتابة الرسائل الأخوية، وإن هذه كانت الصبغة الغالبة على النثر، امتلأت بها بطون الكتب الأدبية. ولا يكاد يعثر الإنسان على رسالة من نوع آخر. غير أن هذه الرسائل القصيرة وإن خلّت من معان اجتماعية عامة، فإنها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة، والعبارات البليغة، والأمثال الحكيمة، والتراكيب المتينة، والأفكار الناضجة، وصور نفوس الكتاب، ودقة إدراكهم وجل معلوماتهم. وهذه رسالة صغيرة فى العتاب للتطيلي:

"شاركرك أو شاكيك، بل لأئتمك ولأائم الأيام فيك، يا سيدي كناية عن ذكره، لا توخياً لبره، وأخى رغبة في إنصافه، لا طمعاً في استعطافه، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرها، ورفعت إليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها، ومن أطال الله بقاءه ممتعاً بظل السلطان، وإقبال الزمان. فأن الرجل بسلطانه، لا بإخوانه، وإقبال زمانه لا بإحسانه. إني أعزك الله وإن كان الدهر وضعنى ورفعك، وضاق عني ووسعك، فبين جنبى نفس عصام، وبين فكى صارم بسطام . . . "الشجو شجوى والعويل عويل" لا أستعير عيناً للبكاء، ولا أبتغى بكبدي كبدًا سليمة من الأرزاء. وإنك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون، وجلست مجلس الفضل من المأمون، وخدمك الدهر، وإنثالت فى يديك الأنجم الزهر، قلت احم وعلى، وإن لم يكن فشحع ورى. وعلى رسلك، ما كنت أنا ألغط فى مثلك، إني أبيت طيان، ولا أبيت . . . ، واحتمل الحرمان. ولا أحتمل الهوان، وليت هذا الأمر وقلبك بى معمر، وأنت بزعمك لى فقير، وأنا أظن أنى سأولى وأعزل، وأحدث فى كنفك وأعدل، فما هو إلا أن ثبتت قدمك، وخفق علمك، وابتل قرطاسك وقلمك، اختصرت شطر الإسلام^(١)، ودفعت فى صدر القيام، عزلت فلاناً قبل الولاية، واقتصرت بأبى الإصبع دون الغاية. هنيمة أنا كنت معناها، وكاس لى شعشت حمياها. وولايتك خطر وفى عملك نظر، إنما هو ظل غمامة، وبيض حمامة. ثم تعود لى استحلاس البيت، وأكل الخبز بالزيت.

وقال فى رسالة أخرى:

"ولم أزل منذ تخيل جناتى، وتقول لسانى، وأدبر ملكى أو شيطانى،

(١) هكذا فى الأصل.

ألتمس من أهل هذا الشأن، ما أسعى باسمه، وأحفل وأقيس على حكمه، وأقل وأحل . . . وأعتقد، والناس كثير، والناقد بصير، والأمور أعجاز وصدور. فكيف ترنى اتخذتك خليلا، وأخذت على الأيام عهداً مسئولا، وبابعتك على الطاعة والسمع، وشايعتك سرى الاستطاعة والوسع، فعولت عليك كعبة أولى وجهى شطرها، وأسندت إليك هضبة أرعى سوامى وعرها، لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها، وأبلغت نفسى فى طلبها والتعلق بسببها. الخ".

أما نظمه ففى بعض قصائده كلام من الشعر الممتع، مع طول لا يمل وأراء تدل على فكر جوال وعقل ناضج. وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم الحكم. وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن، عالم بأساليب النظم البليغ والأسلوب الخطابى، الذى يجذب الأسماع والقلوب، ويملاها حكمة وعظة، وإعجاباً وجمالا. قال من قصيدة فى المدح.

عتاب على الدنيا وقل عتاب	رضينا بما ترضى ونحن غضاب
وقلت وأصغينا إلى زور قولها	وقد يستفد القول وهو كذاب
وعمت على أبصارنا وقلوبنا	فطال عليها الحوم وهى سراب
ودانت لها أهواؤنا وعقولنا	وهل عندها إلا العناء ثواب
نلذ ونلهو والأعزة حولنا	رفاة وتبنى والديار خراب
ويخدعنا عما يراد بنا منى	لبحر المنايا دونهن عباب
ونغتتم الأيام وهى مصائب	لهن عليها جيئة وذهاب
بكت هند من ضحك المشيب بمفرقى	أما علمت أن الشباب خضاب

وقالت غراب ما أرى وتجاهلت
هل الشيب إلا الرشده حل غوايتي
أأغفر لصرف الدهر عن هفواته
وأتركه بمضى على غلوائه
أیغضب حسادی قیامی إلى العلا
وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
هم حسدونى لا لوفر وفرت
ولكن شهدت الكرمات وغابوا
وما أجمل مدحه فى هذه القصيدة، فقد یرى الإنسان فیها المدح
وعظمتہ وسمو قدره، وقد یصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام
عما فى الشعر من المبالغة. بل قد یتجه فكره إلى تذوق المعانى. وليس أنبل
ولا أشرف من إنسان یتصف بهذه الصفات. ولا أشعر من شاعر یحمل القراء
على صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه. إذ یقول:

سجایا على مر الیالی كأنما
موارد فیها سم كل معاند
مخوفتى ریب الزمان وقد حدت
إذا الله سنی لى لقاء محمد
فتى لم تسافر عنه آمال آمل
له همم فى الجود والبأس لم تزل
وأقسم لولا ماله من مآثر
ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر، وتلعب برأسه، كما تلعب الكأس،

فيثمل ويقول فيثمل السامع معه، وكأنه يترنج من صدق قوله، والسامع يترنج معه من عذوبة هذا المقال:

وهل أنا إلا عبد أنعمك التى هى الشهد إذ كل الموارد صاب
وهل شهد المجد الذى أنت سره فإنك بحر والكرام عياب
وهل أنا يا رضوان باسمك هاتف وهل لى إلى دار المقامة باب
إذا قايسوك المجد كنت غضنفرًا إذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر إلا من صيالك معرك ولا أخضر إلا من نذاك ثياب
وما أقدره على طول الكلام، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى
يدركها. ولقد مدح الوزير أبا الحزم، فعرف كيف يمدح الوزراء. وبدأ
قصيدته بشيء من الغزل، ولكنه غزل غير مبتذل، وأسلوب عشقى غير ظاهر
فيه السطو على المعانى، وكأنما هو من مبتكراته، على أنها معانى غيره،
وأسلوب سواه. كما قال:

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
وقد اطلعت تلك الهوارج أنجما تركزن جفونى فى الكرى أسوة النجم
فأبت بدمعى لؤلؤًا فوق نحرها وآبت بما فى مقلتها من السقم
خليلى هل بعد المشيب تلة لذى الجهل أوفى الحب شغل لذى العلم
وهل راجع عيش لمسناه آنفًا كيوم لذيد فى بيوت بنى حزم
وهل لى حظ من مواته صاحب له قدرة القاضى وموجدة الخصم
بدت رقة الشكوى على عطفاته وربتك فى أعطافه قسوة الظلم

ثم أخذ فى المدح بما يحتمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه
أو كأنه كلام به يسمعه. وليس ذلك لحسن الأسلوب وجماله لا غير، بل لأن
الشاعر يعنى بذلك، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول. كما قال:

أبا جعفر هذى المكارم والعلا	دعاء بحق أو دعاء على غنم
أرى الناس قد باعوا المروءة فاشتر	وقد ضيعوا ما كان من حسب فخم
وأنت أحق الناس بالحزم فأته	وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى	كريم السجايا ماجد الحال والعم
وأخفى بألباب الرجال من الهوى	وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأحمى لحوزات المعالى من الردى	وأسخرى بآمال النفوس من الحلم

وكل قصائده فى المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه فى الجزء الثانى
من الذخيرة) وربما كان فى رثائه أجمل منه فى مدحه. كقوله فى قصيدة تشبه
قصيدة مالك بن الريب وكأنه ملهم بأبياتها.

على مثلها فلتبك إن كنت باكياً	فقد عهد الأحباب إلا تلاقيا
أفى كل يوم أودع الأرض صاحباً	أريق به فى الترب ماء شبايبا
وأحسب أنى لو رجوت مكانه	يعز عليه أن يكن مكانيا
ولو أننى أحببته الحب كله	لأتبعته نفسى وأهلى وماليا
خليلى من يطيع بشىء فإننى	نفضت به لا بل نفضت فؤاديا
وليس حياتى غير شجو مردد	عهدت له إلا ألد حياتيا

وهذه القصيدة هى تقليد للشعر القديم المعروف . ولكنها جميلة فى بابها تدل على ذوقه وحسن سبكه فى التقليد .

وله فى الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله . فقد ساق قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لذينة جعلها حديثاً بينه وبين امرأة تجيبه وتسليه وهذا الأسلوب ليس من الأساليب الشائعة عند العرب . وهو أشبه بالمناظرة بين عاشقين . وكأنما أراد أن يكشف فى حديثه عن نفس العاشق بما أودعه فى كلامه من الآراء ، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما فى آراء تلك الفتاة فقال :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا	وغابت الشمس أو لاذت ولم تغب
وأضلعي بين منقض ومنقصف	وأدمعي بين منهل ومنسكب
وأملتني أم المجد قائلة	بمن أراك أسير الوجد والطرب
فقلت قلى مسبى وأنك لو	كتمت سرى لم أكتمك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا	ظناً أيجمل هذا من ذوى الأدب
فقلت أنى امرؤ لما لقيتكم	والمرء وقف على الأرزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة	ولا نصيب لها منه سوى النصب
ألهو بها وهى تلهو فى بلهنية	شتات والله بين الجد واللعب
أصابت القلب لما أن رمته ولو	ولو رمته أخرى إذن لا شك لم تصب
فقلت أشكو إليها ما لقيت ولا	ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيعيدها فينصبها	وقد يكوب الهوى أعدى من الجرب

فقلت أعظمها بل ما أكملها
قالت أنا أتولى ذاك فى لطف
فقلت مثلك من يرجى لمعضلة
صلية أو فاقتليه فالحمام له
فلو ترانى قد استسلمت مرتقبا
حتى إذا ما ألانت تلك جانبها
طفقت ألم كفيها وقد جنحت
لله مثلى ما أدنى سجيته
كم مأثم مستلذ قد هممت به
ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته فى النفس، ومن معناه فى
الفؤاد، فيكون جديداً لأن روح الشاعر غالبية على معانيه. كما فى كلامه عن
لذيذة حبيبته. وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله:

كم مقلّة ذهبت فى العى مذهبها
رهن بأضغاث أحلام إذا هجعت
فانظر بعقلك إن العين كاذبة
ولا تقل كل ذى عين له نظر
دع الغنى لرجال ينصتون له
واخلع لبوسك من شح ومن أمل
بنظرة هى شان أولها شان
وربما حلمت والمرء يقظان
واسمع بقلبك إن السمع خوان
إن الرعاة ترى ما لا ترى الضان
إن الغنى لفضول الهم ميزان
لا يقطع السبق إلا وهو عريان

وصاحب لم أزل منه على خطر كأئننى علم غيب وهو حسان
أغراه حظ توخاه وأخطأنى أما درى أن بعض الرزق حرمان
وغرة أن رآه قد تقدمنى كما تقدم باسم الله عنوان
ولقد ينظم الحكم والعبر فى كلام فتجده حكيماً وشاعراً معاً. كقوله:

تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا إن سوف يقتلهم لذاتها بدلا
قل للمحدث عن لقمان أو لبد لم يترك الدهر لقانا ولا لبدا
وللذى همه البنيان يرفعه إن الردى لم يغادر فى الثرى أحدا
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا^(١)

(١) ووصف سداً يمج ماء من فمه

أسد ولو أنى أنا قشة الحساب لقلت صخره
وكأنه أسد السما يمج من فيه المجره
ومن قوله فى الحكمة:

وإذا أعجبت من الزمان لحادث فلتابع يبكى على متبوع
وإذا اعتبرت العمر فهو ظلامه والموت منها موضع التوقيع

(راجع بغية الملتبس للضبى صحيفة ١٨٦)

وقالوا له اجتمع من كثير من الأدباء فبرز عليهم فى موضحته التى يقول فيها:
ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

ابن عبدون^(١)

كان ابن عبدون كاتباً ناثراً وشاعراً بليغاً. أما نثره فهو نثر أدباء عصره: كلام أشبه بالنظم منه بالسجع، أو سجع متعمل غير ظاهر فيه التكلف، إذا قيس بغيره أو عورض بسواه، أو معنى قصير فى سلسلة من ألفاظ طويلة، أو هو من نوع البراعة فى الإحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ، أو ضرب من الافتنان الدقيق فى إخفاء ابتذال الموضوعات والمعانى المعروفة تحت ستار من الصناعة.

ولقد يخيل إلى الناقد أن الكتاب فى ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضاً، وإن هذه هى الصفات التى تظهر فيها ميزة الكاتب، وإنه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة ما يقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيهم. ولقد يظهر لنا أن هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون فى طريق واحد متشابه الأرجاء والنواحي، وأنهم يضربون على نغمة واحدة، من حيث الكلام فى الموضوعات المعروفة لهم، وأنه ليس لأحدهم فضل فى غير الانفراد

(١) عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد عبدون فى أزهى عصر من عصور الأدب زمن ملوك الطوائف. وعاشر أذكى ملوكهم وأعلمهم باللغة والأدب والتاريخ وهم بنو الألفس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للأدباء وإكرامهم إياهم

وكان كاتباً للمتوكل على الله نب المظفر وناهيك بمن يكون فى حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء. وقد قالوا عنه أنه كان أعجوبة فى النظم والنثر، من كبار حفاظ اللغة والأدب فى وقته. ورووا عنه وعن قوة حفظه أنه أديب الأندلس وأمامها وسيدها فى عالم الآداب وأن أيسر محفوظاته كتاب الأغانى. ومهما بالغوا فى نسبة هذا إليه فلذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته. وهو فهرى من أصل عربى وتوفى سنة ٥٢٠ هـ مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف بـيوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه -

بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع الطرق التى يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم . ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكاتب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه؟ إن العصر الذى يغص بالأدباء لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذى لا يمتازون بشيء فى مواهبهم ، وحتى على الكبار منهم ، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم . أن ميزة الصناعة الأدبية والافتنان لا يكونان فى اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير ، بل ذلك شيء كامن فى نفس الكاتب لا يظهر إلا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته إلا لشخصه .

قد يظهر للقارئ أن الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويذم ، ويعتب ويعشق ، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه . ولكننا لا نعدم أن نرى فى خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعانى جديدة ، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء فى هذه الألفاظ . وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح إليها الفكر وتطمئن إليها النفس .

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء فإن له رسائل طويلة أكثرها مملوء بالألفاظ المعروفة ، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والإطناب الذى يذهب بصبر القراء . وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتّاب أهل زمانه ، ليس فى كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف^(١) ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب . ولابن عبدون فى أسلوبه أحياناً شبه بأسلوب ابن زيدون ، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال^(٢) .

(١) ورسائل كثيرة فى الذخيرة والعجب .

(٢) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨ .

أما شعره فأفضل من نثره . ومن قصائده القصيدة التى رثى فيها بنى
الأفطس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة إلى أيامه . وهى
قصيدة ممتازة فى أسلوبها ومعانيها . قد احتوت على كثير من المعانى الدقيقة
والملاحظات العامة . بدأها بالتفجع والشكوى من الأيام فقال :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر	فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة	عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالة	والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه	يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها	فما سحبة عينها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتها	من الليالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة	منا جراح وإن زاغت عن النظر
تسر بالشئ لكن كى تغربه	كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال :

كم دولة وليت بالنصر خدمتها	لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدار وفلت غرب قاتله	وكان عضبا على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت	ولم تدع لبنى يونان من أثر
وألحقت أختها طسما وعاد على	عاد وجرهم منها ناقص المرر
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن	ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ فى كل قاصية	فما التقى رائح منهم بمبتكر

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها، لما احتوى عليه من الموعظة، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية، أيام العز والمجد الرفيع . وفيها كثير من المعاني المبتكرة التي خالف بها سنة الرثاء المعهودة . وفي هذا يقول :

بنى المظفر والأيام لا نزلت مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت بمثله ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للاعنة أو من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للظبا وعوالى الحظ قد عقدت أطراف ألسنها بالعى والخصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم فأعجب بذاك وما منا سوى الذكر
من للبراعة أو من للبراعة أو من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة أو قمع حادثة تعى على القدر
وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعانى والحاشية . كقوله فى مدح المتوكل .

وأفأك من فلق الصباح تبسم وانجاب عن غسق الظلام تجهم
والليل ينعى بالأذان وقد شدا بالفجر طير البانة المترنم
ودموع ظل الليل تلحق أعيناً يرنو بها نم ماء دجلة أرقم
يا صاحبي بين الفرات ودجلة ودع علاقة مسعد ومتم
وهو فى مدحه من عشاق المتنبي وحفظة أسلوبه . ومع هذا التقليد ميزته ظاهرة وروحه جذابة فى كلامه ، جليلة فى أن هذا له . كقوله يمدح أيضاً :

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه وإن كان مسكى الجلايب ضافيا

يؤمنون بيضاً فى الأكنة لم تزل
وأغربة الظلماء تنفض بينهم
إذا مرقوا من بطن ليل زقت بهم
وإن زعزعتهم روعة زعزعوا الدجى
ولو أنها ضلت لكان أمامها
وصليت بها الهيجا عليه وسلمت
همام أقام الحرب وهى قصيدة
ومن أساليبه فى تقليد المتنبى قصيدته التى يقول فيها:

هيهات لا أبتغى منهم هوة بهوى
فما أراح لذكرى غير مؤلة
وإلا أصالح أيامى على دخل
يا دهر إن توسع الأحرار مظلمة
ولا تخل أننى ألقاك منفرداً
ما كل من سيم خسفا عاف مورده
وكم تأزرت الغيطان بى كرما
وله كثير من الشعر الجيد غير أنه مقلد لشعراء المشرق. ولذلك لا تجد
له ديباجة واحدة، ولا أسلوباً معروفاً، ولا معانى مبتكرة.

ابن هانئ^(١)

كان محمد ابن هانئ من أصحاب الظرف والخلاعة، ذا أدب جم، لا يبالى بما يفعل ولا بما يقول، حتى قالوا عنه أنه كان فى كلامه كثير من

(١) فإننا أن نذكر ابن هانئ فى مقدمة الشعراء لتقدمه فى الزمن عمن ذكرنا، ولكننا أنسينا ذلك على أن الأدب فى الأندلس لا يظهر فيه اختلاف المذاهب الأدبية ظهورها فى المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدى الأندلسى، من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم. ذاع ذكره فى المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء. وعاش فى أرغد أيام دولة بنى أمية فى الأندلس. فقد مات فى سنة ٣٢٦ بعد أن عاش ستا وثلاثين سنة. فىكون مولده على هذا القول فى نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هى أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) فى هذا العصر عاش ابن هانئ. وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه.

وأصل أبيه هانئ من إفريقية. وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً فانتقل إلى الأندلس، فولد له محمد هذا بمدينة إشبيلية. وإذا كان أبوه أديباً وشاعراً: أى صنعته الأب يعيش منه ويرحل فى طلب السؤال به، كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر. وكانت إشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً. فنشأ بها وبرع فى الأدب واندمج فى صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك. وقد ورث الذوق الأدبى عن أبيه وتربى على حب الشعر. وعرف منزلة الشعراء وإدراك ما كان لهم من رفعة الشأن والإفاضة عليهم بالمال والثراء، وكان ذكياً نبهاً ميالاً للخفة والدعارة. وكانت بذرة الترف واللهو نبتت فى تلك البلاد فاندمج فى هذه البيئة اندفاعاً واتصل بصاحب إشبيلية ونال حظوته وانهمك فى الملاهى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا دينى. ثم جاهر بشيء من الآراء الممقوتة هناك فغضب عليه أهل إشبيلية وساءت المقالة فى حق الملك بسببه واتهم بمذهبه. فأشار الملك عليه بالغنية مدة لينس فيها خبره فخرج من إشبيلية وعمره ستة وعشرون عاماً ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز) أحد ملوك إفريقية=

الإفراط والغلو فى المدح المفضى إلى الكفر، وكان يتتبع أماكن الرزق لدى الخلفاء والأمراء كغيره من الشعر ويعيش على متون القوافى. وكانت حياته ككل حياة الأدباء التنقل والرحلة وإنشاد الشعر وحفظه، والاطلاع على الأدب واللغة وشيء من تاريخ الأدباء وحياتهم، ومعرفة أقوال الشعراء، ووعى أشهر كلامهم وأساليبهم وطرق التصور لديهم، وموازنة الكلام بعضه ببعض، والإمعان فى معرفة الجيد والردىء منه. لأن ذلك كان له ولأمثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه أفكاره ومعلوماته وتصورات، التى هى كل شيء لديه.

هذه كانت حياته العقلية وحياة أمثاله من الأدباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم، ولم يتجهوا إلى الاستفادة منها. ولم تكن لابن هانئ نزعة أدبية فى غير الشعر. فقد اتجه إليه بكل قواه العقلية وحصر جميع إدراكاته فيه. لذلك ظهرت مواهبه فى الشعر، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء.

أما شعره فهو فى جملة من الكلام الجيد. ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية إلى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها، ليدركها القارئ إدراكًا صحيحًا يتعظ به، أو يستفيد منه شيئًا جديدًا فى حياته العقلية، أو

= ثم اتصل بيحيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر صاحب فبالغا فى إكرامه. ثم علم بن المعز العبيدى أحد ملوك إفريقية فأجرى عليه كثيرًا من العطايا وأكرمه إكرامًا عظيمًا وكان محبًا للعلم والأدب وسافر المعز هذا إلى مصر فشيعة ابن هانئ ورجع إلى المغرب لآخذ. ولما وصل إلى برمة أضافه شخص هناك وبقي عدة أيامًا فى هناء وسرور ومجون بلغ أشده وقالوا أنه خرج من تلك الديار وهو سكران فنا فى الطريق فأصبح ميتًا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدو عليه وقتلوه. ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفًا شديدًا وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

يذكره برأى نافع، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع، كما هي الحال عند كبار الشعراء المفكرين. فشعر ابن هانئ به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل إلى آرائه وتصديقها. وبه أفكار عامة في الحياة والمجتمع الإنساني. وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة. ولقد يجد الإنسان روح المتنبي تدب ديباً في كلامه أحياناً. وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاءوا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا باب الحقائق الإنسانية في شيء ولا طرّقوا أبواب الحكمة. بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات. على أن ابن هانئ رغم طريقته المعروفة التي نسبت إليه، كان يظهر عليه أنه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدث في زمن المتنبي، وفي الأساليب لعربية لتي كانت قبل ذلك. فإن منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك. غير أنه بارع في جمع المعاني الغريبة ونظمها، واقف على كثير منها، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ، يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة. وله في كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوتة وسموها آراء فلسفية.

ولقد جرى في أسلوبه على الأسلوب القديم. بالبداية بالغزل والاسترسال فيه، وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء، ولعل ذلك جاء من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثير منه. ويأتي في قصائد المدح بكثير من الآراء والأفكار المختلفة وهي طريقة المتنبي بعينها. وبعض هذه القصائد مملوء بأوصاف الحروب وتمجيد الأمراء. وأسلوبه أسلوب رشيق سهل. حتى أن أبا العلاء المعري قال فيه: "ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً لأجل القعقة التي في ألفاظه".

وقال الضبى صاحب بغية الملتمس . " وهو كثير الشعر ، محسن مجيد ،
إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب على شعره " . ربما كان أسلوبه دليلاً على قول من
يدعى أن شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز فى الفكر والأساليب
كانوا يقفون أثر البدو القدماء .

وأول شىء يشعر به الإنسان عند قراءة شعر ابن هانئ أنه شاعر لا كغيره
من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلاً على ملكة الشعر
لديه . إن الصبغة الخاصة التى تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شىء
من شخصيته فى كلامه هى علامة من علامات الافتنان التى من أجلها
يحسب من بين الفنين وليس الافتنان غير إبراز الجمال وكشف دقائق ما فيه .

وما هو جمال الشعر؟ أليس هو ذلك الدبيب الذى يدب فى النفوس
فيملاًها بهجة وارتياحاً ، ويحملها على الإعجاب بالكلام وما فيه؟ أليس
جمال الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات
المزاهر والأغاني؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعانى وتنسيقها وتناسبها
وتقابلها وترتيبها ، ونظمها بأسلوب يتحایل به الشاعر على أن ينال من نفس
غيره وشعوره ، وأن يتقرب إلى فؤاده وامتلاك عقله ، وأن يحرك القلوب
والعواطف ، ويحكم على العقول بالإصغاء إليه ، والتصديت لما يقول؟ . هذه
حقيقة جمال الشعر كما أن ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال
الفنون هو فى معرفة تصوير الأشياء أو المعانى مع دقة الفنى فى ذلك . ولقد
يكن الافتنان تقليدًا متقنًا لشيء معروف . هذا التقليد المتقن هو ما يراه الإنسان
جميلاً . فليس من لوازم الافتنان فى الشعر ابتكار المعانى ، بل الإحاطة بها مع
دقة إبرازها .

وهذا ما يشعر به القارئ فى أكثر شعر ابن هانئ، يشعر بسعة خيالية، ودقة إدراكه، وحسن اختياره، وتنسيق صناعته، وافتنانه الخاص، الذى يدل على أن الكلام كلامه، والأسلوب أسلوبه. يتغزل ابن هانئ كما يتغزل غيره. ولكنه غزل غير غزل غيره، تشعر عند قراءتك له أنه شاعر ممتاز، له صفة خاصة وذوق خاص. يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته، ويخاطبها ويصفها بما يدعو إلى الإعجاب بها ويحرك العواطف إليها. وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح، وحيه الصادق، وربما لم يكن شىء من ذلك. أرايت كيف يتغزل فى قصيدة مدح:

فتكات طرفك أم سيوف أبيك	وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر	ما أنت راحمة ولا أهلك
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده	أكذا يجوز الحكم فى ناديك
قد كان يدعونى خيالك طارقاً	حتى دعانى بالقنا داعيك
عينك أم مغناك موعدنا وفى	وادی الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو	عشروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة	لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكحل فى جفونك حلية	تالله ما بأكفهم كحلوك
ولوى مقبلك اللثام وما دروا	إن قد لثمت به وقبل فوك

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفاً، وقد يكون تشبيه الريق بالخمير والإشارة إلى أن التكحل غير الكحل معروفاً أيضاً، ولكن ما ليس معروفاً هو ذلك الأسلوب، هى روح الشاعر التى لبست هذه المعانى، وكأنما قيست عليها

أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتى فى أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بديعة مع أسلوبه المعروف فى البدء بالغزل. كقوله:

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد	وانفضوا عن مضجعى شوك القتاد
أو خذوا منى ما أبقيتموا	لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجبرون محبًا من هوّى	أو تفكون أسيرًا من صفاد
أسلوا عنكم من هجركم	قلما يسلو عن الماء الصواد
إنما كانت خطوب قيضت	فعدتنا عنكم إحدى العواد
فعلى الأيام من بعدكم	ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى	أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قد عقلنا العيس فى أوطانها	وهى إنضاء ذميل ووخاد
وحديث عنكم كثره	عن نسيم الريح أو برق الغواد
لم يزدنا القرب إلا هجرة	فرضنا بالتئانى والبعد
وإذا شاء زمان رابنا	برقيب أو حسود أو معاد

ثم دخل على المدح بهذا الأسلوب، والأضاب الذى لا يمل، مع اختياره جميل الصفات وتعدادها، حتى أنه ليخيل إلى الإنسان أنه أفضل مدح، أو أنه ليس وراء ذلك من إطراء. فقال:

من أمام قائم بالقسط أو	منذر منتخب للوحي هاد
أهل حوض الله يجرى سلسلا	بالظهور العذب والصفو البراد
أسواهم ابتغى يوم الندى	أم سواهم ارتجى يوم المعاد

هم أباحوا كل ممنوع الحمى وأذلوا كل جبار العناد
وإذا ما ابتدر الناس العلى فلهم عاديها من قبل عاد
ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد
ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب، حتى لا تعرف أهو شاعر
أم مادح أم عاشق أم مبتكر للمعانى أم موحى إليه بها كقوله:

قد مررنا على مغانيك تلك فرأينا فيها مشابه منك
عارضتنا المها الخارثد أسرا بآ بأجرعها فلم تسل عنك
لا يرع للمها بذلك سرب فلقد أشبهتك إن لم تكنك
فحين مرجع كحني وتشك مردد كتشكى
فاقتئد تسكب الدموع كسكى ثم لا تسفك الدماء كسفكى
لا أرى كابن جعفر بن على ملكا لابسا جلالة ملك
تفادى القلوب منه وجبيا فى مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه جانب السجف عن حياة وهلك
ولقد يصف فيدع فى الوصف، وتظهر ميوله المجونية فى شعره،
فيكون أصدق ما يكون، وأرق إنسان، عذب الألفاظ رشيقا، خفيف الروح
مبدعا جذابا:

قمن فى مأثم على العشاق ولبسن الحداد فى الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط ب المقنا وبالخدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق

ومع الجيرة الذين غدود م
حاربتهم نوائب الدهر حتى
ودنوا للوداع حتى ترى الأجي
يوم راهنت فى البكاء عيونًا
أمنع القلب أن يذوب ومن يم
رب يوم لنا رقيق حواشى الل
قد لبسناه وهو من نفحات الم
والأباريق كالظباء العواطى

مصغيات إلى الغناء مطلا
وهى شم الأنوف يشمخن كبرًا
قدمتها السقاة كى يوقروها
فهى أما يشكون ثقلًا من الوق

ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتقليده المتنبى، حيث يث
الحكم/ أو شيئًا من التهكم، بينما هو يتكلم فى المدح أو فى الغزل. ولقد
يسبق إلى فكره شيء من المبالغة فيجربى به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير
قصد. كقوله فى المدح.

وما الجود شيئًا كان قبلك سابقًا
وفى هذه القصيدة يقول:

عبثت زمانًا بالليالى وصرفها
فها هى بى لو تعلمون عواث

لئن كان عنق النفس للنفس قاتلا
وإن كان عمر المرء مثل سماحه
إذا نحن جئنا اقتسمنا نواله
وإن حراماً أن نؤمل غيره
تبسمت الأيام عنك ضواحا
وما تغور الملك بعد انثلامها
فما زاد فى بحبوحة الملك رائد
وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح . ويتنقل من معنى إلى آخر ، ويميل دائماً إلى الوصف الغزلى . كقوله :

قمر لهم قد قلده صارماً
صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحي
وكأنما طبعوا له من لحظه
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه
خالسته نظراً وكان مورداً
فأذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التى مرت فى حياة الممدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وقصائده فى ذلك كثيرة .

وهو فى رثائه جيد أيضاً ، يأتى بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب الفلسفى المعروف فى المشرق . ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد بخيل فحسد
 كلما أعطى فوفى حاجة بيد شيئاً تلقاه بيد
 كاذب جاء جهاماً زبرجاً بعد ما أومض برق ورعد
 إنها شنشنة من أخزم قلما ذم بخيل فحمد
 خاب من يرجو زماناً دائماً تعرف البأساء منه والنكد
 فإذا ما كدر العيش نمي وإذا ما طيب الزاد نفد
 فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقـد
 أبداً يعجم منى نبعة وقناة ليس فيها من أود
 واستقصاء الجيد من شعره يدعو إلى الخروج من مثل هذه الملخصات،
 فعلى من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع إلى ديوانه المطبوع بمصر سنة
 ١٢٧٤ هـ.

ابن الحداد^(١)

كان ابن الحداد من أهل وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق فى الأدب واللغة، لأن نثره فنى مملوء بالمعانى، وأسلوبه سهل متين، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس، هادئ فى كلامه، جزل فى ألفاظه واضح غير متكلف فى معانيه، يلمح المعنى فى ذهنه كما يلمح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ فى خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويمتزج هذا بهذا، أو كأنما قيس كل منهما على صمت صاحبه. فإذا أراد أن يكتب ازدحمت أمامه المعانى، وتراكت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التى تمر بذهنه وذكرته، فيأخذ منها ما سبق إلى لسانه، وما علق بذاكرته. لذلك تجدد فى رسائله المعنى الطريف واللفظ الظريف، وكلام غيره وصناعة سواه، من مناهج الأدباء وأساليب الشعراء. وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد. لا

(١) هو الأديب أبو عبد الله محمد بن الحداد. عاش فى دولة ابن عباد وتوفى سنة ٤٨٠ وكان ملازمًا للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذى كان معاصرًا للمعتصم بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين فى الأندلس. وقد عاش ابن الحداد فى كنف ابن صمادح وابنه معن وخصهما بمدحه. وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير متبذل ولا متغال. وكان لا خلافة أثر فى ذلك لأنه كان كبير النفس مبجلًا محترمًا من جميع الناس.

وذكره الأدباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية فى شعره وميزوه عن بقية الشعراء والكتاب من أصحاب الأساليب الخيالية. وقد حسبوه من أصحاب الآراء والفلسفة لابتعاده فى كثير من شعره عن المجون الذى كان سمة لأكثر الشعراء هنالك، وكانوا يحسبون الكلام الجدى الخالى من المزح والهزل فلسفة كما نسبوا إليه الفلسفة فى قوله:

لزمت قناعتى وقعدت عنهم	فلست أرى الأمير ولا الوزير
وكننت سمير أشعارى سفاهاً	فعدت لفلسفياتى سميراً

يخرج عن المعنى الذى يريد، ولا عن رأى الذى إليه قصد. ويقفوا أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ. وقلمه جواب، ونفسه طويل، وكلامه فيه كثير من الأطناب ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره. وجملة القول أن أسلوبه النثرى من الأساليب الأدبية التى تساعد على تقويم الألسنة مما اعتبرها من العجمة. وهذه رسالة له:

" لما كان الكتاب وأعزك الله جلاء الأقداء، وصقال الأصدقاء، وعقال الأدواء، وسمتنى منه بوسام، ولفحنى منه بسموم، وأسمرت حسوا فى ارتغاء، وأدمجت ما فى ثناء، والحر يأنف من الضيم، ويشمئز من الدم، ولا يقتصر على الاجتزاء، بغير الجزاء، ولو ترك القطا ليلا لنام، وفى العتاب حياة بين أقوام، فاصطبر لشرب صبره، وانتدب لتسوغ مره، فمن الحكم العدل، والقضاء الفصل، أن ألدعك بما لذعتنى، وأجرعك بما جرعتنى، غير آفك فى حال، ولا مباحة بمحال، والتمويه ليس من خلق الكريم، والحر على ما أساء يصر، وكل مجر فى الخلاء يسر. والفضل لمن حواه، لا لمن زخرف دعواه، وتحقيق البرهان، غير تنميق البيان، والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال، لا فى إمكان الزمان، وإقبال السلطان، وقيمة كل امرئ ما يحسن. أمثال أضربها عليك، واضحة المناهج، ومقدمات أنشأتها معك، صادقة النتائج، وجمل تشتمل على تفصيل حالينا، ونبد تشير إلى ما فيه جرينا، وقد همنى عتابك وإجلابك بريح تعصف، ورعد يتصف، واستقبلنى خطابك وإطنابك، بويل يخسف، وسيل ينسف، بلغ الزبى وزاد، وغمر الربا والوهاد، لو أم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنوار الخ^(١) . . . " .

(١) راجع بقية الرسالة فى الجزء الأول من الذخيرة.

أما طبقته بين الشعراء، فهو من الشعراء المفكرين أكثر منه فى وصف الخياليين الذين يصفون الأشياء وصفًا أو يذكرونها كما يرونها. وحتى فى كلامه الوجدانى له أسلوب خاص، يدل على أن فكره هو الذى يرشده، ويحرك لسانه، ويملى عليه بيانه. ومع أنه كان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين، كان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه، ظهرت فيه مواهبه فى هذا النوع.

واشتهر عنه أنه أحب فى صباه فتاة نصرانية بلبه، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم فى أوصاف المسيحية والقسس والكنائس والصلوات، من الأشياء النادرة فى الشعر العربى، فخرج عن عادة الشعراء فى الاختصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق. وهذا يدل على شىء من الابتكار، وسعة الخيال، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون فى الحياة. وكلام ابن الحداد فى النصرانية وأهلها وإن كان قليلا فهو جديد فى الشعر العربى، ألمح إليه بعض الأماح المتنبى وأبو العلاء وغيرهما، مع أن كثيرا من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعمالهم الدينية، ولكن لقصر فى خيالهم وجمود فى عقائدهم، لم يحوموا حول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعاشرون من الأمم التى تدين بغير دين الإسلام، وما كانوا عليه فى أعمالهم الدينية المملوءة بالإلهامات الشعرية والخيالات.

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سببًا من أسباب طرق هذا الموضوع لديه. ولكنه كان يرى ما لا يراه غيره. قال فى حبيبته:

فإن لى بالروم رومية
أهيم فيها والهوى ضلة
وفى ظباء البدو من بزدرى
أفصح وجدى يوم فصيح لهم
وقد أتو منه إلى موعده
مواقف بين يدي أسقف
وكل قس مظهر للتقى
وعينه تسرح فى عينه
أى امرئ سالم من هوى
وقد تلوا صحف أناجيلهم
يزد فى نفسه يعافيره
والشمس شمس الدجى من بينهم
وناظرى مختلس لمحها
ففى الحشا نار نورية
لا تنطفى وقتًا وقد رمتها
حبيبًا عنى رشا بالحناء

تكنس ما بين الكنيسات
بين صواميع ويوعات
بالطبيبات الحضريات
بين الإريطى والدوحات
واجتمعوا فيه لميقات
ممسك مصباح ومنسات
مبد لأنصات واخبات
كالذيب يبغى فرس نعجات
وقد رأى تلك الطبيات
بحسن ألحان وأصوات
عنى وفى ضغط صباباتى
تحت غمامات اللثامات
ولمحها يضرم لوعاتى
علقته منذ سنيات
بل تتلظى كل أوقاتى
وإن أبى رجع تحياتى

قلنا إن هذا شىء جديد فى الشعر العربى أو من نوادر أشعار العرب .
جاء هؤلاء الشعراء من اختلاطهم بغيرهم . وقد رأينا رسالة نثرية لابن شهيد

تشبه هذا وهذا الكلام جديد أيضاً فى أسلوبه، لأنه تكلم فى حبيبته ثم فى القسس، ووصف الصلاة والغناء، وكل هذا جديد، لأن شعراء العشاق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النساء إلى شىء آخر. على أن هذه العبارات طريفة. وقال فى هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر.

ك حياأتى وإهلاكى	فلإن الحسن ولا
ورهبان ونساک	وأولعنى بصلبان
هوى فيهن لولاك	ولم آت الكنائس عن
ولا فرح لبلاوك	وها أنا منك فى بلوى
فقد أوثقت إشراكى	ولا أسطيع سلوانا
ولا ترثين للباكى	وكم أبكى عليك دما
على عيني عيناك	فهل تدرين ما تقضى
بقلبي نورك الذاكى	وما يذكىه من نار
وفوق الشمس سيماك	حجبت سناك عن بسرى
النقا المرتج عطفاك	وفى الغصن الرطيب وفى
ك وفى رياه رياك	وعند الروض خدا
نى أهواك أهواك	نويرة إن قليت فلإن
ن بانى بعض قتلاك	وعيناك الشهييدا

وقد أفتن فى معانيه وفى كلامه فى هذه النصرانية، واجتهد فى مزج أوصافها ومسائل عقائدها فى شعره، فأخذ شعره لوناً جديداً باهراً غير مألوف فى العربية. ففيها يقول:

وبين المسيحيات لى سامرية
مثلة قد وحد الله حسنهما
وتحت الخمار الجون حسن كأنما
وفى معقد الزنار عقد صبابتي
وفى هذا المعنى يقول أيضاً:

وفى شرعة التثليث فرد محاسن
وأذهل نفسى فى هوى عيسوية
فمن لجفوتى بالتماح نورة
سبتنى على عهد من السلم بيننا
واصطبج مع المعتصم يوماً ومعه ندماؤه وأظهر صبية متصرفة فى أنواع
اللعب والطرب، وحضر أيضاً لاعب مصرى هناك فارتجل ابن الحداد:

كذا فتلح قمرًا ظاهرًا
وسيبك سيب ندى مغدق
وإن ليومك ذا رونقًا
صباح اصطباج بأسفاره
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس
وأسمعنا لاحقًا فاتنًا
يرفرف فوق رءوس القيا
ونجنى الهوى ناظرًا ناضرا
أقام لنا هاملا هامرا
منيرًا لنور الضحى باهرا
لحظنا محيا العلا سافرا
وما زال كوكبها زاهرا
وأحضرتنا لاعبًا ساحرا
ن فننظر ما يذهب الناظرا

ويخطفها ذيل سر باله فتبصر طالعها غائرا
 فظهرها ينثنى باطنا وباطنها ينثنى ظاهرا
 وثناه ثان لألعبابه دقيق تننى الحجى حائرا
 وفى سورة الراح من سحره خواطر دلهت الخاطرا
 إذا ورد اللحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا
 ومن بدع نعماك أبداعه فما أنفك عارضها ماطرا
 وسعدك يجتذب المغربات ويجعل غائبها حاضرا
 ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح . كقوله فى مدح بنى هود
 وقد أكرمه المقتدر وأعلا من شأنه فمدحه بقوله :

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفانى وأجرت عقيق الدمع فى صحن أجفانى^(١)
 وألقت حلاها من أسى فكأنها أطارت شواذى الورق من فتن اللبان
 وأذهلها داعى الهوى عن تنقب فحيا محياها بتفاح لبنان^(٢)
 وقد أطبقت فوق الأقاحى بنفسجا
 وليل بهيم سرته ونجومه أزاهر روض أو سواهر أجفان
 كأن الثريا فيه كأس مدامة وقد مالت الجوزاء ميلا نشوان
 وما الدهر إلا ليلة مدلهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان

(١) و(٢) كذا الأصل .

وقصائده كثيرة فى الجزء الأول من الذخيرة، وفيها جملة من نثره،
وذكره صاحب فوات الوفيات فى الجزء الثانى. وابن خاقان فى مطمح
الأنفس. وفى فهرس الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا المواضع التى
ذكره فيها المقرئ.

ابن خفاجة الأندلسى

هو أبو اسحق إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة الأندلسى الشاعر الأديب المشهور. ولد ببلدة شقر، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر. وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣. عاش فى عصر المرابطين بعد زوال دولة بنى أمية والدولة العامرية، وبعد انتهاء دولة بنى عباد، أى فى عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه، وكان الأدباء فى لهو ومجون، وكانت الملاهى والاشتغال بالملذات صرفت إليها العقول، وجذبت إليها الأفكار، فهدبت منها قليلا أو كثيرا. وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال، ومنى عشقت الجمال مالت إلى فهمه، وانغمست فى إدراك أسرار الطبيعة، وما فيها من روعة وإبداع. فإذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة، أدركت جمال الكون إدراكاً عميقاً - كما يقولون - وبحصت عن خفائيه بحث الفيلسوف عن الحقائق، وكان الشاعر فيلسوفاً فنياً وشاعراً فيلسوفاً، يظهر الفلسفة فى ثوب شعري، ويظهر الشعر فى ثوب فلسفى. أما إذا كان فنياً بطبعه، ولم يكن له نصيب من العلوم، فإنه يكتفى بالنظر إلى الأشياء، وفهم جمالها، على حسب ما بها من التناسق الظاهر، والمناظر الباهرة، وجمال الألوان، وكل ما توحىه الطبيعة إلى النفس من الإعجاب. ولقد يؤثر هذا الشاعر فى النفس بجمال قوله، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه.

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذى وقف كل مواهبه لإدراك الجمال، وفهم ظواهره الرائعة المثبثة فى أنحاء الكون. فهو من الشعراء الذين

ربتهم الطبيعة بجمالها، وهذب إدراكه جمال الوجود، فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال، وانغمس انغماساً في ذلك، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع، ولا يفهم غير المعانى الجميلة. فقد كان يخرج إلى البرارى ليسمع خرير المياه، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا، وبكل ما يقال فيه، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم فى مثل هذه المعانى التى شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء. وكان الكلام فى مناظر الطبيعة إذ ذلك من بدع البلاغة والأدب. فقد قالوا "ركب بعض الأدباء مع أصحاب له فى نهر إشبيلية فى عيشة سال أصيلها على لجين الماء عقيانا، وطارت زواريقها فى سماء النهر عقبانا، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سرراً وأعطانا، فى زورق يجول جولان الطرف، ويسود أسود الطرف، فقال بديهاً:

تأمل حالنا والجو طلق محياه وقد طفل المساء
وقد حالت بنا عذراء حبلى تجاذب مرطها ريح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثرى تعبس وجهها فيه السماء
واتفق أن وقف أبو إسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها
واستطابها. فقال يعارضها:

ألا يا حبذا ضحك المحيا بحانتها وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ الماء نهر ينازع جلّه ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الماء تجسده السماء
فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيمًا، وكانت له ميول

للمجون. فاجتمعت هذه الميول النفسية، إلى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية وخیالاته وتصوراتہ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملئ عليه من المعانى ما يرسم شيئاً من أخلاقه وميوله فى الحياة. كما قال:

وما الإنسان إلا فى مجاج زجاجة ولا العيش إلا فى صرير سرير
وأنى وإن جئت المشيب لمولع بطرة خل فوق وجه غدير
كذلك كانت ميول ابن خفاجة، وهكذا كانت أخلاقه، فكانت كأخلاق كل الفنين وميولهم: خفة وطيشا. ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه. وهذا كله فى شعره ونثره. وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال. حتى أنه وصف الأندلس وقال:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه، فإنه كان يحب بلاده، لأنها جميلة تشبه ما يحب فى حياته من الجمال، إذ يقول:

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجاليتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا صحت وأشوقى إلى أندلس
هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية فى جملتها وأثرها ظاهر فى حياته العقلية، وفى رسائله الثرية وقصائده الشعرية.

لذلك كان صاحب مذهب كتابى، وأسلوب أدبى، يوازن بأبى تمام فى شعره وذهبه، وبابن العميد أو الهمداني فى النثر والكتابة. فإنه يشبه أبا تمام

من حيث الميل إلى تنميق عباراته الشعرية والتعمل قليلاً أو كثيراً في ذلك، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع. ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن ذلك جاءه عفواً أو كأنه سليقة له. وهو على ما يظهر من شعره من المتشيعين لطريقة أبي تمام، المعجبين بها. كما أن غيره من الشعراء كان يقفوا أثر المتنبي في أسلوبه ويتشبه به في آرائه الفلسفية. ولكننا لم نر أحداً فاق المتنبي في أسلوبه الفلسفى، بل كانوا جميعاً مقلدين أو مغترفين من بحره. حتى أنهم لم يبلغوا شأوه، ولكن بن خفاجة أخذ عن أبي تمام وجاراه وفاقه في أسلوبه، لأنه غير متكلف كأبى تمام. بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية. حتى لقد يذكر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام، ولكنه خال من كل كلفة أو لعمل ظاهر. ذلك لأن ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام. ويكفى أن يتكلم الإنسان عن شعور ليمتاز فى كلامه ويلمس القلوب بعباراته.

ويظهر عن عبارات ابن خفاجة أنه كان متمكناً من صناعته، عارفاً بها، سائراً على منوال واحد فيها، فى نظمه ونثره. وليس نثره غير منشور، ولا شعره غير نثر منظوم. فإن رسائله القليلة التى عثرنا عليها، هى من قبيل النثر السهل المتكلف، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان. وهو مع ذلك رقيق الأسلوب. ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجمالها بعقله، وامتلاكها قوة الخيال منه.

كتب رسالة يصف فيها منتزهاً وكأنما قلمه ريشة مصور ماهر، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه، فترى كل ركن من أركانه، وكل ناحية من أنحائه، وكل زهرة ووردة، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك

نسيمها العليل، وتجري أمامك الجداول والأنهار. ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع وكأنما هو مرسل. وتجذ الجملة الطويلة المسجوعة، على حين أنك تجذ كلمة واحدة شطر سجعة أو سجعة كاملة قال: "... ذهبت في لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضًا، ونطوى التفرج أرضًا، فلا ندفع إلا إلى غدير نغير قد استدارت منه في كل قراره سماء. سحائبها غماء، وانساب، في كل تبعة حباب، جلده حباب، فترددنا بتلك الأباهج نتهادى تهادى أغصانها، ونتضحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى، على بساط وشى. فإذا مر بغدير نسجه درعًا، واحكمه صنعًا، وإن عبر بجدول شطب منه نصلا، وأخلصه صقلا، فلا ترى إلا بطاحًا، مملوءة سلاحًا، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول، ... فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان سندسية رواق الأوراق. وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، وتشمل عليه برداء نسيم عليل، ونجمل النظر في نهر صقل، صافى لجين الماء، كأنه مجرة سماء. موتلق جوهر الحباب، كان من ثغور الأحباب. وقد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطاقة، فهو يعلم غرضها وهواها، ويغنى لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر، يشفى من الوقر، كأنه كاتب حاسب تمشق يميناه، وتعقد يسراه، يحرك حين يشدو ساكنات، وتنبعث الطبائع للسكون.

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فقد يضيق الطريق فى وجهه، وقد يثقل كلامه ويتكلف فى عبارته. كما فى رسالة يعاتب فيها^(١).

(١) قالوا كانت بين أبى اسحق وبعض إخوانه مقاطعة فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصناً فخطبه أبو اسحق برقعة منها: "أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه الزيهة عن=

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل فى المشاهدات، ولا سيما المناظر الطبيعية، متأثراً بالمنظورات، يحرك عقله نظره. للألوان وتناسقها سلطان عظيم عليه، وكل معلوماته جاءت من طريق النظر إلى الأشياء، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يلاحظ. ولم يكن له إلا أن يلبس هذه المنظورات عبارات وألفاظاً بليغة فصيحة. وإذا كان بطبيعته فنياً كان اختياره للألفاظ

=الاستثناء المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرمى للجزم، واعتلت ولو يغزو لموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة. وأنا أستنهض طولك إلى تحديد عهدك بمطالعة ألف الوصل وتعديه فعل الفصل. وإلى عدولك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع، حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت، ويدخل الانتقال حال الصمت، فلا تتخيل أعزك الله أن رسم إخوانك عندى . . قد درس عفاء، ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء. وإنما أنا فعل إذا ثنى، ظهر من ضمير وده ما بطن، وبدا منه ما كمن، وهنيئاً أعزك الله أن فعل وزاترك حاضر لا يلحق رفعه تغيير، وأن فعل سيفك ماض فيه ما به للعوامل تأثير، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف. تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف. ودرس حرف العطف، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عبتك، وتوجب بعد التقى ما سلف من عبتك. وتدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين. وترفع بالإضافة بيننا وجود التوين. وتسوم ساكن الود أن يتحرك. ومعتقل الإخاء أن يصح، وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الأولى صفة. وتصير هذه النكرة معرفة، فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنيل، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل، وأنت وإن تأخر العصر بك كالفاعل ورقع مؤخراً. وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا مصغراً. وللأيام علل تبسط وتقبض، وعوامل ترفع وتنخفض. فلا دخل عروضك قبض. ولا عاقب رفعك خفض، ولا زلت مرتبطاً بالفضل شرطك وجزاؤك. جارياً على الرفع سروك الكريم وسناؤك، حتى تخفض الفعل. وتبنى على الكسر قبل، إن شاء الله" راجع نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٥.

والجمل حسناً جيداً، كما يختار المصور الماهر الألوان الجميلة اللازمة له .
لذلك، كان أسلوبه جميلاً، وعباراته سهلة، وكلامه سائغاً للنفس، بعيداً عن
كل تقعيد أو تركيب ركيك، أو غموض فى اللفظ أو المعنى . ويكاد يكون
ديوان شعره من أوله إلى آخره على نسق واحد فى المتانة وحسن العبارة،
وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة . ولكن تكرار المعانى لا يكاد يجد
له القارئ أثراً لبراعة الشاعر واختياره المعانى التى كلما مرت بالنفس أو
بالسمع تجدد أثرها بتجديد ألفاظها، وتتغير أثرها بتغير تراكيبيها .

ولقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر فى لوحة مصور، أو كأن كل معنى
فى كلامه "كائن حى" يتحرك أمامك . قال يصف طيفاً ألم به فى الليل
الطويل، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون فى هذا الموقف من وصف
ملاقاته لحبيبته، والتمتع به فى حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك
الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين، وهو تشبيه سهل الإدراك
صعب التركيب . وليس هذا الكلام فى طاقة كل شاعر، ولا امتلاك البيان
بمثل هذا فى طوع كل فتى يتكلم فى الليل ثم فى الطيف ووصفه بأرق ما
يصف به حبيب حبيبته، وأحسن ما ينال عاشق من عشيقته، وقد دام إلى طلوع
الفجر، وعيون الليل تتجسس أخبارهم، وضوء الصبح يرقبهم :

ورداء ليل بات فيه معانقى	طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رضا به وشرابه	وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة	شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مشمط الذوائب كبرة	خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه	ويجر من طرب فضول رداء

تندى بفيه اقحوانة أجرع
 وتميس فى أثوابه ريحانة
 تفاحة الأنفاس إلا أنها
 فلويت معطفها اعتناقاً حسبها
 والفجر ينظر من وراء غمامة
 فرغبت عن نور الصباح لنورة
 ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل ركن من
 أركان الفضاء . وما قد توحيه إلى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقيه
 السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارئ نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر
 الليل . كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم فى ظلماتها
 تسرى ولا فلك ها دوار
 تتلهب الشعري بها وكأنها
 فى كف زنجى الدجى دينار
 ترمى به الغيطان فيها والربى
 دولا كما يتموج التيار
 قد لفنى فيها الظلام وطاف بى
 ذئب يلم مع الدجى زوار
 طراق سادات الديار مساور
 ختال أبناء السرى غدار
 يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا
 فى فروة قد مسها اقشعرار
 فعشوت فى ظلماء لم تقدح بها
 إلا لمقلتــــه وبأسى ثار
 ورفلت فى خلع على من الدجى
 عقدت لها من أنجم أضرار
 والليل يقصر خطوه وربما
 طالت ليالى الركب وهى قصار

قد شاب من طرف المجرة مفرق
وكما قال:

وليل كما مد الغراب جناحه
به من ومبض البرق والليل فحمة
سريت به أحييه لاحية السرى
يقلب منى العزم إنسان مقلة
بخرق لقلب البرق خفقة روعة
سحيق ولا غير الرياح ركائب
كأنى وأحشاء البلاد تجننى
أجوب جيوب البید والصبح صارم
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب
ووصف نارا هبت عليها ريح فأضرمتها وكأما يتغازلان . أو كأن النار
والريح فى موقف طرب يمايلان من تشويه . أو كأن الريح عاشق متيم يلثم
خد اللهب الخجل . أو كأن فى موفد النار ماء عليه من نجوم حبيب . فقال:

لأعب تلك الريح ذاك اللهب
وبت فى مسرى الصبا يتبعه
سهرته أحسبه متشيًا
لو جاءه منتقد لمادى
تنسم منه الريح خدا خجلا
فعاد عين الجد ذاك اللعب
فهولها مضطرم مضطرم
يهز عطفه هناك الطرب
ألهب منتقد أم ذهب
حيث الشرار أعين ترتقب

فى موقد قد رقرق الصبح به ماء عليه من نجم حبيب
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلفه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدت ليلا عليه شهب
ووثف ساقياً جميلاً، فوصف الخمر أيضاً ومجلسه، وكأنما السرور يسيل
بين ألفاظه، والنعيم والسعادة يتمثلان فى كلامه. فقال:

وأغيد فى صدر الكلام لحسنه حلى وفى صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فمنعم خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نور وجهه وقامته نواره وقضيب
جلاها وقد غنى الحمام عيشة عجوزاً عليها للجباب مشيب
وجاء بها حمراء أما زجاجها فنور وأما موجهها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كنرجس ومبتسم للأقحوان شنيب
فالله ذيل للتصابى سحبه وعيش بإطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله، وينبه من إدراكه، ويدفعه إلى ابتكار
المعاني الجميلة. فقد رأى رجلاً أسود أحذب يسقى خمراً فقال فى ذلك:

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره
فظل يسود لوناً والكأس تسطع حمرة
كأنه كيس فحم فد أوفدت فيه جمره
وللمدام مدير يشب جمرة خمرة

تضاحكت عن حباب	يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو	تة وأصفر دره
حتى تثيت غصناً	واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف	به من السقم فتره
يجول للغيم كحل	فيه وللقطر عبره

ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة، وملاحظات جميلة، ويخرج من معنى إلى آخر. وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معاً، لأنه يبدع ويبتكر فى التعبير. كقوله:

وليل إذا ما قلت قد باد فانقضى	تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجى فيه سود ذوائب	لأعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس	تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعاً من الفجر أغبشا	تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طمـاح الذؤابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلا شبهه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه	طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم	لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت	فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل	وموطن أواه تبتل تائب

وقال بظلى من مطى وراكب
وزاحم من خضر البحار غواربى
وطارت بهم ربح النوى والنوائب

وكم مربى من مدلج وملوب
ولأطعم من نكب الرياح معاطفى
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وكما فى قوله فى المشيب:

أسميه مسامحة مشيبا
وأعظم منه رزاء أن يغيبا
للافيت الفتاة به حضيبا
إلى أمل ولم أبرح حبيبا
حياتى آل أسوده غريبا
شئت بمجتلى النور القضيبا
يكون له شبيهًا أو نسيبا
وهل طرب وقد مثلت خطيبا

أرقت على الصبا لطلوع نجم
كفانى زره نفس أن تبدى
ولولا أن يشق على الغوانى
فلم أعدم هناك به شفيعًا
غريبة شيب فود أن تراخت
شئت بمجتلاها النور حتى
وعفت كراهة للشئ شيئًا
وأيه شيبه إلا نذير

ويمدح فلا ينسى جمال الكون، وفى كل مدحه يميل إلى أن يكون
جميلًا فى كلامه وأوصافه، ولعله لا يقصد إلى ذلك، وإنما هذه هى طبيعة
ونوع إدراكه. قال:

وراء الليل عن ثغر شنيب
أنت به ونعم أخو الغريب
يخفرننى إلى المرعى الخصيب
سليم القلب والصدر الرحيب

لقد ضحك الصباح بمجتلاه
وظاهرنى بمغتربى حسام
أشيم به سنا برق يمان
إلى جذلان وضاح المحيا

إلى يقظان وقاد العوالى مريش السعى بالرأى المصيب
يساور منه طوراً ليث غاب ويمسح تارة عطفى أديب
إذا استمطرت منه غمام رحى أو استنصرت فى يوم عصيب
ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان فى أبيات قليلة وهو يبدع التصوير
ويسيل كلامه ورقة . كقوله :

وصقيل إفرد الشباب بطرفه سقم وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة ولربما أطرته طوراً نشوة وشباب
شتى المحاسن للوضاء ربطة أبداً عليه وللحياء نقاب
وبمعطفه للشبابة منهل قد شف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حبابة ويموج من ردف ألف عباب
وكل شعر ابن خفاجة من الوجدانيات المملوءة بالصور والخيالات
والأوصاف الدقيقة، وأكثره خال من الأفكار النفسية والفلسفية والاجتماعية،
فقراءته أشبه بالنظر إلى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى ببهجتها.

ابن سهل

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي^(١) الإشبيلي الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجري. مات سنة ٦٤٩ هـ بعد أن عاش أربعين عاماً، وقالوا أنه مات غريقاً مع أحد الولاة. وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكابر العلماء، ونبغ في الشعر حتى قالوا عنه أنه شاعر إشبيلية ووشاحها. وظهر نبوغه في الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء^(٢). وعلى الرغم من أن العصر الذي عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب في الأندلس، فإن الشعر كان لا يزال على حاله من الرقي وحب الشعراء وتمجيدهم. بل كانت هذه الأيام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها، فقد كثر الافتتان في أنواع الشعر من موشحات وغيرها. بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء. من كل نوع. ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط في مدنياتهم، أو تقهقر في حضارتهم، بل سقطت الدولة وهي في عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لأن ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها،

(١) عنى أصحاب التراجم بعقيدته ورووا أنه سلم في آخر أيامه، وبحثوا في صحة إسلامه ورماء بعضهم بعدم الإخلاص، وقالوا أنه كان يتظاهر بالإسلام، حتى قالوا أن تمسكن اليهودية من نفسه كان له أثر في شعره وقالوا في ذلك "سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية" وذلك لإعجابهم بنظمه

وقالوا فيه لما بلغهم غرفه. عاد الدر إلى وطنه. ورووا عنه في صحة إسلامه قوله:

تسليت عن موسى بحب محمد هديت ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن قلبي قد كان ذاك وإنما شريعة موسى عطلت بمحمد

(٢) راجع حديثه مع الهيثمي في فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠.

ولكن عوامل الحقد دبّت في نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض، حتى خرجت الدولة من بدهم وهم في عز جاههم. وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلى. لذلك كان عصر بنى هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بنى الأحمر، وحتى عصر برابرة إفريقية خاصة بالعلماء والأدباء والشعراء، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والعقول، لأنها كانت دائماً نتيجة الجهود السابقة. وأرق شعر الأندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بعد زوال دولة بنى أمية، التى كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك. لذلك يمكن القول بأن اللغة العربية فى جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس فى أثناء القرون الثمانية التى تخبطتها فى الأندلس، سوى ما حصل من المبالغة فى طريقة السجع الثرية. ويمكن أن نقول أن ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع، يشبه غيره من شعراء القرن الثانى والثالث، وأن سير اللغة والأدب فى الأيام الأخيرة مثله فى الأيام الأولى، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهوروا فى تلك الأيام، ولأننا لا نجد شيئاً من تقهقر اللغة فى آخر الدولة.

ولو أننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود العقول التى أثمرت قبلهم، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأدباء. وربما نرح أبأؤه إلى الأندلس منذ زمن بعيد، ولكنه على كل حال غير عربى الأصل، نبغ فى بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها. وليس شعر ابن سهل إلا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف فى التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم فى لغته وعلومه ومدنيته.

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيًا صرفًا ولا تكاد تجد له في غير الغزل إلا القليل. فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون إلى الأهواء فتقودهم، وإلى القلوب والخيالات فترشدتهم إلى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جميلاً، ومعانيه رائعة شائقة سائغة للنفس، مع رشاقة في اللفظ ومتانة في الأسلوب، ودقة في التعبير. ذلك لأنه أمعن في هذا الكلام الغزلي حتى أتقنه وبرع في عباراته وكشف مخبأته. وكأنه لم يترك شيئاً يجول برأس العاشق أو تتحدث بها نفسه إلا ذكره أو وجده في نفسه فتكلم عليه في شعره. وقد خط له بهذا طريقاً سلكه ولم يخرج عنه إلى طريق آخر. وكأن آراءه في العشق والغزل هي كل ما يعرف وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها، لأنه لم يخرج مطلقاً عن هذه الدائرة حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات. ومثله في ذلك مثل من عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولاً من أولها إلى آخرها، ثم رتبها ترتيباً آخر كتبها بحيث جعل الأول آخرًا والآخر أولاً، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث ابتدأها من الوسط وهكذا. فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور خياله، لأن الشاعر الكبير الخيال يرى ألف شيء، ويفكر فيما حوله من الموجودات ويعمل على تصويرها وإبرازها بشكل جميل. والإنسان يرى غير حبيبه ويشعر بغير الحب، إذ ليس ذلك كل ما في الحياة اللهم إلا أن يكون شاعراً متميماً مجنوناً بحبيته، غارقاً في بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك. وليست هذه حال ابن سهل لأن جنون الحب غير ظاهر في شعره، فإنه على الرغم من اقتصراره على تغزله بحبيبه موسى تجده في كلامه ساكناً عاقلاً، ومتعملاً للكلام أحياناً. والظاهر أن موسى حبيبه رمز على عشقه إن كان عاشقاً عشقاً صحيحاً، أو ضرب من ضروب الفكاهة والظرف، لأنه كان يهودياً فأراد أن يذكر اسم موسى في

شعره ويرمز به عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعياً من دواعي الشعر فأخذ يتغنّى باسمه .

أما هذا الإكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن هذه الدائرة، فلا يدل إلا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا، وأنه ليس شاعراً واسع التصور والخيال .

لهذا يكفي لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحدة، فإن كل صائده تكاد كلها متساوية في المعنى والجودة والأسلوب . وربما ظهرت قيمته في شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث، وأعجب الإنسان بأسلوبه وبيانه، فإذا أكثر من قراءة شعره انطفاً لهيب ها الإعجاب شيئاً فشيئاً، ثم أحس القارئ أنه شاعر ككل الشعراء . وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد .

ولكنه مع هذا كله شاعر مجيد في نوعه، يتغزل فيذكر في غزله كثيراً من معاني العشق المختلفة، فيصف حبيبته بالجمال والكمال، ويصف أله ويشكو ويلتذ منه، ويبين كامن عواطفه وما هو في نفسه، ويمعن في ذلك حتى يأتي بشيء من المعاني المبتكرة والخيالات التي له . كقوله :

وإني لثوب السقم أدر لابس	وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى
تأمل لظى شوقى وموسى يشبها	تجد خير ثار عندها خير موقد
دعوة يذب نفسى ويهجر ويجتهد	تروا كيف يعتز الجمال ويعتدى
إذا مارنا شرزاً فمن لحظ أحور	وإن يلو إعراضاً فصفحة أغيد
وعذب بالى نعم الله باله	وسهدنى لاذاق بلوى التسهد

تطلع واللاحى يلوم فراعنى
وناديت لا إذا قال تهوى وإنما
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه
شكوت مجازاً للطيب وإنما
فقال على التأنيس: طبك حاضر
وقال شكا سوء المزاج وإنما
بكيت فقال الحسن هزءاً أتشتري
وقد يث شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة، ويصف حبيبه بصفات
جميلة، ويشبهه بالزهر، ويقارن بين لحظه فى السقم وجسمه فى السقم،
ويتذلل فى السؤال ويتمنى الموت، لعل حبيبه يزور قبره. وكأنما يريد أن
يتسلى بهذا الكلام أو يفخر بهذه الصناعة، أو يثبت لنفسه شيئاً من البراعة فى
قول الشعر، لأنه يشبه فى شعره رجل متصنعاً لا عاشقاً مخلصاً. حيث
يقول:

حكى لحظه فى السقم جسمى واغتذى
وأركبنى طرف الهوى غنج طرفه
وأغرى فؤادى بالأسى روض آسه
يعارض قلبى بالخفوق وشاحه
وما المسك خال من هوى خاله وإن
لنا ثالثاً فى ذاك ميثاق عهده
وأشرفنى بالعذب إشراف خده
وأوردنى ماء الردى غص ورده
ويحكى امتداداً زفرتى ليل صده
إذا الند منه مستهماً بنده

وقد يصور يأسه بأشد ما يكون، ولكن بارق أسلوب وأسهل عبارة،
وكأنه كلام فطرى لا خيال شعرى. كما فى قوله:

تدنيك زور الأمانى	منى وتنأى طلابا
كأننى حين أبغى	رضاك أبغى الشبابا
وأشتهى منك ذنبًا	أبنى عليه العتابا
حتى إذا كان ذنب	فتحت للعدر بابا
ظمئت منك لوعد	فكان وردى السرابا
لا خاب سؤلك أما	سؤلى لديك فخابا

ولقد برق فى أسلوبه حتى يخيّل إليك أن الكلام نثر لا شعر، وأنه ليس
فيه أدنى كلفة، وكأنما يغترف الكلام اغترافًا. وهو مع ذلك يجيء بالتشبيه
الجميل والمعنى الرقيق. كقوله:

سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى	تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من	دمعى وانشق يا ذكرى العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل	بين الرياض وبين الكأس والوتر
من لى به اختلف فيه الملاحه إذ	أومت إلى غيره إيماء مختصر
معطل فالخلى منه محالة	يغنى الدرارى عن التقليد بالدرر
بخده لفؤادى نسبه عجب	كلاهما أبدأ يدمى من النظر
وخاله نقطة من غنج مقلته	أتى بها الحسن من آياته الكبر
جاءت من العين نحو الخد زائرة	وراقها الورد فاستغنت عن الصدر

بعض المحاسن يهوى بعضها طرباً تأملوا كيف هام الغنج بالخور
وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين، فتخاله زهرة يانعة
غضة، أو غصناً يتحرك، أو زهرة تتألق. كقوله:

من لى بأن يدنو بعيد مزاره ظبى طلوع الفجر من أزاره
كالغصن فى حركاته وقوامه كالظبى فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومتشابه فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالنهاى كتلاعب الساقى بكأس عقاره
ثم يتكلم عن ذله وإعراض حبيبه عنه، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما
يصيبه من الآلام وما له من الشغف به، ويعجب من أمره فى ذلك إذ يقول:

يا حسنه لو كان يرحم صبه وجماله لو كان من زواره
ألف التجنى والبعد شريعة فالنجم أقرب من دنو مزاره
أومى إلى بلحظه فتناثرت خيالاته فى الخد من أشفاره
لما أراق دم المشوق تعمداً أسود نقط الخال من أوزاره
وإذا أقول عسى ولست وربما فمقال لا للصب من أخباره
فالخد يفرق فى معين دموعه والقلب يصلى فى جحيم أواره
عجباً لضد كيف يألف ضده هذا بأدمعه وذاك بناره
وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيبه، ويجول خياله فى ذلك
جولاناً يدعو إلى الإعجاب كقوله:

ضللت بالبدر على نوره
 أبطل موسى السحر فيما مضى
 مستحسن الأوصاف ممنوعها
 كالماء فى السحب وكالدُر فى الأصـ
 لو أنه عن حـــــــــــــــــورية
 ولو لدعا ميّتًا بألفاظه
 در ثنياه وألفاظه
 وعوذوه العين بل عوذوا
 كأنما الخال على خده
 ومن أحاديثه الغرامية قوله :

أشمس فى غلالة أرجوان
 وثغر ما أرى أم نظم در
 وخد فيه تفاح وورد
 ويعذلنى العواذل فيه جهلا
 فقالوا عبد موسى قلت كلا
 فقالوا هل عليك بذا ظهير
 فقالوا هل رضيت تكون عبدًا
 فقلت نعم أنا عبد ذليل
 وبدر طالع أم غصن بان
 ولحظ ما حوى أم صارمان
 عليه من العقارب حارسان
 عزيز ما يقول العاذلان
 فقالوا كيف ذا قلت اشترانى
 فقلت نعم على وشاهدان
 لقد عرضت نفسك للبان
 لمن أهوى فخلونى وشانى

بنفسي من يفديني بنفس
سألتك حاجة أن تقضها لي
فقلت أشم من خديك ورداً
فقلت أخاف صدغك أن يراني
فقال أعاشق ويخاف رمياً
كذاك الصب يعذر كل صب
فكان تحكما لا وزر فيه
أديرا الراح ويحكما سلافا

جعلت فداه لما أن فداني
فقال نعم قضيت وحاجتان
فقال وما تضم الوجنتان
وما أنا من لحاظك في أمان
جنبت وما عهدتك بالحبان
تحكم ما تشاء وفي ضمان
أكتبه على الكاتبان
فإن دارت على فعاطيان

وله كلام جميل في الوصف يدل على أنه كان يحب الجمال ويفهمه،
وإنه كان للرياض وما بها أثر في نفسه، وإن الألوان كانت تحرك إعجابه، وإن
مياه الأنهار وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله. كقوله:

الأرض قد لبست رداء أخضرا
هاجت فخلت الزهر كافورا بها
وكأن سوسنها يصافح وردها
والنهر ما بين الرياض تخاله
وجرت بصفحتها الربا بفحسبتها
وكأنه إذ لاح ناصع فضة
والطير قد قامت به خطباؤه

والطل ينثر في رباها جوهرها
وحسبت فيها النبر مسكا أذفرا
ثغراً يقبل منه ورداً أحمرها
سيفاً تعلق في نجاد أخضرا
كفا ينمق في الصحيفة أسطرا
جعلته كف الشمس تبراً أصفرا
لم تتخذ إلا الإراكة منبرا

وقال أيضاً يصف:

أنظر إلى لون الأصل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خدا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فألفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة كالكأس خرت من أنامل ساقى
وقال فى الوصف أيضاً:

شفق وشته خضرة فى حمرة فكأنه خد الحبيب معرضاً
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد شمرت ذيل الوداع لتنهضا
كالصب حين رأى عذار حبيبه لما بدا فسلا وولى معرضاً
وله فى وصف الخمر كلام رقيق يشبه كلامه فى الوصف . كقوله:

سل الكأس تزهو بين صبغ وإشراق أذوب فيها الورد أم وجنة الساقى
كؤوس تحيىها النفوس كأنها حديث تلاق فى مسامع عشاق
إذا قتلوها بالمزاج ليـشربوا أعاشوا مناهم بين موت وأخلاق
تشور كأن الماء يلسع صرفها فصوت المغنى مثل هينمة الراقى
وله فى موشحات سنذكرها فى بابها .

هذه صورة ابن سهل ، وهى صورة شاعر وصاف يجيد الوصف ،
وغازل يجيد الغزل ، ووجدانى لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما
يرى ويسمع قليل الآراء ، قاصر الخيال ، لكنه مبدع فى الأسلوب ، متفنن فى
الكلام ، لا يشعر الإنسان بأدنى ملل فى قراءة كلامه وهو فى كل ذلك خفيف
الروح مطرب معجب . وكفى بذلك دليلاً على جمال قوله ونصيبه فى
الافتنان .

الفتح بن خاقان^(١)

إذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فإنما نتكلم عن كتبه التى ذكر فيها كثيراً من علماء الأندلس وأدبائهم، وجميع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنثورهم، وشيئاً يسيراً من أخبارهم. وهى "قلائد العقبان" و "مطمح الأنفس". وقد دل ابن خاقان فى كتبه على سعة اطلاعه، وكثرة أدبه، ومعرفته التامة برجال الأدب فى الأندلس، مما لم يكن متيسراً لغيره. حتى أن أكبر كتب الأدب فى الأندلس كثيراً ما تنقل عنه. فقد نقل عنه المقرئ فى نفع الطيب وذكره فى أكثر من ستين موضعاً. ومع أنه كان معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا فى كتاباته. فكتبه من أمهات كتب الأدب فى الأندلس.

(١) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسى الإشبيلي صاحب قلائد العقيان. نشأ فى الأندلس ودخل إلى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لنبى تاشفين وألف كتابه "قلائد العقيان" لأبى إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدره باسمه. ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الأعداء. فأشار أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراكش الفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. وقد كان مشهوراً بالخلاعة والمجون. حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لا يدريك به. ولعل هذا من الأسباب التى جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه. وكان جواباً للآفاق. ينتقل من مكان إلى آخر، ولم يعرف عنه شئ كثير فى كتب التراجم. ولم نجد له ذكراً إلا فى ابن خلكان ذكره فى نحو نصف صفحة. ولم يذكره المقرئ فى نفع الطيب بغير الاقتباس من كلامه فى المطمح وغيره. على أن الفتح بن خاقان لا يخفى ذكره بما له من الفضل، وما أفاض له على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطمح الأنفس. ولا شك فى أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس.

أما طريقته فى الجمع والتأليف، فهى خالية من كل صبغة تاريخية علمية، من حيث التحقيق والتدقيق فى الرواية والجمع. بل هى طريقة الرواية والحفظ لا غير. لأن ما رواه كان معروفاً ومشتتاً فجمعه هو فى كتابه، كما أشار إلى ذلك فى خطبة كتابه مطمح الأنفس^(١).

نقل أخبار العلماء والأدباء كما كان معروفاً عنهم. وقد ينقل الخبر بدون أى تصرف فيه، سوى وضعه فى قالب معروف له. وإنما يعنى بتحسين العبارة وتسجيلها، وجمع الألفاظ ورفضها، مما لا يقدر عليه كل إنسان. فيترجم الكاتب أو الأديب، وهو فى أكثر ما يقول مادم لا غير، وكأنما هو ناقل للفضائل لا يرى غيرها. ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف فى أى سنة كان يعيش، ولا فى أى عصر كان معروفاً. وربما ذكر معه أسماء لبعض الأدباء أو العلماء، وربما لم يشر إلى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ما له من الشهرة. ولعله كان يعتمد على شهرته ويكتفى بها عن ذكر تاريخه كما فى كلامه على ابن حزم الظاهري^(٢).

وفى هذه الترجمة من التقصير شىء كثير. فإنه لم يذكر ابن حزم إلا يذكر كتبه بدون أى إشارة إلى محتوياتها. ولم يذكر شيئاً عن تاريخ حياته،

(١) قال: أنه كان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع ورروقوها، وقلدوها بحاسنهم وطوقوها، ثم هووا فى مهاوى المنايا، وانطوا بأيدى الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبتة فى ديوان، ولا مجملة فى تصنيف أحد من الأعيان، تحتلى فيه العيون وتجتنى منه زهر الفنون، إلى أن أراد الله إظهار إعجازها . . . فحللت من الوزير أبى العاص وندبنى إلى أن أجمعها فى كتاب . . . فأجبت رغبة الخ.

(٢) انظر المطمح ص ٥٥.

حتى يمكن أن يعرف معرفة تامة، أو معرفة صحيحة. وليس لهذه الترجمة شىء من القيمة العلمية، لأنها لا تفيد شيئاً عن ابن حزم. وهذا يدل على أن ابن خاقان لم يكن يعنى بما يكتب عناية رجل محقق، ولا عناية رجل يشعر بالواجب عليه، ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع، التنقيب عما يريد أن يكتب. والظاهر أنه كن يرم إلى الجمع فقط، بل لم يكن يميل مطلقاً إلى النقد ولا إلى أن يكون له رأى خاص.

ومهما قيل من أن الناقل يحب أن يكون أميناً، وليس عليه تبعة شىء فى النقل، فإن النقل يحتاج إلى تعن وفكر ثابت، لتمييز الصحيح من غيره. والفكر النقدي يظهر أثره فى كل شىء. ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر سوى الأسلوب. ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف، لأن هذه كانت حالة الكتابة هناك، وهكذا كانوا يكتبون. ولكن الذى نأخذه على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الأجوف، وهذه العبارات المنتفخة الفارغة من كل معنى، وإن احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار الألفاظ الطنانة، وذهبت جدة اللفظ بتذوق المعنى، واشتغل القارئ بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى. فلقد يشير فى كلامه إلى بعض الناس، بما يدل على شىء من أخلاقهم، ويفيد القارئ والباحث، ولكن عنايته بالألفاظ، وتناسق السجع، قد يكون حاجزاً منيعاً بين القارئ ومعانى المؤلف، كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن نماذج كتاباته^(١).

(١) قال فيه أية حركة فى سكون، وبركة لم تكن معدة ولا تكون، وآية سفاهة فى تحلم، وجهامة ورع فى طى تبسم وإذا جد تجرد وإذا هزل نزل، وفى كلتا الحالتين لم ينزل=

على أن ابن خاقان أجاد فى أساليب السجع عادة تنقل الكلام المشور إلى مرتبة الشعر العمل، فىستولى بأسلوبه وهذا من القراء لبراعته فىه، ولأثره الشخصى فى هذه الصناعة، وقدرته على الاسترسال فى ذلك، مع ما فىها من كثرة المترادفات.

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم فى نفسه من حيث إدراك الجمال فى القول، والبحث عن مواقعه. فكان يرتفع أحياناً بعباراته إلى أن تدب فى النفس وتملأها إعجاباً، وتذكر القارئ بأثر جمال الألوان والرياح والزهور، كما فى خطبة قلائد العثيان.

ولقد يتكلف فى غير حاجة سوى تتمكن ملكه التكلف من نفسه فىهوش على القارئ، كما فى ترجمة ابن عيشون. فإن ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شىء غير رحلته إلى المشرق، ولكن أى ومتى؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله، فقد قال فىه: "رجل المشيدات والبلاقع، وحكى النسرین الطائر والواقع، واستدر خلفى البؤس والنعيم، وقعد مقعد البائس

=للورع عن مرقب، ولا اكتساب إنما ولا احتقب، ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل اشتهر، ومن جوز قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض. وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز. . واستمر فى القضاء إلى أن مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى خلافته توفى بعد أن استغنى مراراً فما أعفى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عدت عليه فى حكومته ذلة، وكان غزير العلم كثير الأدب متكلماً بالحق متبياً بالصدق. له كتب مؤلفة فى السنة والقرآن والورع والرد على أهل الأهواء والبدع، وكان بليغاً وشاعراً محسناً ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة. (مطمح صفحة ٣٧).

والزعيم، فأونة في سماط، وأخرى بين درانك وأنماط، ويومًا في ناموس، وآخر في مجلس مأنوس. رحل إلى المشرق فلم يحمّد رجلته، ولم يعلق بأمل نحلته، فارتد على عقبه، ورد من حباله الفوت إلى منتظره ومرتبّه، ومع هذا فله تحقّق في الأدب، وتدفّق طبع إذا مدح أو نسب^(١).

هذا هو أسلوب الفتح في التأليف والكتابة، وهو على ما فيه من الآثار النافعة لأدب الأندلس، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطوارها في النثر، وعلى تمكّن أساليب السجع من الكتاب في تلك الأيام، وعلى ما فيه من الجمال وبلاغة العبارة وعلى شيء من النظام العقلي لديهم، لا يدل على شيء من قوة الفكر لدى الكتاب الأدباء، بل على أن اللغة في عز مجدها كانت غنية بألفاظها لا بمعانيها، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق إلى المغرب، فملكّت من الكتاب كل شيء. وقد دخل هذا الأسلوب في الكتب العلمية والتاريخية، كما هو معروف، ودل كتاب العرب على قدرتهم في استعمال الأساليب المختلفة والألفاظ مما ليس عند أمة أخرى.

على أن فضل الفتح بن خاقان لا يخفى ولا ينكر بما جمعه في كتبه مما ليس عند غيره.

(١) وقال أخبرني أنه دخل مصر وهو سار في ظلم البؤس، عار من كل لبوس، قد خلا من النقد كيسه، وتخلّى عنه إلا تقديره وتنكيسه، فنزل بأحد شوارعها لا يفتّرش إلا نكده، ولا يتوسد إلا عضده، وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصرة لا ينفج منها عنبر، ولا صندل لما كان من السحر، دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله، وفرط محاله وأعلمه أن الأفضل استدعاه، ولو ارتاد جودة بقطعة يغنيها له لأخصب مرعاه. فصنع له في حينه الخ (قلائد العقيان ص ٢٨٨).

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس، بل من أشهر من عرف هناك. وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي. تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة. وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب السلماني. نشأ من بيت علم وفضل، وتربى على حب العلم، وورث من أبيه كثيراً من ذلك. وكن معجباً به وبعلمه وأدبه وأخلاقه^(١).

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن. فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء. تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر، وبرع فيه وألف فيه كتاباً سماه "الأصول لحفظ الصحة في الفضول" عده هو نفسه من أحدث

(١) فقد قال عنه رحمه الله تعالى زمر عزم، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة، ذكاء يتوقد، وطلاقة يحسد نورها الفريد، وكانت له في الأدب فريضة، وفي النادرة العذبة منادم عريضة، تكلمت يوماً بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري، فتهلل وابتهج، وما برح أن ارتجل:

سماتنا في بنى النجابة
مراتباً بعضها الحجابة

الطب والشعر والكتابة
هن ثلاث مـبـلـغـات

طراز فى ذلك الفن فقال "العجب حتى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعملى ذلك لا أقدر على مداواة أراء الأرق الذى بى" ومهما يكن من المبالغة فى كلامه فإنه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن. وقد ألف كتباً أخرى فى ذلك. فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب، وامتزج بالأدباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً.

هذه التربية العلمية الأدبية الممزوجة بميله للعلوم والفنون وهيته نشاطاً عقلياً فكان من المؤلفين المشهورين، كثير الدرس والقراءة. ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جداً. حتى قالوا أنه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يأرق كثيراً.

وقد اغترف من كل بحر قطرة، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون، ولا سيما كتب التاريخ يحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار. فكان عقله خزانة علوم وآداب. وكان عالماً وفقهياً وشاعراً وكاتباً، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شىء تفوقه فى الأدب، حتى كان من أئمه. ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب^(١).

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر، والكتابة والشعر ألصق به من غيرها، فأجدر به أن يسمى أديباً لا عالماً. ولذلك أيضاً كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها، وهو فى كل ذلك واسع الخيال

(١) اكتفينا بالإشارة إلى رسائل لسان الدين وإلى شعره لأن ذلك كثير يدعو إلى الحيرة فى الاختيار فعلى القارئ أن يرجع إلى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب.

سديد الرأى، حاد اللسان، قادر على الاسترسال فيما يقول، كثير الاطلاع على اللغة. فساعدته هذا كله على الإطالة فيما يكتب ويفكر، وكان يحب الإطناب بطبيعته فاندفع وراء ذلك، وهو مثلوج الصدر، يعرض عليه خياله وفكره والمعانى والألفاظ، فلا يكاد يقف قلمه إلا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة. وكان قدر الكتابة عنده فى الإكثار لا فى الإجادة، أو أن الإجادة كانت لا تفارق الإطالة لديه. وهذا كان أسلوب الكتاب فى تلك الأيام. وكان يختار بجانب الإطالة السجع، فكانت كتاباته لا تخلو من مللين: ملل الإطالة و ملل السجع. وربما كان أعظم عيب فى أسلوب ابن الخطيب تلك الإطالة المملة، والسجع المتكلف. غير أن ملل الإطالة أسوأ من تكلف السجع. لذلك كثيراً ما يخفى عيب السجع لاختيار الكاتب الألفاظ. وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر، لأن طريقة السجع ليست طبيعية، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة، وربما انفرد بالمبالغة فيها. ويكفى هذا الأسلوب مقناً أنه لا يقدر على قراءته كل إنسان، وأنه لا يعيش إلا فى بطون الكتب، ولا يصح أن يكون نموذجاً من نماذج اللغة إلا للاستدلال على سيرها فى أزمنة التاريخ.

ولكن لك لا يدفعنا إلى جحود ما فى هذه الرسائل من المعانى والأفكار الصحيحة، أو من الشعور بأن الكاتب يميل إلى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب، ككلامه فى وصف المجالس والمحافل والمدن بالأوصاف الحقيقية، والأسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات.

أما شعره فكثير أيضاً، وأكثره يدل على أنه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين. وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله، أفضلها

فى ذلك موشحته الشهيرة التى أبدع فيها^(١). وهى من أرق الشعر وأجمله. وقد طرق فى شعره كثيراً من الموضوعات المختلفة والأساليب المتعددة، فتجد الشعر الغزلى الرقيق، والأسلوب الدقيق، وتجد شعر الفقهاء، وكلام الأتقياء، وأسلوب العلماء، وجفاف اللفظ والمعنى. على أن له كثيراً من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة.

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بنى الأحمر السلطان أبى الحجاج يوسف فأخذه فى حاشيته، وفى مقدمة كتابه. ثم جعله كاتبه الخاص وسلم إليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين. فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التى فتحت عليه باب الكتابة فى كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفاً فى ذلك الوقت. ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبى الحجاج، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك إفريقية ليستنجد بهم على أعدائه. وكانت الدولة فى ذلك الوقت فى اضطراب والناس بين مظلوم وظالم، وخارج على السلطان ومتملق له، وكل ذى نعمة محسود. فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا فى الإيقاع به. وكان قد خرج على محمد بن أبى الحجاج أخوه وتغلب عليه، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر، وقبض على لسان الدين، واستباح السلطان كل أموالهما، ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما. فجال لسان الدين فى تلك البلاد، وانتقل إلى أناكن كثيرة واستقر هناك. ولما رجع الملك إلى محمد بن أبى الحجاج عاد إلى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا فى غيبة لسان الدين ابن زمرك، أحد

(١) راجع هذه الموشحة والكلام عليها فى باب الموشحات.

مشهورى الكتاب والعلماء، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين . فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين، لأنه ظهر عليهم وملك الدولة منهم . فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم . فأخذوا فى بث الدسائس وإيغار السلطان عليه، ولكن ما أرجع لسان الدين إلى الأندلس ارتفع شأنه، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط، لأن البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فأشاع ابن زمرك عن لسان الدين أنه كافر مارق، وأنه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لا يبيحها الدين . فراجت هذه الوشايات عند السلطان وأثارت غضبه ولما علم لسان الدين بذلك، وعرف أنه لا بد أن ينال منه، عزم على الهرب إلى إفريقية بدعوى أنه ذاهب فى أمور تتعلق بالمملكة . ولكن عندما ذهبت إلى إفريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقلته، ودسوا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته ياف المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ فى تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم .

الموشحات^(١)

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب فى أغراضه وأوزانه، إلى أن حدث فى العقول ما دعاها إلى الابتكار فى العلوم والفنون. وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى الألسنة، وأكثرها انتشاراً فى المجالس، وأدعى إلى الانتقال من غيره، لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به، واشتماله على كل مرافق الحياة. فتطلعت نفوس الفنانين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغة البدوية إلى شكل حضرى أشبه بالبداءة فى الجمال، وأن يزجوا به فى مجتمعاتهم حتى يجازوا به القدماء فى إلهاماتهم الجميلة وفطرتهم النقية، وسداجتهم الفنية. فلم يفلحوا كثيراً فى الخروج به عن أغراضه التى تكلم فيها القدماء، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية. ولكنهم زادوا فى وجدانياته مما استدعته الحضارة، من التوسع فى الخمريات والعواطف من عشق وغيره،

(١) راجع فى الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفع الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك.

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248 - 351 et Serie volume 8 paga 155.

والباب الثانى والسبعين من كتاب "المستطرف" تأليف شهاب الدين أحمد الأبهى. والجزء الأول من "خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر" تأليف المولى محمد المحبى من ص ١٠٨ إلى ١١٠ وجاء فى كشف الظنون طبع بولاق ج ١ ص ٣٦٧ "الدر المكنون فى سبع فنون" لمحمد بن أحمد بن إلیاس الحنفى. رتب على سبعة أبواب فى فن الأشعار البديعة وفن الموشحات والموايا وفن الكاز وفن القوافى وفن الأرجال. والخاتمة فيما قيل فى الحماق. أ وله الحمد لله البديع فرغ فى رجب سنة ٩١٢ ولم نعثر على هذا الكتاب.

ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران. لك من جهة أغراضه.

أما من جهة أوزانه وصناعته، فقد كانت الحال فيه أسهل. فابتكروا من الأوزان فى الشعر والصناعة ما لم يبتكروه فى المعانى والأغراض. وتوسعوا فى ذلك حتى لقد يخيل إلى المطلع على الشعر العربى القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم، وطور من الأطوار الحديثة التى تخطاها الشعر. ولكن ذلك أظهر ما يكون فى الأوزان والقوافى، والقوانين التى وضعوها فى رقة الأسلوب، وبعض الخيالات التى لم تكن معروفة. حتى أخذ الشعر العربى صبغة حديثة مما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع، الجارية على غير ما كان معروفاً فيه، وخرجوا عن التقييد بنظام القوافى المعروف. قال ابن خلدون فى "فصل أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد": ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم، يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء، يخالف آخرها الثلاثة فى رويه، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت إلى آخر القصيدة، تشبيهاً بالمربع والخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين الخ.

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التى حدثت فى الشعر، إلى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما وغيرها وقالوا فى ذلك:

"أول من نظم "الموشح" المغاربة، وهذبه القاضى الأجل هبة الله بن سناء الملك، وتداوله الناس إلى الآن. وسمى موشحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له. وسبب تقدمه على ما بعده لإعرابه كالشعر. لكن يخالفه بكثرة أوزانه، وتارة يوافق أوزان الشعر وتارة يخالفه. "والدوبيت" أول من اخترعه

الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان، ويقال له الرباعي لأربعة مصاريعه. وقد اشتهر بإعجام دالة وهو تصحيف. وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالموالية، وأعرج بثلاث قواف، ومردوفاً بأربع أيضاً، وكله على وزن واحد. وتقدم على ما بعده لإعراجه أيضاً. وأول من اخترع "الزجل" رجل اسمه راشد وقيل أبو بكر قزمان^(١) وهو في اللغة الصوت، وسمى زجلاً لأنه يلتذ به ويفهم مقاطيع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوت. وهو خمسة أقسام ما تضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال، يختص بالزجل، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له "بليق" وما تضمن الهجو والنكت ويقال له "حماق" وما بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحومة فاسمه "مزيج" وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه "المكفر" بكسر الفاء المشددة. والأول أصعب هذه الخمسة. وقال مخترعه قزمان: "لقد جردته من الأعراب كما يجرد السيف من القراب". وسبب تقدمه على ما بعده كثرة أوزانه وصعوبة نظمه وقربه من الموشح في أغصانه وخرجاته، وأول من اخترع "المواليا" أهل واسط وهو من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت بقافية، ونظموا فيه الغزل والمديح وسائر الصنائع على قاعدة القريض. وكان سهل التناول تعلمه عبيدهم والغلمان وصاروا يغنون به في رءوس النخل وعلى سقى المياه، ويقولون في آخر كل صوت يا مواليا، إشارة إلى ساداتهم، فسمى بهذا الاسم. ولم يزل على هذا الأسلوب حتى استعمله البغداديون

(١) الصواب أنه ابن قزمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان توفي سنة ٥٥٥ هـ له ديوان مخطوط في عاصمة روسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فوتغرافية بدار الكتب المصرية وراجع في الكلام عليه.

فلطفوه حتى عرف بهم دون مخترعيه، ثم شاع. وسبب تقدمه على كل ما بعده لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معرباً على قاعدته. وأما "الكان وكان" فله نظم واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى، ولا تكون قافيته إلا مردوفة. وأول من اخترعه البغداديون، وسبب تسميته بهذا الاسم أنهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات. فكأن قائله يحكى ما كان، إلى أن ظهر لهم مثل الإمام ابن الجوزى، والواعظ شمس الدين الكوفى وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم. وسبب تقدمه على ما بعده لأنه ينظم بعض ألفاظه معربة. وأما "القوما" فله وزن، الأول مركب من أربعة أفعال، ثلاثة متوازية فى الوزن والقافية، والرابع أطول منها وزناً، وهو مهمل بغير قافية، والثانى من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية، يكون القفل الأول منها أقصر من الثانى، والثانى أقصر من الثالث. وأول من اخترعه البغداديون أيضاً فى الدولة العباسية برسم السحور فى رمضان. وسمى بهذا الاسم من قول المغنين بعضهم لبعض "قومًا لنسحر قومًا" فغلب عليه هذا الاسم. ثم شاع ونظموا فيه الزهرى والخمرى والعتاب وسائر الأنواع. وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يعجبه ويطلب له. وجعل لأبى نقطة عليه وظيفة فى كل سنة. ولما توفى أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليجزيه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك إلى رمضان. ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأضغى الخليفة وطلب له. فلما أراد أن ينصرف قال له:

يا سيد السادات لك بالكرام عادات

أنا ابن أبى نقطة تعيش أبى قد مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار، فأحضره وخلع عليه وجعل له ضعف ما كان لأبيه. والقوما والكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيرهم نظمها. وكل بيت من القوما قائم بنفسه وأما تأخيرها فلعدم إعرابه" (١).

واشتهر من هذه الأنواع فى الأندلس ما هو معروف "بالموشحات" (٢) وأصل الكلمة من الوشاح، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به، والشبيه بين الموشحات والوشاح ظاهر فى اختلاف الوزن والقافية فى الأبيات وجمعها فى كلام واحد كما سنرى.

(١) راجع خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٠٨.

(٢) قالوا فى مخترع هذه الموشحات أنه مقدم بن معافى الفريرى؟ من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى وأخذ عنه عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد. هكذا فى مقدمة ابن خلدون. وجاء فى الذخيرة فى الكلام على الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ. . . سلك إلى الشعر مسلکاً سهلاً. فقالت له غرابته مرحباً وأهلاً، وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طرقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا منادها، وقوم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بافقنا فيما بلغنى محمد بن حمود بن العمري الضريير وكان يضعها على أشطار الأشعار. غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامى والعجمى فيسميه المركز، ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان وقيل أن ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات.

ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكز يضمن كل موقف عليه فى المركز خاصة، فاستمر على ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابن أبى الحسن. ثم نشأ عبادة فأحدث التصغير وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف فى الأغصان فيضعها كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز.

وقد دعاهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والرفاهية حتى في أوزان الشعر وطرقه. فمزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة. وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف. وربما اخترعوا أوزاناً مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة. وقد يلحنون كلامهم هذا ويغنون به، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ. وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال^(١):

"وأما أهل الأندلس فلا كثر الشعر في قطرهم، وتهذيب مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة. وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. ويتجاوزون في تلك إلى الغاية، واستظرفه الناس وجمله الخاصة والكافة لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر الفريرى القبرى^(٢) من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى، وأخذ عنه ذلك ابن

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات.

(٢) قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون الفريرى وفي الذخيرة محمد بن محمود أو حمود العمرى وفي فوات الوفيات في ترجمة عبادة ابن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن حمود المقبرى الضرير وهو ناقل عن الذخيرة وفي نفح الطيب في الكلام على الموشحات نقلاً عن ابن خلدون مقدم ابن معافى القبرى وفي مقدمة ابن خلدون طبع باريس ص ٣٠ جزء ثالث مقدم بن معافرا ومعافى والقبرى بدل الفريرى أو التبريزى وهو خلط يدل على تحريف هذا الاسم.

عبد ربه صاحب العقد. ولم يذكرها لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت
موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر
المعتصم بن صمادح صاحب المرية. وقد ذكر الأعلام البطليوسى أنه سمع أبا
بكر بن زهر يقول كل الوشاحيين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من
قوله:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أتم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان
ملوك الطوائف. وجاء مصلياً خليفة منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى
النون صاحب طيلطلة. قالوا وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له
حيث يقول:

العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذائب رياض البساتين
وفى انتهائه حيث يقول:

تخطر ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين فظهرت لهم البدائع،
وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلي ثم يحيى بن بقى وللتطيلي من الموشحات
المذهبة قوله:

كيف السبيل إلى صبرى وفى المعالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرىد النواعم قد بانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها، الأعمى التطيلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

صاحك عن جمان سافر عن بدر

صاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون. وذكر الأعلام البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن بقى حين وقع له.

أما ترى أحمد في مجده العالى لا يلحق

أطلعـه المغرب فارنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الوشاحيين المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان في عصرهما أيضاً الحكم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حصر مجلس مخدمه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته: جرر الذيل أيما جر. فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلاء أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح وأطرباه، وشق ثيابه، وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت. وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة للداره الأعلى الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً

فى نعله ومشى عليه . ثم قال ابن خلدون بعد كلام . واشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحدين محمد بن أبى الفضل بن شرف . إلى أن قال وابن هردوس الذى له :

يا ليلة الوصل والسعود بالله عــــودى

وابن مؤهب الذى له :

ما العيد فى حله وطاق وشم طيب وإنما العيد فى التلاقى مع الحبيب وأبو اسحق الدوينى . قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول أنه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زى البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبته فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح

ومعصم النهر فى حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا؟ قال اختبر . قال ومن تكون؟ فأخبره . فقال ارتفع فوالله ما عرفتكَ . قال ابن سعيد وسابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر ابن زهر ، وقد شرقت موشحاته وغربت . قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح . فقال كنت أقول :

ما للمو له من سكره لا يفيق يا له سكران

هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا

إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا

وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظله دوح عليه أنيق مؤنق فينان
والماء يجرى وعائم وغريق ممن جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون. إلى أن قال: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه.
ذكر ابن الرئاس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه فأنشده موشحة
لنفسه، فقال له ابن حزمون لما الموشح بموشح حتى يكن عارياً من التكلف.
فقال على مثل ماذا؟ فقال على مثل قولي:

ياها جرى هل إلى الوصال منك سبيل

أو هل يرى عن هواك سأل قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة، قال ابن سعيد كان والدي يعجب

بقوله:

إن سيل الصباح في الشرق عاد بحرًا في أجمع الأفق

فتداعت نوادب الورق أتراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد عن

والده سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين

الفضل بقولك:

أوا حسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج
موشحاته غير ما مرة، فما سمعته يقول لله درك إلا في قوله:

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر
خد الصبح ليس يطرد ما لليلي فيما أظن غد
صح يا ليل أنك الأبد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى
ومن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حال ذى ضنى واكتئاب أمرضه يا وليلتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتئاب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
جفى جفوني النوم لكننى لم أبكه إلا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر ببر العدو ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة

يد الإصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

وابن خزر البجائى وله من موشحه

ثغر الزمان موافق حباك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهب شاعر إشبيلية وسبته من
بعدها قوله:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس
هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون. ونعود فنقول: أن سبب
اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة
والدعابة فى الكلام، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء
بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة، لضيق تلك الأوزان عن احتمال
عبث الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم.

والعقول إذا مالت إلى التغيير مالت إلى الابتكار وحب الجديد. لذلك
سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة، وحاولوا ابتكار شىء جديد،
فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة
اللهو والطرب والرقص وإنشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس. فوجدوا
ذلك أدعى إلى تحريك النفوس فابتدأوا أولاً بالأوزان العربية الخفيفة المعروفة،
كالرمل والهجج والمقطوعات وغير ذلك، وغيروا فيها القافية. وولدوا من ذلك
الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير فى الوزن والقافية. فاخترعوا من الأوزان
ما لا قاعدة له. ثم توسعوا فى هذه الأوزان وتفننوا فيها، وأودعوا هذا النوع
الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم. واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل
هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى. ثم تمشى فى نفوس جميع الناس حتى
أصبح نوعاً من أنواع الشعر العام. فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء
عبارات الوعظ والحكم، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف محبى الدين
ابن العربى.

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس إلى بلاد البربر وغيرها من بلاد

المشرق وكثير من البلاد الإسلامية، فنبغ شعراء كثيرون فى هذا النوع. وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة، أو من الآراء والأفكار التى كانت تدور فى رءوس كثير من الناس، فنظمها كبار الشعراء. وما زالت العامة تجذب الخاصة إليها، وتدفعها إلى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها، سواء أكانت من طريق الكلام أم من طريق الأغاني، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم. وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربى. لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية فى الموشحات أكثر وضوحاً منه فى الشعر العربى الفصيح.

فلا غرو أن نجد فى الموشحات خلطاً بين الشعر العربى الصحيح والكلام العامى الملحون، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربى، لذلك لا تخلو من أثره فى الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض. كما تتخلل ذلك عبارات عامية، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة. فنجد أبياتاً غير عربية وعبارات غير معربة. فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربى، ولكن فى غير الأسلوب الشعرى العربى الصميم وصناعته المعروفة.

وقد كان للموشحات أن تحدث فى الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية. ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعانى المعروفة قبلهم عند شعراء العرب. فلم يتكلموا فى الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا. لأنهم أرادوا أن

يتغنوا بذلك. ثم أوغلوا فى التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدى المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية. ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى. ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامى المعروف.

فالمشحات علامة من علامات الانتقال فى الشعر العربى، لأنها حادث جديد فى الأدب، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضاً، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشاراً عاماً فى جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية فى كل قطر، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى. على أن لذلك ميزة وهى أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى. ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية.

وقد ذكر ابن سناء الملك فى كتاب له سماه «دار الطراز فى صناعة الموشحات وأنواعها»^(١). كلاماً عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب فى ذلك فرأينا أن ننقل منه جزء عظيمًا قال:

" الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص. وهو يأتلف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفى الأقل من خمسة أبيات ويقال له الأقرع. فالتام. ابتدئ فيه بالإقفال، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات. فمثال التام موشح الأعمى وهو:

(١) وجاء فى كشف الظنون. در الطراز " لا دار الطراز " لأبى القاسم هبة الله بن جعفر المصرى المتوفى سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق).

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى
فهذا الموشح ابتدئ بقفلة. ومثال الأقرع:

سلوة الحبيب أحلى من جنا النحل
وعلى الكئيب أن يخضع للذل
أنا فى حروب مع الحقد النحل
ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه

فهذا الموشح ابتدئ ببيتة. والإقفال هى أجزاء مولفة، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها. والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح فى أوزانها وعدد أجزائها، لا فى قوافيها. بل يحسن أن تكون قوافى كل بيت منها مخالفة لقوافى البيت الآخر. والقفل كما تقدم يتردد فى الموشح ست مرات فى التام وخمس مرات فى الأقرع. وأقل ما يتركب القفل من جزأين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء. ولم أجد للمغاربة منه ما أثق بنسبه، فلهذا لم أذكر مثالا منه:

والبيت لابد أن يتردد فى التام وفى الأقرع خمس مرات. وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء. وقد يكون فى النادر من جزأين. وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف. وهذا لا يكون إلا فيما أجزاءه مركبة. وأكثر ما يكون خمسة أجزاء. والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً، والجزء من البيت قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً والمركب لا يتركب إلا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب فى الأقل من أربع فقر. وسنكتب ها هنا مثالا لكل ما ذكرناه ليتلخص

ويتشخص وينتقل ما تدركه بالقول سماعاً إلى أن تراه بالخط عياناً. فأمثلة
الأقفال:

القفل المركب من جزأين

شمس قاربت بدرًا راح ونديم

المركب من ثلاثة أجزاء

حلت يد الأمطار أزرة النوادر فيأخذني

المركب من أربعة أجزاء

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة أجزاء

يا من أجود ويخل على شحى وافتقارى أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة أجزاء

ميتات الدمن أحيين كربى وهل يتمكن عزا لقلبى مت يا عزاه شاه

المركب من سبعة أجزاء

الموشح المعروف بالعروس، وهو ملحون، واللحن لا يجوز استعماله

فى شىء من ألفاظ الموشح إلا فى الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا.

المركب من ثمانية أجزاء

على عيون العين نعى الدرارى من شغف بالحب

واستعذب العذاب والتذ حالیه من أسف وكره

وقد يندر في بعض الموشحات الشاذة التي لا يعول عليها أن تكون أقفالها مختلفة أعداد الأجزاء كالموشح الذي أوله: بابى علق بالنفس علق وهذا الموشح لعبادة، فإن قفله الأول جزءان، وبقية أقفاله ثلاثة. وسيأتى في هذا الموشح منسوقاً في جملة ما نذكر من الموشحات التي ذكرت الأمثلة منها:

فأنى أذكر في آخر هذه الأوراق كل موشح ذكرت المثال منه، ليكون أنس المتعلم أكثر، وعلمه بها في نفسه أرسخ.

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزأه مفردة: ما هو منها على ثلاثة أجزاء

أرى لك مهـند أحاط به الأثمـد فجرد ما جرد

فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

ما هو منها على أربعة أجزاء

قد باح دمعى بما أكتمه وحن قلبى لمن يظلمه

رشا تمرن فى لا فمه كم بالمنى أبداً ألـمه

يفتر عن لؤلؤ متسق من للأقاح بنسيمه العبق

أمثلة الأبيات التي أجزأها مركبة

ما تركب من فقرتين وثلاثة أجزاء

أقم عـذرى فقد آن أن أعكف

على خمـر يطوف بها أوطف

كما تدرى هضم الحشى مخطف
إذا ما ماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس
ما يتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف

من أودع الأجفان صوارم الهند
وأنتب الريحان فى صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد
أنى وللكتمان للهائم المغرم بدمع نم إذ يسجم بما يكتم
من السر فى عاطل جال عزيز ساط على بالدعج
ما تركب من فقرتين وأربعة أجزاء

ما حوى محاسن الدهر الأغزال
معروف الجدين من فهر عم وخال
نسبته للنابل الغمر وللنزال
فأنا أهواه للفخر وللجمال
وجهه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الأسد فتغدق
ما تركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الظباء الشمس قيصهن الصيغم
ما أن لها من كنس إلا القلوب الهيم
القرب منها عرس والبعد عنها مآثم

تلك الشفاة للعس يحيا بهن المغرم
لها لحاظ نعس ترنوا إلى من تسقم
بأعين العزلان وتبتسم عن جوهر الأسماط
قضى لها الغيران أن تكتتم فى مضمر الأنباط
وقد يندر فى بعض الموشحات ما يكون بيته جزأين مركبين من فقرتين
وهو شاذ جداً وهو:

باكر إلى الخمر واستنشق الزهرا
فالعمر فى خسر ما لم يكن سكر
فقلم أسلو عن مرشف الأكواس
وساحر الطرف مساعد الجلاس
فسقيني بنت الرياحين
ما تركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

من به إلى يرنو بمقلتي ساحر إلى العباد
ينأى به الحسن فيثنى نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد
فجيده أعيد والخذ بالخال منمق تكته الحجب فلى إلى الكلة تشوق
ما تركب من أربع فقر وثلاث أجزاء
بأبى ظبى حمى تكنفه أسد أغيل

مذهبي رشف لمى قرقفه سلسيل
يسبى قلبى بما يعطفه إذ يميل
ذو اعتدال يعزى إلى ذى نعمة ثابت
فى ظلال تحت حلى قطر الندى بات

والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح . والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف، قزمانية من قبل اللحن، حارة محرقة حادة منصجة، من ألفاظ العامة ولغات الخاصة، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدم من الأبيات والأقفال، خرج الموشح من أن يكون موشحاً، اللهم إلا إن كان موشح مدح وذكر الممدوح فى الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقى .

إنما يحيى سليل الكرام واحد الدنيا ومعنى الأنام

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً، هزاة سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة . وهذا معجز معوز، وما يوجد منه فى الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقى :

ليل طويل ولا معين يا قلب بعض الناس أما تلين

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلا فليغرب . والمشروع بل المفروض فى الخرجة أن يجعل الخروج إليها وثباً واستطراداً، وقولا مستعاراً على بعض السنة الناطق والصامت، أو على الأغراض المختلفة . وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكران . ولا بد فى البيت الذى قبل الخرجة . من

قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت فمما جعل على لسان الحمام
قول عبادة

إن الحمام فى أيكها تشدو

قل عل علم أو هل عهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان

ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقی

أنا وأنتــــا أسوة هذا الهجر

بالصبر بتنا عند انصداع الفجر

ومــذ رحلتنا غنى الجوى فى صدرى

سافر حبيبي سحر وما ودعتوا يا وحش قلبى فى الليل إذا افتكرتوا

ومما استعير على لسان الهيجاء قول عبادة

فالهيجا تغنى والسيف قد طرب

ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والأبطال تصيح الواثق يا جدع

والموشحات تنقسم قسمين: الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب
والثانى ما لا وزن له ولا إمام. له بها والذى على أوزان الأشعار ينقسم
قسمين أحدهما ما لا تتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التى جاءت
فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعرى. وما كان من الموشحات على هذا النسخ
فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا
الضعفاء من الشعراء. ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لا يملك،

اللهم إن كانت قوفى قفله مختلفة فإنه يخرج باختلاف القوافى الأقفال، فيقال
من الخمسات كقول بعضهم:

يا شقيق الروح من جسدى أهوى بى منك أم لم
فهذا من المديد وكقول الآخر:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
فهذا من الرسل وفى شجيان الوشاحين والطعانين فى صدور الأوزان
من يأخذ بيت الشعر مشهوراً ويجعله خرجة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل
ابن بقى فى بيت ابن المعتز وهو:

علمونى كيف أسلو وإلا فأحجبوا عن مقلتى الملاحا
فإن ابن بقى جعله خرجة لموشحه، وسيأتى ذكره. وفى الوشاحين من
أهل الشطارة والدعارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه فى
بيت من أبيات موشحه، كما فعل ابن بقى فى بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس فى كف أغيد وصوت المثنى والمثالث عالى
فقلت لهم إن كنت أضمرت توبة وأبصرت هذا كله لبدالى
فقال ابن بقى

قالوا ولم يقولوا صواباً
أفنى فى المجنون الشبـابـا
فقلت لو نويت متـابـا
والكأس فى يمين غزالى والصوت فى الثالث عال لبدالى

والقسم الآخر ما تخللت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صريحاً وقريضاً محضاً، فمثال الكلمة قول ابن بقي

صبرت والصبر شيمة العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذبي كفانى
فهذا من المنسرح وأخرجه منه "معذبي كفانى" ومثال الحركة هو أن يجعل على قافية فى وزن ويتكلف شاعرهما أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله

يا ويح صب إلى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر
فهذا من البسيط والتزام إعادة القافية فى وسط وزن على الحركة المخفوضة هو الذى أشرنا إليه :

والقسم الثانى من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه فى شيء من أوزان العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير، والقدر الذى لا ينحصر والشارد الذى لا ينضبط

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين قسم إقفاله وزن أبياته حتى كأن آخر الأبيات من آخر الأقفال كقول الأعمى

أحلى من الأمن يرتاح من قبرى ويفرق فى وجهه سنة يشجى بها
العذول ويشرق

لله ما أقرب	على محبه	وأبعدا
خلو اللمى أشب	آسا الضنافيه	وأسعدا
أحب به أحب	ويا تجنيه	طال المدا

أما ترى حزني ناراً على قلبي تحرق حسي بها جنة يا ماء يا ظل يا رونق
وقسم أقفاله مخالفة لأوزان الأبيات مخالفة تتبين لكل سامع ويظهر
طعمها لكل ذائق كقول بعضهم .

الحب يجنيك لذة العذل واللوم فيه أحلى من القبل
لكل شيء من الهوى سبب جد الهوى بى وأصله اللعب
وإن لو كان جد يغنى كان الإحسان من الحسن

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم لأبياته وزن يدركه
السمع ويعرفه الذوق ، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها إلى وزنها
بميزان العروض وهو أكثرها . وقسم مطرب الوزن مهلهل النسيج مفكك النظم
لا يحس الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالמושح الذي أوله

أنت اقتراحى لأقرب الله اللواحي

من شاء أن يقول فإني لست أسمع خضعت في هواك وما كنت لأخضع

حسبي على رضاك شفيع لى مشفع

نشوان صاحي بين ارتياح وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين قسم يستقل التلحين به
ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه وهو أكثرها ، وقسم لا يحتمل التلحين ولا يمشى
إلا بأن ميتوكاً على لفظه لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى
كقول ابن بقی :

من طالب ثار قتلى طبيبات الحدوج فتانات الحجيج

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول لا لا بين الخبرين الجيمين من هذا

القفل

ومما سنه القوم فى أكثر موشحات المدح أن يختم الموشح بالغزل ويخرج من المدح إليه، كما خرج إليه منه، وهذا هو الأكثر من عملهم وإلا ظهر من مذهبهم ومنه قول الأعمى

حلو المجانى ما ضره لو أجناتى كما عنانى وجدى به وعنانى

فإنه ابتداء بالغزل ثم خرج إلى المدح ثم ختم بالغزل. والموشحات فيها ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والثناء والهجو والمجون والزهد. وما كان منها فى الزهد يقال له المكفر والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف قوافى أقفاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفر ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

الموشح التام^(١)

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك عن جان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

آه مما أجـد شفى ما أجـد

قام بين وقعد باطش متئد

كلما قلت قد قال لى أين قد

وانثنى خط بان ذا مهز نضر عابثية يدان للصبـا والقطر

ليس لى منك بد خ فؤادى عن يد

لم تدع لى جلد غير أنى أجهد

مكرع من شهد واشتياقى يشهد

ما لبنت الدنان ولذاك الثغر أين محيا الزمان من حميا الخمر

بى هوى مضمـر ليت جهدى وقفه

كلما يظهر ففؤادى افقه

ذلك المنظر لا يداوى عشقه

بأبى كيف كان فلكى درى راق حتى استبان عذره وعذرى

هل إليك سبيل أو إلى أن أياسا

(١) هذه الموشحة للأعـمى التـطـيلى راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧ .

ذبت إلا قليل عبرة أو نفسا
ما عسى أن أقول ساء ظنى بعمى
وانقضى كل شأن وأنا ... خالعا من عنان جزعى وصبرى
ما على من يلوم لى تناهى عنى
هل سوى حب ريم دينه التجنى
أنا فيه أهيم وهو بى يغنى

الموشح الأقرع:

سطوة الحبيب أحلى من جنا النحل
وعلى الكئيب أن يخضع للذل
أنا فى حروب مع الحدق النجل
ليس لى يدان يا حور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه
ينبغى لتجنى لمثلك فى الأنس
لو قبلت منى لنهت على الشمس
غاية التمنى هلم إلى الأنس
أنت مهرجاني وخدك بستانى غط ياسمينه إن الناس يجنونه
خطط الوزير بخطط إيثار
فانتهى السرور إلى غير مقدار
ردت الأمور إلى أسد ضار

ثابت الجنان صفوح عن الجان قد حمى عرينه بالرزق المسنونة
خل كل مين إلى الحق منقاداً
من رأى بعين فى ذا الخلق من سادا
كأبى الحسين ويفديه من جادا
كل ذى امتنان لا بل كل هتان رام أن يكونه جوداً فأتى دونه
أظهر المقام فى الغربة حرمانا
فأنا ألام إسرار وإعلانا
قلت والكلام يصرح أحيانا
فزت بالأمانى ما جاد بإحسان صاحب المدينة أعلى الله تمكينه

المركب قفله من جزأين

شمس قارنت بدرًا راح ونديم
أدر كؤوس الخمر عنبريه النشر إن الروض ذو بشر
وقد درع النहरا هبوب النسيم
وسلت الأفق يد الغرب والشرق سيوفًا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
إلا أن لى مولى تحكم فاستولى أما أنه لولا
دمع يفضح السرا لكنت كتوم
أنى لى كتمان ودمعى طوفان شبت فيه نيران

فمن أبصرا الجمرا فى لج يعوم
 إذا لامنى فيه من رأى تجنيه شدوت أغنيه
 لعل له عذرا وأنت تلوم
 المركب قفله من ثلاثة أجزاء
 حلت يد الأمطار أزره النوار فيأخذانى
 اشرب طاب الصبوح فى ذا اليوم
 فى روضة تفوح لدى الغيم
 قد أشرفت تلوح لدى القوم
 ووجه ذا النهار مغطا بخمار من الدجن
 هذا الهوى يجوز فما صنعى
 قد ضاق يا منصور به ذرعى
 إذ ليس لى نصير سوى دمعى
 فيا ضعف انتصارى إذا دمعى أنصارى على حزنى
 ظلمت إذ بعدت عن الصب
 قعد كما قد كنت إلى قـربى
 غدرت ونفرت فيا حـبى
 أفديك من عذار يدين بالنفـار ولا يدنى
 محبوبى هب رضاكا وخذ عمـرى

وعلنى لما كا من الثغر
 بمبا حوت عينا كا من السحر
 برد غليل نارى وشم ظبا الأشفار لا تقتلنى
 لما أطال حزنى ولم يرحم
 وزاد فى التجنى وما سلم
 شدوته أغنى غنا مغرم
 حبيبى أنت جارى دارك بجانب دارى وتهجرنى

الموشح المختلف الأقفال:

بأبى علق بالنفس علق
 هويت هلالا فى الحسن فريدا أعار الغزالا إلحاظا وجيدا
 وتاه جمالا لم يبع مزيدا بدر يتلألا فى حسن اعتدال
 زانه رشيق والقد رشيق
 بدر يتغلب بالسحر المبين عذار معقرب على ياسمين
 سوسان مكتب بورد مصون لما لاح يسحب ذيول الجمال
 عن لى خلق بالعشق خليك
 جفانى يعيش لوقفى عليه لو بالنفس ريش لطرت إليه
 للحسن جيوش على مقلتيه واللحظ المريش بالسحر الحلال
 فله مشق والقلب مشوق

تعمد هجرى مذ دنت بوده وبددت صبرى على طول صده
ما الحسن يجرى بصفحة خده ثناياه ترزى بنظم الاللى
فمه حق باللثم حقيق

لما أن تسربل ثوب الحسن زيا أردت أقبل لماه الشهيا
فقال تمثل بالشعر أيبا ومال تدلل بأجلى مقال
أنا قول قوقو ليس بالله تذوقو

الموشح الذى بيته ثلاثة أجزاء مفردة:

أأفردت بالحسن أم خلقت إبداع
أرى لك مهند أحاط به الأئمد فجرد ما جرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع
أيا فتنة القلب خفف الله فى صب قتيل من الحب
تمنيه بالمزن وبرقك خداع

ما تركت بيته من فقرتين وثلاثة أجزاء:

كذا يقتاد سنا الكوكب الوقاد إلى الجلاس متشعشة الأكواس
أقم عدى قد آن أن أعكف
على خمر يطوف بها أوظف
كما تدرى هضم الحشا مخطف

إذا ما مباد فى مخضرة الأبراد رأيت الأس بأوراقه قد ماس

من الأنس وإن زاد فى النور
على الشمس وبدر الديجور
له نفسى ومات نفس مهجور
غزال صاد ضراغمة الأساد بلحظ جاس خلال ديار الناس
جلا الأجلالك بنور الهدى مرآه
فما الأفلاك تدير سوى عليها
كذا الأملاك عبيد عبيد الله
فمن أراد قياسك بالأمجاد فجها قاس سنا الشمس بالنبراس
لك الفضل وإنك من آله
رأى الكل بكم نيل مآله
فما يخلو من ينشد فى حاله
منى عباد بكم نحن فى أعياد وفى أغراس لاعدمتم للناس

ما تركب بيته من ثلاثة أجزاء ونصف:

من أودع الأجفان	صوارم الهند
وأثبت الريحان	فى صفحة الخد
قضى على الهيمن	بالدمع والسهد
أنى وللكتمان للهائم المغرم	مدمع نم إذ يسحم بما يكتم
من السر فى عاطل حال	غزير ساط على بالدغج

يا بأبى أحور	كالبدر فى التم
يفتر عن جوهر	مستعذب اللثم
وخده الأزهر	يدمى من الوهم
فكيف أن أعذر وقد سرى أرقم	على عتد فلا يلثم وقد حكم
من السحر لقتل أبطال	مع الأنباط جيش من الزنج
أجز للنور	كصاحب الطور
كبدر ديجور	فى قد خيزور
كغصن بلور	فى دعص كافور
بنفس مهجور أفدى وإن يتم	ففى مخيم ثابا فم قد نظم
من الدر راجى وسلسالى	على أسماط عطرية الفلج
الحسن موقوف	عليك يا أحمد
والأمر مصروف	إليك يا أغيد
عبدك مشغوف	فيك ومستبعد
أمنك تعنيف أو منك أن ترجم	وإن تحرم ضنا مغرم إذا يسقم
فوأسرى فى بحر أوجالى	بعيد الشاطى أمسك بالموج
وغاده تبدو	كالبدر فى السعد
أمالها النهـد	فى غصن رند
أوراقها البرد	أينع بالورد

باتت وهى تشدوا حبيبي أهجم وقم واعزم وقبل فم وجى وانضم
إلى صدرى وقم بخلخالى

الموشح الذى يتركب بيته من جزأين مركبين فى فقرتين:

باكرالى الخر واستنشق الزهرا فالعمر فى خسر ما لم يكن سكر
قفلى ما أسلو عن مرشف الأكواس وساحر الطرف مساعد الجلاس
فسقيني بنت الزراجين

فهاتها صرفا يا ذا الرشا الأهور راح حكى وصفا من خدك الأقر
رشاهو النبل والعدل بين الناس والمسك فى العرف من نفحة الأنفاس
فداريني عن مسك دارين

كم لامننى فيه نذل من العذل لما رأى فيه ميلا إلى وصلى
وإنما العذل فما به من باس رضا به يشفى ويكثر الإيناس
فهنوننى لست بمغبون

للطرف فى الفتك آثار معنى والعز فى الملك عز سلىمى
يهابه الكل خوط القنا المياس يشنى على الحقف مثل قضب الآس
من اللين ينقد عن لدن

لله ما أهوى خوذاً تغنيه
باحث بها الشكوى عمداً لتغنيه
أنت المنى تحلو فاترك كلام الناس

وادخل معى الفى مثل الشراب فى الكاس

يا كنونى كما تسيلنى

المركب قفله من ستة أجزاء :

الراح فى الزجاجه أعاياها خد النديم حمرة الورد

واستوهبت نسيمة فهجنت نشر العبير مع شذا الند

ما همت بالحما إلا وقد سقتنى

مليحة المحيا مليحة التثنى

والحسن قد تهيا فيها بلا تأن

أذكى بها سراجہ رأيت فى الليل البهم شعله الزند

لو أنها عليمه تاهت على البدر المنير وهو فى السعد

إن التى الام فيها على غرامى

لقدها قوام كالغصن فى القوام

لثغرها نظام كالعقد فى النظام

لريقها مجاجه كالمسك فى طيب الشميم كجنا الشهد

وعينها السقيمة وسانه من الفتور لا من السهد

تزيد فى بلائى والنفس تشتيهها

ولا أرى دوائى الإبريق فيها

قالت لأصدقائى وقد ضنيت فيها

احمى الهوى مزاجه دعوه من طب الحكيم فالدوا عندى
محبوبتى حكيمة تطفى برمان الصدور حرقه الوجد

كم فى الأنام مثلى شفاؤها دواها
وكم تريد قتلى ولم أرد سواها
وقال لائم لى لججت فى هواها

طابت لى اللجاجة وقلت للأشجان دوى ما أنا وحدى
ذو مهجة مقيمة فى القرب ظبى غزير وهو فى البعد

قلبي لها يتوق وقلبها يقول
هيهات لا طريق هيهات لا وصول
فقلت والمشوق يقنعه القليل

"....."

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك).

جملة من الموشحات^(١)

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جاءك الغيث إذ الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلمًا فى الكرى أو خلصة المختلس
إذا يقود الدهر أشتات المنى ينقل الخطو على ما يرسم
زمرًا بين فرادى وثنا مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جليل الروض سنى فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبًا معلمًا يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس الغرر
مال نجم الكاس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وטר ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمح البصر

(١) راجع طائفة من الموشحات فيما يأتى

فوات الوفيات للصلاح الكتبى جزء أول ص ٢٣، ٦٣ - ٦٧، ٩٨، ٢٣٧، ٢٥٥
وجزء ثانى ص ٤١، ١٣٩، ١٦١، ٢٤٣، ٢٦٧، ٣١١، ٣٢٠، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٧١ -
٣٨٧، ٣٨٥، ٤٠٤.

وفى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول ص ٣٠١ وجزء ثانى ص ٣٠٤، ٣٢٤،
٤١٧، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٨٠، والجزء الرابع طبع بولاق فى الكلام على الموشحات
والعذارى المائسات فى الأزجال والموشحات طبع بيروت.

هجم الصبح هجوم الحرس
أثرت فينا عيون النرجس
فيكون الروض قد كُن فيهِ
أمنت من مكره ما تتقيه
وخلا كل خليل بأخيه
يكتسى من غيظه ما يكتسى
يسرق السمع بأذنى فرس
وبقلبي سكن أنتم به
لا أبالي شرقه من غربه
تعتقوا عانيكم من كربه
يتلاشى نفساً فى نفس
أقترضون عفاء الحبس
بأحاديث المنى وهو بعيد
شقوة المغرى به وهو سعيد
فى هواه بين وعد ووعد
جال فى النفس مجال النفس
ففؤادى نهبة المفترس
وفؤاد الصب بالشوق يذوب

حين لذ الأنس شيئاً أو كما
غارت الشهب بنا أو ربما
أى شئ لامرئ قد خلصا
تنهب الأزهار منه الفرصا
فإذا الماء تناجى والحصا
تبصر الورد غيوراً برما
وترى الآس لبيباً فهمما
يا أهيل الحى من وادى الغضى
ضاق عن وجدى بكم رحل الفضا
فأعيدوا عهد أنس قد مضى
واتقوا الله واحيوا مغرما
حبس القلب عليكم كرمما
وبقلبي منكم مقترب
قمر أطلع منه المغرب
قد تساوى محسن أو مذنّب
ساحر المقلة معسول اللمى
سدّد السهم وسمى ورمى
إن يكن جار وخاب الأمل

ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
فى ضلوع قد براها وقلوب
لم يراقب فى ضعف الأنفس
ومجازى البر منها والمسى
عاده عيد من الشوق جديد
قوله إن عذابى لشديد
فهو للأشجان فى جهد جهيد
فهى نار فى هشيم اليبس
كبقاء الصبح بعد الغلس
واعمرى الوقت برجعى ومتاب
بين عتبى قد نقضت وعتاب
ملهم التوفيق فى أم الكتاب
أسد السرج وبدر المجلس
ينزل الوحي بروح القدس
الغنى بالله عن كل أحد
وإذا ما قبح الخطب عقد
حيث بيت النصر مرفوع العمد
وجنى الفضل زكى المغرس

فهو للنفس حبيب أول
أمره معتمل ممتثل
حكم اللحظ بها فاحتكا
منصف المظلوم من ظلما
ما لقلبي كلما هبت صبا
كان فى اللوح له مكتتبا
جلب الهم له والوصبا
لاعج فى أضلعى قد أضرما
لم يدع فى مهجتى إلا زما
سلمى يا نفس فى حكم القضا
دعك من ذكر زمان قد مضى
واصر فى القول إلى المولى الرضا
الكريم المنتهى والمنتضى
ينزل النصر عليه مثل ما
مصطفى الله سمي المصطفى
من إذا ما عقد العهد وفا
من بنى قيس بن سعد وكفى
حيث بيت النصر محمى الحمى

والهوى ظل ظليل خيما
ها كها بأبسط أنصار العلا
غادة ألبسها الحسن ملا
عارضت لفظاً ومعنى وحلى
هل درى ظبي الحمى إن قد حمى
فهو فى حر وخفق مثل ما
والندى هب إلى المغتـرس
والذى إن عثر الدهر أقال
تبهر العين جلاء وصقال
قول من أنطقه الحب فـقال
قلب صب حله عن مكنس
لعبت ريح الصبا بالقبس

موشحة ابن سهل التى عارضها لسان الدين

هل درى ظبي الحمى إن قد حمى
فهو فى حر وخفق مثل ما
يا بدورا أطلعت يوم الثوى
ما لقلبي فى الهوى ذنب سوى
أجتنى اللذات مكلوم الجوى
كلما أشكوه وجدا بسما
إذ يقيم القطر فيها مأتما
غالب لى غالب بالتؤده
مارأينا مثل ثغر نضده
أخذت عيناه منه العربده
قلب صب حله عن مكنس
لعبت ريح الصبا بالقبس
غررا تسلك فى نهج الغرر
منكم الحسن ومن عيني النظر
والتذاذى من حبيبى بالفكر
كالربا بالعارض المنبجس
وهى من بهجتها فى عرس
بأبى أفديه من جاف رقيق
أقحوانا عصرت منه رحيق
وفؤادى سكره ما أن يفيق

فاحم الجمة معسول اللمى
 وجهه يتلو الضحى مبتسمًا
 أبها السائل عن ذلى لديه
 أخذت شمس الضحى من وجنتيه
 ذهبت أدمع أجفانى عليه
 يطلع البدر عليه كلما
 ليت شعرى أى شىء حرما
 كلما أشكو إليه حرقى
 تركت ألحانه من رلقى
 وأنا أشكره فيمابقى
 فهو عندى عادل إن ظلما
 ليس لى فى الحب حكم بعدما
 منه للنار بأحشائى اضطرام
 وهى فى خديه برد وسلام
 أتقى منه على حكم الغرام
 قلت لما إن تبدى معلما
 أيها الآخذ قلبى مغتما

أكل الحظ شهى اللعس
 وهو من أعراضه فى عبس
 لى يجنى الذنب وهو المذنب
 مشرقًا للصب فيه مغرب
 وله خد بلحظى مذهب
 لاحظته مقلتى فى الخلس
 ذلك الورد على المغترس
 غادرتنى مقلته دنفنا
 أثر النمل على صم الصفا
 لست ألحاه على ما أتلفا
 وعذولى نطقه كالخرس
 حل من نفسى محل النفس
 يلتظى فى كل حين مايشا
 وهى وحريق فى الحشا
 أسد الغاب وأهواه رشا
 وهو من الحاظه فى حرس
 اجعل الوصل مقام الخمس

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال:

يا عريب الحى من حى الحمى	أنتم عيلى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعدما	حلتى لا وحياء الأنفس
من غدیری فی الذی أحبته	مالك قلبی شدید البرحا
بدرتم أرسلت مقلته	سهم لحظ لفؤادى جرحا
إن تبدى أو تشنى خلته	غصن بان فوقه شمس ضحا
نطلع الشمس عشاء عند ما	تنجلى منه بأبهى ملبس
وترى الليل أضأ منهزما	وترى الصبح أضأفى الغلس
يا حياة النفس صل النوى	والها مضنى شدید الشغف
قد براه السقم حتى ذا الهوى	كاد أن يفضى به للتلف
آه من ذكر حبيب باللوى	وزمان بالمنى لم يسعف
كنت أرجو الطيف يأتى حلما	عائداً يا نفس من ذاقا يأس
هل يعود الطيف صبا مغرما	ساهراً أجفانه لم تنعس
همت فى طلال ليلى وأنا	ليس فى الأطلال من أرب
ما مرادى رامة والمنحنى	لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
إنما سؤلى وقصدى والمنى	سيد العجم وتاج العرب
أحمد المختار طه من سما	الشریف ابن الشریف الكیس
خاتم الرسل الكريم المنتمى	طاهر الأصل زكى النفس

موشحة لبعض شعراء الأندلس يعارض بها موشحة لسان الدين:

جارك الغيث إذا الغيث هما	يا زمان الوصل بالأندلس
عطر الأرجاء لما نسما	شمال للصبح عند الغلس
وأنت شمس الضحى تنسخ ما	يقرأ الليل لنا من عبس
طاف بالكاس من الزهر فتى	مولع بالصد عنى مذ فتى
فتن الأبواب لما انتقما	واحتسى منه ببعض الشفة
وأنا ما بين حتى ومتى	صده تيه الهوى عن الفتى
وكؤوس الراح بين الندما	أرجت بالعرف أفق المجلس
خمرة صفراء فى البللور ما	أشبه ألحان بروض النرجس
بادر اللذة واجمع شملها	بمدام وغلاب مطرب
ذى عيون ناعسات كم لها	من فنون السحر ما يلعب بى
وافر الأرداف عانى حملها	ناحل الخصر وذا من عجب
كلما أترع كلما قال ما	أنت بالشارى حياة الأنفس
فابذل الجهد وكن مغتنماً	لنفس النفس طيب الأنفس
فرص الأيام كن متتهزاً	مبتداها قبل حذف الخبر
ورحاب الأنس لج متجزاً	قبل أن تمضى كلمح البصر
واجن من زهر الهوى محترزاً	من جنایات هجوم الكبر
لا تخف لوماً ويمم حيثما	لاحت اللذات كالمختلس

ما مضى أنس ووافى مثل ما
للرياض اذهب ترى بلبلها
وحدود الورد قد كللها
وقدود البان قد قام لها
والربا فاحت تحاكي خدما
حبيبها زرر بالزهر كما
وجلا الروض لنا أشجاره
وترى فى جيدها نواره
خلع الليل به أطمـاره
وبقايـاه زهت فيه أما
كغدار فى محيا علما
حبذا الصبوة أيام الصبا
فإذا أيقظها دهر صبا
جرد الشيب لنا بيض الشبا
وغدا الإنسان شيخاً هرمًا
فات إذا مات فيقضى ندما
لا تدع مـرك يمضى هدرا
وارق بالجهد من السؤل الذرا

كان ذا الدهر لنا بالحرس
لاشتياق الورد مثل الثكل
دمع طل لاشتياق البلبل
مانع الوصل بحد الأسل
وعليهن ثياب السندس
زر بالفضة ثوب الأطلس
مائسات فى قباء أخضر
يتلألأ كعقود الجواهر
فغدا كالصبح باهى المنظر
فى شفاه الغيد حس اللعس
فبدا للغير لا الملتمس
وعيون الشيب فى سهو الوسن
لصروف حد شفريها وسن
واقطفى شرخ شباب وظعن
واعتراه لاعج من وجس
واغتنام الوقت شغل الكيس
أنت إذ ذاك جبان غافل
واجتهد والضرع ضخم حافل

والجرىء الشهم ليث باسل
بادرا للأسد المفترس
وله العزم أضأ كالقبس
كابد الأهوال حتى ظفرا
من وراء الظهر أنى ظهرا
يقطع الليل جميعاً سهرأ
أنه يملأ بروح القدس
للتقى فاز به من يأتسى
قد عفت لما اعتراها فى خلل
نقع جهل جف منهن البلل
قاعها من عذب ما يشفى العلل
وهو بدر بكمال مكتسى
قدرها من نوره المقتبس
ليس إلا بابيه ينفـعـكـا
فى اتباع للذى يرفعكـا
منه واترك حاسداً يدفعكـا
خالع الربقة من قول المسى
نعله والكبر شأن المبلس

إنما الأيام أمثال السرى
ووحوش الإنس تسعى مغنما
ترك الوهم وخاض الظلما
ليس يحظى بالمنى إلا الذى
كان للراحة كالمتبذ
مثل ما قد بات ذا طرف قذى
فى طلاب العلم حتى علما
أحمد الناصب فينا علماً
حل فى مصر وإن كان العلا
ورياض الفضل لما أن علا
ازدرد أغصانها حتى خلا
نفردت إذ حل فيها كالسما
حوله الطلاب كالشهب سما
أيها الطالب للعلم ائتد
إن ترم نيل المرجى فاجتهد
علم من يعمل أكسيد فزد
والزم الأعتاب وانزل بالحمى
باعتماد فاز من قد لثما

منذ خبرت الناس طرا نظرا
لم أجد إلا مقالا صدرا
غير ما يمليه فانظر لترى
بيديع النطق لما نظمنا
وأتى يخضع جمع العلما
إنما المجد الرفيع الممتطى
يدع المرفوع كالمنهبط
ناظراً فى أمره بالأحوط
كل من أم حماد قا حمى
فإذا جرد منه انفصما
حبذا المغرب قطراً بالسنا
قطره الشامخ قد أهدى لنا
كل من فاتته أسباب المنى
فل لمن يرجو سوى المذكور ما
لا ولا الناس سـواء إنما
لذ بشهم فاز من أمله
أثقل السـؤدد إذ حمـله
وحمـاه الأمن من أمله
لنشاط الأمر فى هذا الزمان
عن دعا وأخلفت عند العيان
درر الألفاظ فى سمط البيان
بهت المنطيق مثل الأخرس
نحو ذا المفرد فى الملتمس
أرءوس الآساد قسرا مثل ذا
ثم للنازل يعلى منفذا
خافض الطرف على حر القذى
بحسام العزم هش الملمس
جامد الصخر بذاك الميس
فضله يبهر بدر الأفق
سيد قد فاق شمس المشرق
بعلاه للثريا يرتقى
ينبت الزهر بأرض اليـس
رأى من سـواهم فى هوس
بنوال فاق سح الهامل
وقر فضل مستبين شامل
بلغ القصد فبشرى الآمل

بحره الوافر العلم طما كامل الأمداد لم يحتبس
نال منجه الناس حتى عمما مشرقًا والغرب للأندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى يا سحب تيجان الربا بالحللى واجعلى سوارك منعطف الجدول
دور

باسمًا فيك وفى الأرض نجوم وما كلما أغربت نجمًا أشرقت أنجما
وهى ما تهطل إلا بالطللى والدمى

قفلة

فاهطللى على قطوف الكرم كى تمتلى وانقللى للذن طعم الشهد والفوفل
دور

تتقيد كالكوكب الدرى للمرصد يعتقد بها المجوسى بما يعتقد
فأئتد يا ساقى الراح بها واعتمد

قفلة

وامل لى حتى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق إن يزد يقتل
دور

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالسلام يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

قفلة

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يعزل الألمان الرشا إلا كحل
دور

لا أريم عن شرب صهبا وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لا أهيم إلا بهذين فقم يا نديم

قفلة

وانهل من أكؤس صرون من صندل أفضل من نكهة العنبر والمندل
دور

هل يعود عيش قطعناه بوادى زرود والجنود فى حضرتى تضرب جنكا وعود
والحسود فى معزل عنا غدا لا يسود

قفلة

عذلى لا تعذلونى فالهوى لذلى ما الخلى فى الحب مثل العاشق المبتلى
دور

أسفرت ليلتنا بالأنس مذ أقمرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت
شمرت فقلت للظلماء مذ قصرت

قفلة

طولى يا ليلة الوصل ولا تنجلى واسبلى سترك فالمحبيب فى منزل

يا نسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه إمام المرسلين العظيم

عن أليم وجدى به حدث وشوقى القديم

موشحة لابن زمرك

راحــــــــة الأرواح	فى كؤوس الثغر من ذاك اللعس
عــــــــاطر الأرواح	وتفشى الروض مسكى النفس
يــــــــهر الشمســــــــا	وكسا الأدواح وشيا مذهباً
يــــــــهـج النفســــــــا	عسجد قد حل من فوق الربا
تــــــــلحق الأنســــــــا	فاتخذ للهو فيه مركبا
ســــــــاجع الأدواح	منبر الغصن قد جلس
عــــــــطفــــــــه المراتح	حلل السندس خضرا قد لبس
حــــــــسنه قــــــــد راق	قم ترى هذا الأصيل شاحبا
فــــــــى حــــــــلى الأوراق	ولا ذيال الغصون ساحبا
قــــــــول ذى إشفاق	ونديم قال لى مخاطبا
هــــــــات شــــــــمس الراح	عادت الشمس بغرب تختلس
أــــــــوقــــــــد المصباح	إن أرانا الجو وجهها قد عبس
كــــــــلــــــــما تجلى	ووجوه الشرب تغنى عن شמוש

بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس
 مظهرات من خفايا فى النفوس
 ما زمان الأئس إلا مختلس
 وعيون الشهب تذكى عن حرس
 ما ترى ثغر الوميض باسمما
 وثناء الروض هب ناسمما
 بث من أزهاره دراهمما
 ركب المولى مع الظهر الفرس
 بجنود الله دأبا يحترس
 وجب الشكر علينا والهنا
 فزمان السعد وضاح السننى
 أثمرت فيه العوالى بالمنى
 يجتنى الإسلام منها ما اغترس
 فى ضمير النقع منها قد هجس
 يا إماما بالحسام المنقضى
 ثغرك الوضاح مهما أومضا
 وديون السعد منه تقتضى
 لك وجه من صباح مقتبس
 خمـرها أحلى
 سـورا تتلى
 فاغتم يا صاح
 تخصم النصاح
 بظهر البشرى
 عاطر أنشرا
 قائللا بشرى
 وسقى وارتاح
 إن غدا أورا
 بعضنا بعضا
 وجهه الأرضى
 ثمر أغضا
 سيفه السفاح
 شهب تلتاح
 نصر الحقا
 أخجل البرقا
 توسع الحقا
 بشـره وضاح

وجميل الصفح منه ملتمس منعم صفاح
ها كها تمزج لطفًا بالنسيم كلما هبا
قد أتت بالبر والصنع الجسيم تشكر الربا
أخجلت من قال فى الصبح الوسيم مغرما صبا
غرد الطير فنبه من نعمر يا مـديـر الراح
وتعـرى انفـجر عن ثوب الغلس وانجلى الإصباح

وله أيضاً:

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل فى الأغصان ينظمه بالجوهر

وراحة الإصباح أضاء منها المشرق تنشرها الأرواح
فلا تزال تخفق والزهر زهر فاح لها عيون ترمق

فأيقظ الندمان يبصرن ما لم يبصر
جواهر الشبان قد عرضت للمشتري

قدحت لى زندا يا أيها البارق أذكرتنى عهداً
إذ الشباب رائق فالشوق لا يهدأ ولا الفؤاد الخافق

وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران تحجب وجه القمر

لولا شمس الكاس يديرها بين البدور وأعرج الإيناس
منا على ربع الصدور لكن لها وسواس يغرى بربات الخدور

كم واله هيمان بصبح وجه مسفر
ضياؤه قدبان من تحت ليل مقمر

يا مطلع الأنوار كم فيك من مرأى جميل ونزهة الأبصار
ما ضر تشفى الغليل يا روضة الأزهار وعرفها يرى العليل

قضيبك الفتان يسقى بدمع همر
فلا عج الأشجان فيض الدموع يجرى

هل فى الهوى ناصر أو هل يجار الهائم لو كان لى زائر
طيف الخيال الحائم ما بت بالساهر ودمع عينى ساجم

والحب ذو عدوان يجهد فى ظلم البرى
وصارم الأجفان مؤيد بالخور

رحمك فى صب أذكرته عهد الصبا بواعث الحب
قادت إليه الوصبا لم تهف بالقلب ريح الصبا الأهبا

بليلة الأردن قد ضمخت بالعنبر
يشير غصن البان منها بفضل المئزر

طيبها حمد فخر الملوك المجتبى من يرجع الطود
من حلمه إذا احتبى قد جرد السعد منه حساماً مذهباً

فالبأس والإحسان والغوث للمستنصر
تحمله الركبان تحية للمنبر

عصاة الكتاب حق لها الفوز العظيم تختال في أثواب
حق لها الفخر الجسيم فحسبها الإطباب في الحمد والشكر العميم

خليفة الرحمن لا زلت سامى المظهر
يا مورد الظمآن ورأس المعسر

خذها على دعوى ترزى على الروض الوسيم جاءت كما تهوى
أرق من لدن النسيم قد طارحت شكوى من قال فى الليل البهيم

ليل الهوى يقظان والحب ترب السهر
والصبر لى خوان والنوم من عيني برى

موشحة لأبى حسن المرىنى

فى نعمة العود والسلافة والروض والنهر والنديم
أطال من لامننى خلافه فظل فى نصحه مليم

دور

دعنى على منهج التصابى ما قام لى العذر بالشباب
ولا تطل فى المنى عتابى فليست أصغى إلى عتاب
لا ترج ردى إلى جواب والكاس تفتتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه واختال فى برده الرقيم

دور

يا حبذا عهدى القديم ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لا يريم مـولـع بالتـودد
ما تم على به النعيم طوعاً على رغم حسدى
معتدل القد ذو نحافه أسقمنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه فحد فى خده الكلیم

دور

غصن الصبا عاطر المقبل أحلى من الأمن والأمل
طامى الحشا مفعم المخلخل حلو اللمى ساحر المفل

لكل من رامه توصل لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدي لى اعترافه إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه فحق لى فيه أن أهيم

دور

لله عسر لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى إدكارى غليه فرضا وشوقه دائمًا يهيج
فكم خلعنا عليه غمضًا وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يديم

دور

يا من بحث المطى غربا عرج على حضرة الملوك
وانثر بها إن سفحت غربا من مد مع عاطل سلوك
واسمع إلى من أقام صبا واحك صداه لا فض فوك
بلغ سلامى قصر الرصافة وذكره عهدى القديم
وحى عنى دار الخلافة وقف بها وقفه الغريم

موشحة لابن الوكيل

غدا مناديننا محكمًا فينا يقضى علينا الأسى لاولاتنا سينا

بحر الهوى يغرق من فيه جهده عام

وناره تحرق من هم أوقد هام

وربما تقلق فتى عليه نام

قد غير الأجسام وصير الأيام سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا

يا صاحب النجوى قف واستمع منى

إياك أن تهوى إن الهوى يضنى

لا تقرب البلوى اسمع وقل عنى

بحاره مره خضنا على غره حينًا فقام بها للنعى ناعينا

من هام بالغيد لاقى بهم هما

بذلت مجهودى لأحور ألى

يهم بالجدود ورد ما هما

وعندما قد جاد بالوصل أو قد كاد أضحى الثنائى بديلا من تدانينا

بحق ما بينى وبينكم إلا

أقررت عيني فتجمعوا الشملا

فالعين بالبين فقدكم أبلى

جدد لنا ما كان بالأهل والإخوان وموردا للهو صاف من تصافينا

يا جيرة بانت عن مغرم صب
لعهده خانت من غير ما ذنب
ما هكذا كانت عوائد العرب

لا تحسبوا البعدا يغير العهدا إذا طالما غير النأى المحبيننا

يا نازلا بالبان بالشفع والوتر
والنمل والفرقان والليل إذا يسر
وسورة الرحمن والنحل والحجر

هل حل فى الأديان أن يقتل الظمآن من كان صرف الهوى والود يسقينا

يا سائل القطر عرج على الوادى
من ساكنى بدر وقف بهم نارى
عسى صبا تسرى لمغرم صدى

إن شئت تحيينا بلغ تحيينا من لو على البعد حيا كان يحيينا

وافت لنا أيام كأنها أعوام
وكان لى أعوام كأنها أيام
تمر كالأحلام بالوصل لى لو دام

والكاس مترعه حثت مشعشة فينا الشمول وغنانا مغنينا

موشحة للشيخ محيى الدين

سرائر الأعيان	لاحت على الأكوان	للساظرين
والعاشق الغيران	من ذاك فى حران	يبدى الأئين

دور

يقول والوجد	أضناه والبعد	قد حيره
لما دنا البعد	لم أدر من بعد	من غيره
وهيم العبد	والواحد الفرد	قد خيره
فى البوح والكتمان	والسر والإعلان	فى العالمين
أما هو الديان	يا عابد الأوثان	أنت الضنين

دور

كل الهوى صعب	على الذى يشكو	ذل الحجاب
يا من له قلب	لو أنه يذكر	عند الشباب
قد قرب الرب	لكنه أفك	فانو المتاب
وناد يا رحمن	يارب يا منان	أنى حزين
أضنانى الهجران	ولا حبيب دان	ولا معين

دور

فنىت بالله	عما تراه العين	من كونه
فى موقف الجاه	وصحت أين الأئين	فى بينه

نقال يا ساهى	عانيت قط عين	بـــــــــــــــــــــــــينه
أما ترى عيلان	وقيس أو من كان	فى العــــــــابرين
قالوا بالهوى سلطان	إن حل بالإنسان	أفــــــــناه دين

دور

كم مرة قالا	أنا الذى أهوى	من هو أنا
فلا أرى حالا	ولا أرى شكوى	إلا الفــــــــنا
لست كمن مالا	عن الذى يهوى	بعد الجفــــــــا
ودان بالسـلوان	هذا هو البهتان	للعــــــــارفين
سلوهم ما كان	عن حضرة الرحمن	والآفــــــــكين

دور

دخلت فى بستان	الإنس والقرب	كــــــــمكنسة
فقام لى الريحان	يختال بالعجب	فى ســــــــندسه
أنا هو الإنسان	مطيب الصب	فى مــــــــجلسه
يا جنان يا جنان	اجن من البستان	الــــــــاسمين
وحلل الريحان	بحرمة الرحمن	للعــــــــاشقين

موشحة لأحد الشعراء

فتق المسك بكافر الصباح ووشت بالروض أعراف الرياح
فأسقيتها قبل نور الفلق وغناء الورق بين الورق كاحمرار الشمس عند الشفق
نسج المزج عليها حين لاح فك اللهو وشمس الإصباح
وغزال سامنى الملق وبرا جسمى وأذكى حرقى أهيف منسل سيف الحدق
قصرت عنه أنابيب الرماح وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا وجفون ساحرات وطفا كلما قلت جوى الحب انطفا
أمرض القلب بأجفان صحاح وسبى العقل بجد ومزاح
يوسفى الحسن عذب المبتسم قمرى الوجه ليلى اللمم عتري الباس علوى الهمم
غصنى القد مهضوم الواشح ما درى الوصل صابى السماح
قد بالقدر فؤادى هيفا وسبا عقلى لما انعطفا ليت به بالوصل أحيا دنفا
مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه فى هواه من جناح
يا على أنت نور المقل جدبو صل منك يا أملى كم أغنيك إذا ما لحت لى
طرقت والليل ممدود الجناح مرحباً بالشمس من غير صباح

موشحة لابن التلمساني

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

آمن من شينة الكلف

ذبت من حبيه بالكلف

لم يزل يسعى إلى تلفى

بركاب الدل والصلف

آه لولا أعين الحرس نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جاز مذوليا

كيف لا ترثى لمن بليا

فبعثر منك قد جليا

قد حلا طعماً وقد حليا

وبما أوتيت من كـيس جد فما أبقيت مصطبرا

بدرتم فى الجمال سنى

ولهذا لقبوه سنى

قد سباني لدة الوسن

بمحيا باهر حسن

هو خشفى وهو مفترسى فارو عن أعجوبتى خبرا

لك خد يا أبا الفرج

زين بالتوريد والضرع

وحديث عاطر الأرج

كم سنى قلباً بلا حرج

لو رآك الغصن لم يمس أو رآك البدر لاستترا

يا مذيئاً مهجتي كمدا

فقت فى الحسن البدو رمدي

يا كحילה كحله اعتمدا

عجباً أن تبرى الرمدا

وبسقم الناظرين كسى جفئك السحار وانكسرا

موشحة عارض بها أبو حيان موشحة التلمسانى

عاذلى فى الأهيف الآنس لو رآه الآن قد عذرا

رشأ قد زانه الحور

غصن من فوقه قمر

قمر من سحبه الشعر

ثغر من فيه أم درر

جال بين الدر واللعلس حمرة من ذاقها سكرا

رجة بالردف أم كسل

ريقة بالثغر أم عسل

وردة بالخد أم خجل

كحل بالعين أم كحل

يا لها من أعين نعس جلبت لناظري سهرا

مذ نأى عن مقلتي سنى

ما أذيقا لذة الوسن

طال ما ألقاه من شجن

عجباً ضدان فى بدن

بفؤادى جذوة القبس وبعينى الماء منفجراً

قد أتانى الله بالفرج

إذ دنا منى أبو الفرج

قمر قد حل فى المهج

كيف لا يخشى من الوهج

غيره لو صابه نفسى ظنه من حرة شررا

نصب العينين لى شركا

فانثنى والقلب قد ملكا

قمر أضحي له فلکا

قال لی يوماً وقد ضحکا

أتحبي من أرض أندلس نحو مصر تعشق القمر

موشحة لابن اللبانة الأندلسي

فى نرجس الأحداق وسوسن الأجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد

وفى نقاق الكافور والمندل الرطب

والهودج المرزوز بالوشى والعصب

قضب من البللور حمين بالقضيب

نادى بها المهجور من شدة الحب

أذابت الأشواق روحى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه أبراد

كواعب أتراب تشابهت قدا

عضت على العناب بالبرد الأندا

أوصت بى الأوصاب وأغررت الوجداد

وأكثر الأحباب أعدى من الأعدا

تفتر من أعلاق لآلى أفراد فيه اللمى محروس بألسن الإغماد

من جوهر الذكرى عطل نحور الحور

وقلد الدرا سلاله المنصور

جاوز به البحرا وأخرق حجاب النور

وقل له شعرا بفضلك المشهور

جمعت فى الآفاق مناقب الأضداد فأنت ليث الخيس وأنت بدر الناد

خرجت محتالا أبغى سنا البرق

أقطع أميالا غربا إلى الشرق
مؤملا حالا يكون من وفقى
فقال من قالا وفاة بالصدق

دع قطعك الآفاق يا أيها المرتاد واقصد إلى باديس خير بنى حماد
يا من رجا الطلا وأمل التعريس
إن شئت أن تحلى بطائل التأنيث
لا تعتمد أعلا على علا باديس
من فوقه أعلا قدراً من البرجيس
مواطن الأرزاق أولئك الأمجاد فاحطط رحال العيس وانفض بقاء الزاد

موشحة لأبى حيان الغرناطى

إن كان ليل داج وخائنا الإصباح فنورها الوهاج يغنى عن المصباح

سلافة تبدو كالكوكب الأزهر

مزاجها شهد وعرفها عنبر

يا حبذا الورد منها وأن أسكر

قلبى بها قد هاج فما يرانى صاح عن ذلك المنهاج وعن هوى يا صاح

وبى رشا أهيف قد لج فى بعدى

بدر فلا يخسف منه سنا الخد

بلحظه المرهف يسطو على الأسد

كسطوة الحجاج فى الناس والسفاح فما ترى من ناج من لحظه السفاح

علل بالمسك قلب رشا أحور

منعم المسك ذى مبسم أعطر

رياه كالمسك وريقه سكر

غصن على رجراج طاعت له الأرواح فحبذا الأراج إن هبت الأرواح

مهلا أبا القاسم على أبى حيان

ما إن له عاصم من لحظك الفتان

وهجرك الدائم قد طال بالهيمنان

فدمعه أمواج وسره قد لاح لكنه ما عاج ولا أطاع اللاح
يارب ذى بهتان يعذل فى الراح
وفى هوى النزلان دافعت بالراح
وقلت لا سلوان عن ذاك يا لاح
سبع الوجوه والتاج هى منية الأفراح فاختر لى يا زجاج قمعال وزوج أقداح

موشحة صفى الدين الحلى

شق جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقون
وبدا للطل فى جيد الأقاح لؤلؤ مكنون
ودعانا للذيذ الاصطباح طائل ميمون
فاخضب المبزل نم نحر الدنان بدم الزرجون
تتلقى دمها حور الجنان فى صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس بسنا الأنوار
وقميت العقل إذ تحيى النفوس راحة الأسرار
بنت كرم عتقت عند المجوس فى ييوت النار
غرس كرمتها بين القيان يد أفلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان دنها المخزون
أخبرتنا عن بنى العصر القديم خبر مأثور
وروت يوم مناجاة الكليم كيف دك الطور
ولماذا اتخذت أهل الرقيم كهفها المذكور
وندا يونس عند الامتحان بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان فلكه المشحون
مذ جلا شمس الضحى بدر التمام فى الليالى السود
وغدا يصبغ أذيال الظلام بدم العنقود

قلت يا بشراكم هذا غلام	وفتتاة رود
مزجا الكلس وقاما بسقيان	فى حمى جيرون
فبذلنا فى القناني والقيان	ما حوى قارون
نال فعل الخمر من ذات الخمار	عند شرب الراح
فغدت تستر من فرط الخمار	وجهها الوضاح
خلتها إذ لم تدع بالاختمار	غير صلت لاح
قمرأ تم لسبع وثمان	فى الليالى الجون
قدرته الشمس فى حال القران	فهو كالعرجون
أفعم الزامر بالنفخ المدار	نابه المخصور
فغدا وهو لأموات الخمار	مثل نفخ الصور
أو كما عاش الورى بعد البوار	بندى المنصور
ملك هذب أخلاق الزمان	عدله المسنون
وأعاد الناس فى ظل الأمان	عضبه المسنون
ملك أنجد طلاب الندى	غاية الأنجاد
متلف إن جال آجال العدى	واللهى إن جاد
من بنى ارتق أعلام الهدى	سادة إنجاد
مهد الأرضين بالعدل فكان	أمنها مضمون
ذبيها والشاة ترعى فى مكان	غدره مأمون

بأكف الجـود	بازل الأموال من قبل السوال
غاية المقصود	ما رجاءه أمل إلا ونال
جاد بالموجود	فإذا ما أمه راجى النوال
بكرها والعون	يهب الولدان والخور الحسان
يمنع المساعون	وسواه إن دعاه ذو لسان
فشرى الأحرار	يا مليكاً لبنى الدهر ملك
ساطع الأنوار	ملك أنت عظيم أم ملك
وجرى المقدار	بالذى تختاره دار الفلك
وهو كالمحزون	مذ رأى بأسك سلطان الأوان
بك يا هارون	حاول النصر كموسى فاستعان

وقد شاء فن التوشيح حتى أصبح من بدع الشعر والبلاغة. وانتشر فى جميع المجالس على ألسنة الخاصة والعامة، ثم أمعن الشعراء فى هذا النوع حتى تسربت فيه اللغة العامية، ودبت فى جسمه ديبياً، وغلبته على عربيته الفصحى وحتى خفيت معالم اللغة أو كادت، وغلب ذلك على الشعراء، وسموا هذا النوع الجديد "زجلاً" ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء. ذكر جملة منهم ابن خلدون فى مقدمته.

وقد اكتفينا بالإشارة إلى هذا الشعر العامى وإن كان جديراً بالعناية، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية. وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى.

تم

obeikandi.com

فهرس كتاب بلاغة العرب فى الأندلس

الصفحة

الموضوع

٥

تمهيد

فيه الكلام على الأدب وصلته بالاجتماع والكلام على بلاغة العرب فى الأندلس والغرض من هذا الكتاب ومراجع التاريخ والأدب فى الأندلس.

١٥

العرب فى الأندلس - دخول العرب بلاد الأندلس واختلاطهم بسكان هذه البلاد - الخلاف بين القبائل العربية هناك - طارق بن زياد وخطبته - الدول الإسلامية وعصورها - عصور الأدب والبلاغة.

٢٣

الحياة العقلية - تكوين الحياة العقلية والاهتمام بالعلوم - العناية بالكتب وجمعها - العناية بنشر التعليم وإنشاء المدارس - التأليف والمؤلفون - انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.

٣١

الفنون فى الأندلس - عناية العرب بالفنون - النقش والتصوير والعمارة - أخذ أهل أوروبا العلوم والفنون عن العرب فى الأندلس وكلام مؤرخيهم فى ذلك - الترف وأبهة الملك.

٣٧

الغناء ومجالس الأدب - العناية بالغناء والكلام على زرياب المغنى - مجالس اللهو والرقص وأغانى العشق وأثر النساء فى ذلك - مجالس الأدب والإقبال عليها وإنشاد الشعر فيها.

٤٦

النثر فى الأندلس - أحوال النثر فى الأندلس وأنواعه ونماذج من أساليبه المختلفة.

- الشعر فى الأندلس - التشابه بينه وبين الشعر فى المشرق - ابتكار ٥٤
شعراء أهل الأندلس فى الوصف وغيره وأمثلة ذلك.
- أبو عامر بن شهيد - ترجمته وشعره ونثره وما يمتاز به من ٦٥
الأساليب القصصية - قطعة من رسالته المسماة بالتوابع والزوابع -
آراؤه فى النقد الأدبى .
- ابن زيدون - حياته وصلته بابن جهور ثم موته ٨٦
شعر ابن زيدون وأساليبه ٩٠
- الغزل فى شعر ابن زيدون وصلته بولادة بنت المستكفى ١٠٠
نثر ابن زيدون والكلام على رسالتيه الجدية والهزلية . ١٠٨
- أحمد بن عبد ربه . ١١٨
- ابن دراج القسطللى ١٢٣
- المعتمد بن عباد ١٣١
- الوزير ابن عمار ١٤٢
- عبد الجليل بن وهبون ١٥٣
- ابن حمديس الصقللى ١٦٢
- ابن برد الأصغر وأسلوبه القصصى فى نثره ورسالته فى الأزاهر . ١٨٤
- الأعمى التطيللى ١٩٧
- ابن عبدون ٢٠٧
- محمد بن هانئ وأسلوبه الشعرى والكلام على جمال الشعر ٢١٢

- ابن الحداد وأسلوبه الشعرى فى وصف الأديرة والقساوسة وعبادة
النصارى. ٢٢٢
- ابن خفاجة الأندلسى والجمال وأثره فى الشعر. ٢٣٠
- ابن سهل الإسرائيلى ٢٤٣
- الفتح ابن خاقان ٢٥٣
- ترجمة لسان الدين بن الخطيب ٢٥٨
- الموشحات وكيف نشأت - الأنواع التى حدثت فى الشعر - كلام ٢٦٣
- ابن خلدون فى الموشحات - الميل إلى الخروج من طريقة الشعر
القديم - كلام ابن سناء الملك عن الموشحات فى كتابه "دار
الطراز" - جملة من الموشحات لأشهر الشعراء.